الجَرَّة المَشْروخة

إشــراقات الأمــل
في دياجي الحزن والأسى

محمد فتح الله كولن



سلسلة الجرة المشروخة (١٤)

إشراقات الأمل

في دياجي الحزن والأسى

الطبعة الأولى

رقم الإيداع

2015/20674

الترقيم الدولي

ISBN: 978-975-315-696-7

رقم النشر

1033

دار النيل للطباعة والنشر

الإدارة: 22 جـ- جنوب الأكاديمية- التسعين الشمالي - التجمع الخامس- القاهرة الجديدة - مصر

Tel & Fax:002 02 25379391

Mobile: 002 01023201002

E-mail: info@daralnile.com

www.daralnile.com

الجَرَّة المَشْروخة

إشـراقات الأمـل

في دياجي الحزن والأسى

تأليف:

محمد فتح الله كولن

ترجمة:

د. عبد الرازق أحمد – د. عبد الله محمد عنتر



فهرس

مقدمـــة

عند الاطِّلاع على العنوان الذي يحمله هذا الكتاب "**إشـراقات الأمل في دياجي الحزن والأسـى**" سَنُدْرِكُ لِأَوَّلِ وهلةٍ أنَّ هذا الكتاب يحملُ في طيَّاتِهِ ملخَّصًا لجميع المتطلَّبات القلبيّة والفكريّة والعاطفيّة التي يحتاجها العالم الإسلامي بشدّة في هذه الأوقات العصيبة التي يمرّ بها.

بـل يمكن القول إن إنسـان اليـوم يتلوَّى في خِضمِّ أزماتٍ أشـدّ عليه ممـا كان فـي عصر الجاهليـة، فأضحى ينخدع بالأكاذيـب، ويهرول وراء الأضواء المزيفة، ويلجأ إلى كلِّ السُّـبُلِ والأنظمةِ لَعَلَّهُ يَجِدُ حلًّا لِأَزَماته، أو كأنـه ينتظـرُ مُنْقِذًا خارِقًا أو عصًا سـحريّة تُخلِّصُه ممّا حلَّ به، لكنَّ هذا السلوكَ عمَّقَ من شَرْخِ الأزمات.

وإن تسـمية هذا الكتاب الذي بين أيدينا بـ"**إشـراقات الأمل في دياجي الحـزن والأسـى**" وليـس "أيام الحزن والأسـى" فحسـب لِيَعكـس العالم الفكـري لفضيلة الأسـتاذ فتح الله كولن، ويُجسِّـدُ نظرَتَـه الإيجابيّة إلى ما حوله حتى في أَحْلَكِ الظُّروفِ ومَلْقَى الحُتُوفِ.

أجـل، إن الأسـتاذ كولن قـد دَأَبَ فـي جميـع مقالاته ودروسـه على اتِّبـاع أسـلوب قرآني مُعَيّن؛ إذ إنه لا يكتفي بتشـخيصِ الـداءِ فقط، بل إنّه في الوقت ذاته يصِفُ الدواءَ الناجـع، ويبين نوعية التضخُّمِ السلبيّ الناتجِ عن عدمِ الأَخْذِ بهذهِ الحلول، وقدرَ الجماليّاتِ التي يُمْكِنُ أن تُضفى علينا نتيجةَ التداوي بِتِيكَ العقاقير الروحيّة.

وما كتبه الأستاذ كولن من مقالات نحو: "الفوضى، الابتلاء، الأمل"، "الفوضى، والعالم السحري للإيمان"، "نور في خضم الفوضى"، "الفوضى، والآمال اليانعة" لَيُؤَيِّدُ كثيرًا من الأفكار التي عرضناها آنفًا.

وإنَّ مِـن كَلِماتِـهِ الرقراقةِ التي جادت بها قريحتُهُ فـي خِتامِ حديثِهِ في درس له سُجِّل ونُشر في موقـع *(herkul.org)* بعنوان "الحال والأمل" قولُهُ:

> "إن كلّي أملٌ بإذن الله وعنايته في أنكم ستتمسكون بالدساتير الماسـيّة للقرآن الكريم والقيم الإنسـانية العالميـة، وتتقدمون إلى الأمام على الدوام، تحدوكم نسماتُ الأمل في فتح قلوب الناس، وتتمكنّون بإذن الله وعنايته من التغلُّبِ على حُسّادِكم في الداخلِ، وتَجَاوُزِ المصائبِ والنكبات المحتَمَلة في الخارج"[١].

وكتـاب "**إشـراقات الأمل فـي دياجي الحزن والأسـى**" يندرج ضمن سلسلة "الجرة المشروخة" التي تحتوي على دروسٍ متنوعة ألقاها الأستاذ كولن في السـنوات الأخيرة، وهذا الكتاب يرشـد الأذهانَ إلى آفاقٍ عالية، ويعـزفُ علـى الوتَرِ الحسَّـاسِ ويُلامسُ شـغاف القلـوبِ بطرحِـهِ الفريدِ لموضوعـات شـتى؛ بدءًا من تفسـيرٍ لبعـض الآيات القرآنيـة حتى تحليل وشـرح بعـض الأحاديث النبويّة، ومن الحياة الروحيـة والقلبية إلى الحياة الأسرية، ومنها إلى الحياة الاجتماعية، ومن الموقف الذي لا بدّ أن نتخذه

(١) *(/http://www.herkul.org/bamteli/bamteli-hal-ve-umit)*

عنـد مواجهة الصعوبات التي تعترضنا في حياة الخدمة حتى قضايا التربية والتعليـم، ومـن الدعاء الذي لا تكتنفه الغفلة إلى الإخلاص الذي هو لبُّ العمـلِ، ومـن ذلك كلِّـهِ إلى العلاقةِ بيـن الإخلاص والجهـادِ، والموقف الإيمانـيّ إزاء شـبكاتِ النفـاقِ التـي تجيشُ قلوبُهـا حقدًا وحَسَـدًا، ومن الأزمات والآلام إلى الآمال التي علينا أن نتحلّى بها.

ونـرى أنـه من المناسـب هنا أن نشـارككم بعـضَ الموضوعات التي جاءت بهذا الكتاب علّها تُسَلِّطُ الضوءَ على مجملِ ما جاء فيهِ من أفكار.

فعلـى سـبيل المثال يوصينا الأسـتاذ فتح الله كولـن بابتغاء مرضاة الله تعالى التي هي أعظم إحسـانٍ من الله تعالى على عباده، فيقول في المقال المعنون بـ"نحو أفق الرضا":

"لما كان الرضا نعمةً أكبر بكثيرٍ من الجنّة ونعيمِها؛ وجب أن نرفـع أيدينا إلى الله، ونضرع إليه بالدعاء دائمًا قائلين: "اللهم بلِّغنا أفق الرضا". أجل، علينا أن تكون أنفاسـنا قائمة على "اللّهُمَّ اهْدِنَا إِلَـى مَا تُحِـبُّ وَتَرْضَى"، ونستشـعر دائمًا "اللّهُمَّ عَفْـوَكَ وَعَافِيَتَكَ وَرِضَاكَ"؛ لأن الله تعالى وعد بأنَّه سـيمُنّ على الإنسـان بما يطلبه بصدقٍ وإخلاصٍ، لكن لا بدّ من الإلحاح في الطَّلَبِ؛ لأن استجابة الدعاء قد تتأخر بضـع سنين أو عقودًا".

ثـم يشـير إلى الموقف الـذي علينا أن نتخـذه إزاء المنافقين بقوله في المقال المعنون بـ"الموقف الإيماني من شبكات النفاق الحاقدة":

"إنّ الآلامَ المسـتعصيةَ، والخرابـاتِ الداثـرةَ ينبغـي ألا تُولِّد اليأسَ في روح الإنسـان، وألا تُصيبه بالذُعر، غير أنّ هذا لا يعني أنْ نغـضّ الطرف عن الدمار والتخريب الحادث، بل على العكس علينـا مشـاهدةُ هذا التخريـب والدمار المـروّع، لأن رؤيتـه تُذكّر

الإنسان بمسؤوليّاته وواجباته، وبهذه الطريقة فإنّ ذا الفِكرةِ المثاليّة والإحساسِ المرهَفِ السليم سيفكر ويتدبّر فيما يطلبه الله تعالى من عباده الصادقين تجاه هذا المشهد، ويُركّز على ما يجب القيام به من أمور قائلًا: "تُرى لو أن نبيًّا واجهَ مثل هذا المشهد ماذا عساه أن يفعل، وكيف كان سيتصدّى له؟".

وفي مقال "دعاءٌ جامعٌ لسيدنا رسول الله ﷺ" يضع الكاتب يده على مشكلةٍ اجتماعيةٍ خطيرة، فيقول:

"كما أن بعضَ الحكّام الذين جاؤوا من بعدُ عجزوا عن الحفاظ على العدالة التي سادت في عهد الخلفاء الراشدين ولجؤوا إلى سبيل المحاباة؛ فكانوا -على سبيل المثال- إذا ما أرادوا إرسال أحدٍ حاكمًا أو واليًا على مكان ما أو قاسمًا للغنائم اختاروه من بين أقاربهم، بينما لم يُحابِ أيُّ واحدٍ من الخلفاءِ الراشدينَ ﭫ قريبًا ولا نسيبًا، ولم يَمِيزُوا القريبَ من البعيدِ، ولم يُجاملوا أحدًا أبدًا؛ لأن الأمةَ التي تُوسِّد الأمانةَ لِغَيرِ أَهلِها، وتَعهَدُ بمسؤوليَّاتها إلى الأقاربِ دون غيرهم أمَّةٌ قد انتهى أمرُها، فكبِّر عليها أربعًا".

وما أروعَ أن ننهي هذه الاقتباسات من الكتاب بقول الأستاذ كولن في مقال "الجدارة والاستحقاق":

"مع الأسف يظهر في كل عهدٍ مَن ينزعج ويتضجّر مِن نشر الاسم المحمديّ الجليل على صاحبِهِ أفضل الصلاة وأتم السلام، ولكن القلوبَ التي وهَبَتْ نفسَها لِخِدْمَةِ الإيمان والقرآن لا تأبَهُ -وهي تؤدِّي وظائفها- بهذا اللَّومِ الجائرِ من هؤلاء، ولا تخشى تهديداتهم، ولا تستنكف عن طريقها، بل تسير دائمًا في طريق الحقّ حذِرَةً كيما تتعثَّر بالعوائق التي تعترضها".

وأخيـرًا نـرى من الأفضل أن نتطرق إلى مسـألة مهمة لها علاقة كبيرة بموضوعنا ألا وهي أنّ قيمةَ المرشِدِ الحقّ إلى الصراط المستقيم وحاجتَنا إلى إرشادِهِ وتوجيهاتِهِ تتبدَّى وتزدادُ أكثر في ساعةِ العسرةِ وأيّام الأزمات وليالـي المحـن والاضطرابات، ومـع هـذا فبدهيٌّ أنه لا يتمكّـنُ الجميعُ من الاسـتفادةِ من هذه الإرشـاداتِ، ولا ينعم بها إلا الذين هيّؤوا أنفسَهم وقلوبهم لتلقِّيها.

وفـي هـذا الصدد نتقدم بخالصِ الشُّـكْرِ والتقديرِ إلى فضيلةِ الأسـتاذِ فتــح الله كولــن على إرشــاداتِهِ وتوجيهاتِهِ، وندعو الله تعالـى أن يُتمَّ نعمَتَه عليه بالصحة والعافية ولا يحرمنا من مؤلَّفَاتِهِ وإرشاداته وتوجيهاتِهِ.

والله أعلم بالصواب.

أكتوبر/تشرين الأول (٢٠١٥م)
دار النيل للنشر والتوزيع

روح السلام

سؤال: فحوى فيلم "السلام"[٢] أنَّ المسلمين استقرّ بهم المقام في بلاد دخلوها بالسلام، أمّا البلاد التي دخلوها تحت ظلال السيوف فلم يبق لهم فيها أثر يُذكَر مهما طال مقامهم بها، فعلامَ يدلُّ الدخول بالسلام، وما مدلول روح السلام؟

الجواب: الأصل في الإسلام هو السلام، أما الحرب فهي أمرٌ عارض طارئ، ولا يُشرَع القتال في الإسلام إلا للدفاع عن القيم التي لا بدّ من مراعاتها وهي الضروريات الخمس: الدين والنفس والعقل والنسل والمال، فإن زحف عليكم مَن يقصد السوء والشرّ، ودَاهَمَكم وهدَّدَ وجودَكم، فلا يمكنكم أن تستقبلوهم بالزهور، بل إنه لَيتعيَّن القيامُ بحملةِ تعبئةٍ شعبيةٍ شاملةٍ وإعداد كلّ ما تقتضيه المعركة.

ومن الأسباب المشروعة للحرب نصرةُ المظلومين ورفعُ الظلم أينما كان وعلى أيّ شخص وقع، والحيلولةُ دون من يريد أن يقف حجرَ عثرة في مسار حرية الفكر.

(٢) فيلم **"السلام"** (٢٠١٣م – باللغة التركية) يتحدث عن معلمين فدائيين ذهبوا إلى أنحاء العالم لينشروا فيها روح السلام التي يحملونها وتضحياتهم ومعاناتهم، وكل محتواه واقعي لا خيال فيه.

الهدف هو الردع فحسب

أسّس القرآن الكريم مبدأ الردع لإرساء الأمن والسلام، فقال: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللهُ يَعْلَمُهُمْ﴾ (سورة الأَنْفَالِ: ٨/٦٠)، يأمرنا القرآن الكريم أن نتخذ شتى أنواع الإعداد لمواجهة أي خطر محتمل، ولنكون قوة رادعة تزرع الخوف في قلوب الأعداء وتحول دون وقوع الحرب ابتداءً.

وعلى مدى تاريخ الإسلام كلما سوّغت الظروف الحربَ لجأت القلوب المؤمنة -مضطرةً- إلى استخدام السيف أحيانًا؛ وغالبًا ما كان الهدف من استخدام هذا الحق كبْحَ جماح القوى المعتدية، ومعاقبةَ المستبدّين الذين يخلّون بالأمن والتوازن العام في العالم، والحيلولةَ دون انتشار الفوضى في الأرض، وإقامةَ الحق والعدل فيها.

ولعلّ سائلًا يسأل: هل رُوعيت هذه الأهداف والمقاصد بتمامها على مدى تاريخ الإسلام؟

المشهد العام يقول: إن المسلمين قد راعوا الاستقامة في هذا الأمر، غير أن هناك فترات وعهودًا معينة وقع فيها البعض في خطإٍ اجتهاديّ، بتعبير آخر لما رُجِّحت العدالة النسبية على العدالة المحضة في بعض الفترات لم يُراعَ هذا الأساس بحذق ودقة عالية وإن كان ذلك في سبيل إحقاق الحق، فمثلًا بعض المعضلات لم يراع هذا الأساس فيها مراعاة كاملة إذ كان يمكن حلُّها بالسيف الألماسيّ للقرآن والسنة الصحيحة أي دساتيرهما المحكمة، ولا حاجة حينئذ إلى السيف الماديّ، وأرى أن هذا الضرب من الخطإ في الاجتهاد كان من أسبابِ قِصَرِ عُمرِنا في بعض البلدان خلال فترات مختلفة عبر التاريخ.

السلام قيمة إنسانية عالمية

بيـن الماضي واليوم اختلاف كبيـر في الظروف، فقد تكوّن في العالم كلـه اليـوم قدرٌ ما من الثقافة الديموقراطيـة، وازدادت أهمية العلم والبيان أكثر مما مضى، وأصبحت للدساتير الألماسية للقرآن والسنة أهميةٌ متميزة وتأثيـرٌ خاصّ فـي الدفاع عن الحـق والحقيقة وتشـريبِها للقلوب في جوٍّ كهـذا لا تتأتى فيه الغلبة على المدنيين المثقفين إلا بالإقناع؛ فمن الأهمية بمكان استثمار العلم والبيان والفن في التعبير عن القيم الإنسانية العالمية مثـل التضحيـة والتفانـي ونذر العمر في سـبيل الآخرين؛ تلـك القيم التي ولّدتها وعَمَرَتها القلوب المؤمنة في أعماق أرواحها.

إنَّ فيلم "السـلام" انطلق مِن هذا المبـدإ أعني انفتاح الأرواح الفدائيّة علـى العالم، ولمـا عَرَضوا لي أجزاءً منه قبل عرضـه لأبدي وجهة نظري حاولـت أن أقيّمه إجمالًا في حـدود معرفتي رغم أني لا علم لي بالأفلام والسـيناريو والإنتـاج؛ والفيلـم عمومًا فيه جوانب إيجابيـة حرية بالتقدير؛ لأنه يعرض مسـألة الفكر والمبدإ والتضحية والإخلاص بما يتوافق ويليق كثيرًا بإنسـاننا، ومسـألةَ انفتاحهم على أقاليم كثيرة على مستوى العالم من إفريقيا والشرق الأقصى حتى البلقان.

أجل، كان من المهم جدًّا أن يُعنَى المعلِّمون بمَن يعيش في مثل هذه البلدان ويَنْشَـأ على ثقافات ومبـادئ مختلفة، وأن يغتمّوا لأمرهم وينذروا حياتهم في سـبيلهم، ويليّنوا قلوبهم بالحب والقيم الإنسانية، ويسموا بهم إلى مستوى نضج معين؛ وهذا الذي حاول الفيلم أن يشير إليه.

وتعلمون أن فطرة الإنسان تكمن فيها ردة فعل تجاه الأجنبي، وتكون ردود الفعل أشدَّ وأصعب لدى من سَامَه الآخرون الصهر والسَّحقَ والنفي

من قبل، إذ يتعسر عليهم قبول الآخرين، ورغم كل هذه العوارض السلبيّة فـإن ما قام بـه المتطوعـون التربويون المهاجـرون إلى الـدول المختلفة، ونفوذَهـم إلـى قلوب الشـعوب في هـذه البلاد، وتأسيسَـهم جسـورًا من الحـب والحوار والسـلام بيـن الثقفـات والمجتمعات المختلفـة لهَو أمرٌ جديرٌ بالاحترام والتقدير.

معلِّمون تُقبَّل أقدامُهم

إن إنساننا لما اتَّخذ مبادئ القرآن والسنة الماسية مُرشدةً له غدا رحبَ الصدرِ رحابةً تتيح لكلّ من يدخله أن يتربّـع فيه، حتى لكأنه رسالة تدوّي في أرجاء الدنيا كلِّها تنشد الحبّ والعالم الجديد.

ومِن مشـاهد الفيلم: معلِّمٌ رأى طالبين على جسر تاريخيّ يتشاجران، وفجأةً سقطا في النهر، فألقى بنفسه على إثرهما لينقذهما، ففداهما بروحه وغـرقَ، فلما رأى الخصمان موقف المعلـم الفدائي تعانقا وراحا يبكيان؛ لم أملك عينيّ أمام هذا المشـهد، وربما كان هذا حال أكثر المشـاهدين، ولا تختلف المشـاهد التي مُثِّلت في إفريقيا وأفغانسـان عن هذا، وأهمّ ما في هذه المشـاهد أنها واقعية، بل إنّ الممثلين للفيلم ذكروا أنّهم سُـحِروا بهـذه اللوحـة الواقعيـة من تضحيـات المعلمين فـي الأماكن التـي ذهبوا يصورون فيها.

هـؤلاء المعلمـون الفدائيّون وجدوا أنفسـهم أحيانًا وسـط حرب وما برحوا مدارسَـهم وطلابهم حتى أثناء حصار المدن التي أقاموا بها؛ وكان لمشـاعر الوفاء الفياضة هذه أثرها في الحفاظ على الطلاب؛ ولما لم يعبأ هـؤلاء المعلمـون بالموت ومضـوا في أداء رسـالتهم انفتحت لهم أبواب القلوب.

ونظّم هؤلاء الفتية المهاجرون في سبيل الغاية المثلى رِحلات إلى أرجاء العالم كافة؛ منهم من ترك عروسه بفستان العرس وسافر، ومنهم من ارتحل وقد خطب حديثًا، ومنهم من قبّل أيدي والديه الباكيين مستودعًا اللهَ إياهما وانطلق في طريقه، وبعد هذه التضحيات أليس جديرًا بهم أن تُقبَّل أقدامهم لا جباههم فحسب؟

لا نستطيع القول إن كل واحد منهم يفقه فلسفة النهج الذي يسير فيه بكل أبعاده، إلا أنه لما قيل لهم: "سيروا على بركة الله" امتثلوا متمسكين بشعور التسليم في قلوبهم متوكلين راضين دون أدنى تذمر، يسوقهم الله فينساقون انسياقًا مباركًا، ولم أجد ولم يبلغني -وإن وقع- أنَّ أحدًا من هؤلاء المهاجرين تبرم وتقهقر؛ آلاف الشباب النوابغ تخرجوا في أرقى الجامعات، وما إن صدرت شهاداتهم حتى انطلقوا بشوقٍ عارمٍ وعشقٍ بالغٍ، ولم يفكِّروا إلا في غاياتهم المثالية رغم تطلعات آبائهم وأمهاتهم ومَنْ حولهم، ومضوا في طريقهم عن طيب خاطر وحاديهم:

أَبِالنَّفْس يُفتَنُ مَن هو بالحِبِّ مُغرَمُ

أبالحِبّ يُفتَن من هو بالنفس مُتَيَّمُ

سلكنا طريق العشق وإننا لمجانينُ هُيَّمُ

أيا قلبِ مَهْ، فما غايتنا السمعة والمجد

صَبَغُوا القلوب بالسلام

انطلق إخوتُنا هؤلاء ينشرون السلام حيث حلّوا، وغدت الكتب والمجلات وبرامج التلفزة المختلفة مرآة لما فعلوا، فَصَبَغُوا القلوب بالسلام كما نقشوه بالأقلام[٣]، وعلّموا طلابهم معنى السلام، فإذا مروا باللغو مروا كرامًا، وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلامًا.

(٣) مشهد من الفيلم: يكتب المعلم كلمة "السلام" على السبورة ويشرح معناها للطلاب.

هكذا، فإن سِرتم على هذا النحو فستُخلّدون حيثما حللتم، وتحظى رسالة السلام التي تحملونها بمكانها في النفوس، وتظل تدوّي في الأفئدة والصدور؛ فالحق تعالى لا يُضِيع هذه الخُطى سدًى؛ فكما ورد في الحديث إن تقربتم إليه شبرًا تقرب إليكم ذراعًا، وإن تقربتم إليه ذراعًا تقرب إليكم باعًا، وإن أتيتموه تمشون أتاكم هرولةً، فكان سمعكم الذي تسمعون به، وبصركم الذي تبصرون به، ويدكم التي تبطشون بها... فكيف لا تُؤثّرون في النفوس إن منّ عليكم الحق تعالى بهذا اللطف الواسع؟

وحمادى القول أن السلام هو رأسمالنا الوحيد اليومَ، يومَ أن أُغمدت السيوف المادية، ومقتضى السلام أن تكون بلا يد إزاء من ضربك، وبلا لسان تجاه من سبّك، وبلا قلب يغضب أمام من آذاك، فعلينا ونحن ماضون في طريقنا ألا نعبأ باللوم، وأن نثبُتَ على موقفنا ونقاوم ما حَيينا، وأن نقول: "هذه دارُ تحمُّل، لا دار تضجُّر"، وأن نبتغي الحركةَ الإيجابيَّةَ دائمًا، وأن نعكُف على واجبنا فحسب.

الرضا في الدنيا والرضوان في الآخرة

سؤال: هل ثمَّةَ فرقٌ بين الرضا والرضوان؟ وما أهمُّ الوسائل للوصول إلى رضوان الله تعالى؟

الجواب: إن الرضا يكون من الله ومن العبد، وهو والرضوان بمعنى واحد، إلا أن الرضوان يعبَّر به عن الرضا الكثير، وأعظمُ الرِّضَا رضا الله تعالى، لذا خُصّ الرّضوانُ في القرآن بما كان من الله تعالى"[٤].

رضا العبدِ هو أن يرضى العبدُ عن الله ﷻ، وعن دين الإسلام المبين الذي وضعه ربُّه، وعن رسول الله الذي بلّغنا هذا الدينَ الحنيفَ، وأن يُذعِنَ قلبيًّا لكل ما قدّره الله، وأن يستقبلَ ما حلّ به من بلايا ومصائب بسكينةٍ واطمئنان، ولقد أشار رسول الله ﷺ إلى مثل هذا الأفق من الرضا بقوله: "**ذَاقَ طَعْمَ الْإِيمَانِ مَنْ رَضِيَ بِاللهِ رَبًّا، وَبِالْإِسْلَامِ دِينًا، وَبِمُحَمَّدٍ رَسُولا**"[٥].

---

(٤) انظر: الراغب الإصفهاني: **المفردات في غريب القرآن**، مادة "ر ض ي".

(٥) **صحيح مسلم**، الإيمان، ٥٦.

ومـن خلال هذا البيان المبارك يكشـف النبي ﷺ مـن جهةٍ عن طبيعة العلاقة بين العبد وربّهِ، ويحدِّدُ لنا من جهةٍ أخرى الهدفَ الذي يجب علينا أن نصبـو إليـه؛ وفي قول مولانا تبارك وتعالى في مواضـع عدَّةٍ من القرآن الكريـم: ﴿رَضِيَ اللّٰهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ (سـورة الْمَائِدَةِ: ١١٩/٥) إشـارة إلى أن بلوغ أفق الرضا هو أسمى غاية ينبغي للمؤمنين الوصول إليها.

فمَن حرص على الرضا، وجعله دائمًا جُلَّ همِّهِ، وغايةَ آمالِهِ، وسـعى سعيًا حثيثًا في سبيله؛ ففي هذا دلالة على رضا الله تعالى عنه؛ لأن الله ﷻ إن لـم يـرضَ عن عبدٍ من عباده حرَمَهُ الشـعورَ بالرضا، وعلى ذلك يمكن أن يُقال إنّ مَن لم يَرضَ عن الله تعالى وقضائه وقدره ولم يقابِل كلَّ مصيبةٍ تنـزل به بتسـليمٍ وطيبِ نفسٍ فهذا يُعدّ علامـةً واضحةً على عدم رضا الله تعالى عنه.

الرضوان: بشرى السعادة الأبدية

أمـا الرضـوان في الآخرة فهو الجزاء الـذي يتحصّل عليه العبد مقابل سـعيِهِ وجُهـدِهِ في الدنيا لِنَيلِ مرضـاة ربِّهِ، ولا يعزُبُ عـن عِلْمِكُم أنّ كلّ عبـادةٍ يؤدِّيها الإنسـانُ في الدنيا تتمثَّل له نعمةً مـن نِعَمِ الجنة في الآخرة؛ أو كمـا يقول الأسـتاذ بديـع الزمان ؒ تعالـى: "إن كلمةَ "الحمد لله" التي يقولُها المؤمنُ في الدنيا تصيرُ ثمرةً مجسَّمةً في الآخرة"[٦].

أجل، إن الصائم الذي يصبر على الجوع والعطش في الدنيا سيحظى بالدخـول مـن باب "الرَّيَّان" في الآخرة[٧]؛ بمعنى أنه سـيصل إلى منبـعٍ إذا شـرب منه فلـن يظمأ بعده أبـدًا؛ باختصار إن إيمان الإنسـان وسـلوكيّاته

(٦) بديع الزمان سعيد النورسي: **الكلمات**، الكلمة الحادية والثلاثون، الأساس الثالث، ص ٦٧٨.

(٧) انظر: **صحيح البخاري**، الصوم، ٤؛ **صحيح مسلم**، الزكاة، ٨٥.

في الدنيا تتدثر بمعانٍ مختلفة في الآخرة، إذ تتمثل أمامه أحيانًا نعمةً محسوسةً تُرى بالعين وتُمسَك باليد، وأحيانًا أخرى انشراحًا في الصدر، أو موجاتٍ تحمل نسائمَ الرضا.

ومن ثمّ فالرضوانُ هو الفضلُ والإحسان الذي لا حدودَ ولا شواطِئَ له، يأتي على صورة جسمٍ محسوسٍ ملموسٍ يمنّ الله به على عباده المؤمنين في الآخرة، وبعبارة أخرى فالرضوان هو نعمةٌ تفوقُ كلَّ التصوُّرات، يتفضَّل الله بها على عباده المؤمنين في دار السعادة الأبدية؛ إذ يسقي اللهُ أرواحهم منها؛ فيشعرون بنفحةٍ من الذوق الروحاني واللذة المعنوية التي تُنسيهم حتى نعيم الجنة.

أيّهما أعظم فضلًا: الرضوان أم رؤية جمال الله تعالى؟

وفي هذا الصدد قد ترِد على الأذهان مسألة: أيّهما أعظم فضلًا الرضوانُ أم رؤيةُ الله تعالى؟ فمن خِلالِ ما ذكره علماءُ أصول الدين ذوو الدراية الكبيرة بالكتاب والسنّة الصحيحة يمكننا أن نستنبط أن رؤية جمال الله هي من أعظم نعم الجنة، وقد عبر الشيخ سراج الدين الأُوشي ﵀ عن هذه الحقيقة في "بَدْء الأَمالي" وبيّنَ اعتقاد أهل السنة في هذا الأمر فقال:

يَرَاهُ الْمُؤْمِنُونَ بِغَيْرِ كَيْفٍ ... وَإِدْرَاكٍ وَضَرْبٍ مِنْ مِثَالِ

فَيَنْسَوْنَ النَّعِيمَ إِذَا رَأَوْه ... فَيَا خُسْرَانَ أَهْلِ الِاعْتِزَالِ[٨]

ويقول الأستاذ النورسي ﵀: "إن قضاء ألفِ سنةٍ من حياة الدنيا وفي سعادةٍ مرفَّهة، لا يساوي ساعةً واحدةً من حياةِ الجنة! وإن قضاءَ حياةِ ألفِ سنةٍ وسنةٍ بسرورٍ كاملٍ في نعيم الجنة لا يساوي ساعةً من فرحةِ رؤيةِ جمالِ الجميل سبحانه"[٩].

(٨) الأوشي: **بدء الأمالي**، البيتان ٢٠-٢١.
(٩) بديع الزمان سعيد النورسي: **المكتوبات**، المكتوب العشرون، المقام الأول، ص ٢٧٨.

نعـم، إن رؤيـة جمال الله فضلٌ إلهيٌّ عظيم يَـبُـزُّ نعيمَ الجنة، ومـع هذا فإنّ النبيَّ ﷺ يقول:

"إِنَّ اللَّهَ يَقُولُ لِأَهْلِ الْجَنَّةِ: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ!

فَيَقُولُونَ: لَبَّيكَ رَبَّنَا وَسَعْدَيْكَ وَالْخَيرُ فِي يَدَيكَ!

فَيَقُولُ: هَلْ رَضِيتُم؟

فَيَقُولُـونَ: وَمَـا لَنَا لَا نَرضَى يَـا رَبِّ وَقَدْ أَعْطَيتَنَا مَا لَـمْ تُعْطِ أَحَدًا مِن خَلْقِكَ.

فَيَقُولُ: أَلَا أُعْطِيكُمْ أَفْضَلَ مِنْ ذَلِكَ؟

فَيَقُولُونَ: يَا رَبِّ وَأَيُّ شَيءٍ أَفْضَلُ مِنْ ذَلِكَ؟

فَيَقُولُ: أُحِلُّ عَلَيْكُمْ رِضْوَانِي فَلَا أَسْخَطُ عَلَيْكُمْ بَعْدَهُ أَبَدًا"(١٠).

فخطابُ الله تعالى للمؤمنين في الجنة يدلُّ على أنّ الرضوانَ هو أعظمُ إحسانٍ يبعثُ الحبورَ والانشراحَ في نفس الإنسان لدرجةٍ تُنسيه رؤية جمال الله، ويُشْعِرُه بنسمات من الأذواق الروحانية التي يتعذَّر تخيُّلُها وتصوُّرها.

وقد ذكر ربُّنا ﷻ صراحةً في سـورة التوبة أن الرضوان هو أعظمُ نِعَم الجنان فقال: ﴿وَرِضْوَانٌ مِنَ اللهِ أَكْبَرُ﴾ (سورة التَّوْبِةِ: ٧٢/٩).

من طلبَ الرضا نالَ الرضوانَ

حاصـل القـول: إن رضا العبد عن ربه ورضوانَ الله عن عبده وإنْ كان كلٌّ منهمـا يعبّـر عن حقيقة مختلفـة نظرًا لتعلُّقِهما بالدنيـا والآخرة إلا أن بينهما علاقةً وطيدةً تُشْبِهُ علاقةَ السببِ بالمسبّبِ والعِلَّةِ بالمعلولِ، فإذا ما

(١٠) **صحيح البخاري**، الرقاق، ٥١، التوحيد، ٣٨؛ **صحيح مسلم**، الجنّة وصفة نعيمها وأهلها، ٩.

أعطيتـم إرادتَكم الجزئيّةَ حقَّها في الدنيا، وعبَّرتم عن رغبتِكم في رضوان ربِّكم، وبذلتم جهدَكم في هذا السـبيل شرَّفكم الله برضوانه نتيجةَ ما قمتم به من سعيٍ وجهد محمودٍ.

غيـر أن هنـاك أمرًا علينا أن نفهمَه على الوجهِ الصحيح ولا نغفل عنه وهو: أن العلاقةَ السببيّة والعِلِّيّة بين هذين الأمرين لا تتوافق أو تنطبِقُ مع قانـون السـبب والنتيجة في العالم المادّيّ؛ لأنكـم إن قطّرتم قطرةً واحِدةً مـن الرضا فـي الدنيا تتبخّر هـذه القطرة وتَصَّعَّدُ في السـماء وتعظُم حتى تصيـر بحـرًا خِضَمًّـا في الآخـرة، بيدَ أن القطـرة من حيث قانون السـبب والنتيجـة لا تفضـي إلى بحرٍ ألبتة، ولكن الحـقّ تبارك وتعالى بِلُطْفِهِ الذي لا حدَّ له وبرحمته الواسعة المُغدَقَة قد حوَّل رضاكم عنه الذي يُمثِّل قطرةً في الدنيا إلى محيطٍ متلاطِمِ الأمواجِ في الآخرة.

جَناحان يوصّلان إلى الرضوان: إعلاء كلمة الله والإخلاص

إن من أقصرِ الطُّرُقِ وأعظمِ السبلِ التي توصّل الإنسانَ إلى إحراز رضا الله ورضوانِه إعلاء كلمة الله تعالى. أجل، إن تبليـغَ كلمةِ الله وإعلاءَ شأنِها فـي كلِّ الأصقـاع المظلمة مـن الأرض والعَدْوَ كالفـرس العربي الأصيل دونَ تعبٍ ولا نصبٍ في سـبيل أن تُرَفْرِفَ الروحُ المحمّديّةُ في كلِّ أرجاء العالم لَمِنْ أعظمِ الوسـائل التي توصّل الإنسـان على جناحِ السـرعةِ إلى رضا الله، وعلى ذلك يمكن القول إننا وإن كنا نعتبر إعلاءَ كلمة الله وسيلةً للوصول إلى الرضوان فهي وسيلةٌ بمستوى الغاية.

فعلى الإنسـان أن يهتمّ في جميـع حركاته وسـكناته بإحياء الآخرين، وأن يبـذل وسـعه لتتعلَّـم الإنسـانيةُ قواعدَ سـلوكيّةٍ جديـدةٍ، وأن يقتنِصَ الفُرَصَ في سـبيلِ توجيه الإنسـانية إلى الله تعالى، وأن يعشقَ هذه الوظيفةَ

ويتعلَّـقَ بهـا؛ حتى إنه إذا لم يقدر على أدائِها نَدَبَ حظَّهُ واعتبر حياتَه التي يعيشها هباءً وعبثًا.

ولا جـرم أن على الإنسـان أن يكون مخلِصًا عنـد أدائه لوظيفة إعلاء كلمة الله حتى لا يخسـر في موقعٍ هو أدعى للكسـب، فالمُخلِص هو مَن يُجسِّـدُ الإخلاصَ في شـخصِه، لكن يجب عليه أن يركِّز تركيزًا تامًّا على مسـألة الإخـلاص هذه لدرجة أن يَتقالَّها ويسـعى سـعيًا حثيثًـا ليكون من المخلَصِيـن، والمُخلَـص هـو الذي يَصِلُ بفضل ربه إلـى درجة الخلوص والصفاء ويصفو ويصبح برّاقًا لامعًا حتى لكأنه هو الإخلاصُ عينُه، وهذه ميزةٌ خاصّةٌ بمن قال الله تعالى عنهم: ﴿وَإِنَّهُمْ عِنْدَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الأَخْيَارِ﴾ (سـورة ص: ٤٧/٣٨) وعلى رأسـهم الرسـول الأكرم سـيدنا محمد ﷺ، ولكن ينبغي للمؤمنين أن يُسدِّدوا نظرَهم إلى هذا الأفق العظيم حتى يصلوا إلى هذا الهدف السـامي على مسـتوى "الظِّلّية" -إذ إن مسـتوى "الأصليّة" منه خاصٌّ بالأنبياء عليهم السلام- وأن يتمثّلوا المرادَ الإلهيَّ دائمًا، ويُؤَدُّوا كلَّ عبادتهم كمـا أمرهـم ربُّهم، وألا يربطـوا عبوديَّتهم بأيِّ غايةٍ دنيويّةٍ، بل وينسـلخوا من كلِّ غرضٍ أخرويٍّ سـوى رضوان الله، وبعد ذلك يفوِّضوا نتيجةَ الأمر إلى الله تعالى.

وبذلك تبدأ طبيعة الإنسان الذي وصل إلى هذا المستوى من الشعور فـي إعطـاءِ ردِّ فعـلٍ تلقائـيٍّ حيالَ أيِّ شـيءٍ خـالٍ من الإخـلاص، فمثلًا نجد هذا الإنسـان لا يتشـوّف ألبتة إلى أيِّ غرضٍ دنيويٍّ كتقدير الآخرين واستحسـانهم حتـى وإنْ أحـرز نجاحًا يبهـر العيون، أو قـال كلامًا يُحرّك المشـاعرَ في القلوب، أو كتب مقالًا يمتدحه عليه فُحُولُ الأدَبِ والشِّـعرِ؛ فـإن ورد بخيالـه العفـويّ -ناهيك عن تصوُّرِه واسـتحضارِه- شـيءٌ آخر

سـوى الله تعالى؛ انزوى على الفور، واسـتغفرَ ربَّه من الشِّـرْكِ الخفيّ، بل وعاتبَ نفسَهُ، ورمى بها في أحواض التوبة والإنابة والأوبة حتى يُخْرِجَها طاهرةً مطهرةً.

وهذا المستوى من الإخلاص هو من أهم الوسائل للفوز برضوان الله تعالى في الآخرة، فبِقَدْرِ تعمُّقِ الإنسان في إخلاصه في الدنيا بِقَدْرِ وصولِهِ سريعًا إلى رضوان ربِّه في الآخرة، وربما يعصمُه الله من هولِ القبر وفزعِهِ، فـلا يـذوق عذابَه ولا يتجرَّع معاناتِهِ؛ فاعتبارًا من اللحظة التي يوضـع فيها هذا الإنســان في قبره يرتقي عموديًّا منتشـيًا في هذا الأفق بما متّعه الله من لطائفَ ربّانيّة.

ومـن ثـم على كلِّ مؤمن أن ينشـد وظيفةَ إعلاء كلمـة الله وأن يراعي الدقة البالغة عند أدائه لهذه الوظيفة من أجل الفوز بالإخلاص والمحافظة عليه.

موقف المؤمن والمنافق من المصائب

سؤال: شبه سيدنا رسول الله ﷺ في حديث شريف له المؤمنَ بالزرع والمنافقَ بشجرة الأَرْز، فما معنى هذا الحديث؟

الجواب: تعددت وجوه رواية هذا الحديث المشار إليه في السؤال؛ فاختلفت ألفاظه، ومن ذلك ما ورد في صحيح مسلم، يقول سيدنا رسول الله ﷺ: "**مَثَلُ الْمُؤْمِنِ كَمَثَلِ الزَّرْعِ لَا تَزَالُ الرِّيحُ تُمِيلُهُ، وَلَا يَزَالُ الْمُؤْمِنُ يُصِيبُهُ الْبَلَاءُ، وَمَثَلُ الْمُنَافِقِ كَمَثَلِ شَجَرَةِ الْأَرْزِ، لَا تَهْتَزُّ حَتَّى تَسْتَحْصِدَ**"(١١).

وتشبيهُ النبي ﷺ المؤمنَ بالزرع إنما يدلّ على أن الزرع هو خيرُ مثالٍ للتعبير عن حال المؤمن إزاء ما يواجهه من بلايا ومصائب، فلا يغيب عن علمكم أن الرياح إذا ما هبّت هزّت الزرع وأمالته إلى اليمين مرّةً وإلى اليسار مرّةً، وإلى الأمام تارةً، وإلى الخلف تارةً أخرى؛ وبالتالي يهيم الزرع بوجهه على الأرض، ولكن لا تكاد تهدأ الرياح والعواصف حتى يعود إلى الاستواء مرّة أخرى، وهكذا المؤمن يتعرّض دائمًا للبلايا والمصائب، ولكنّه -بفضل الله وعنايته- لا يسقط أبدًا وإن اهتزّ. أجل، إن المؤمن يتعرّض دائمًا لكثيرٍ من الابتلاءات والمصائب في هذه الدنيا حتى

(١١) **صحيح مسلم**، صفة المنافقين، ٥٨.

يرتقـي معنويًّا، وتصفو طويّتـه، ويرجـع إلى فطرته الأصلية، ويحافظ على شـدّه المعنوي في كفاحه للشـرور والآثام، إلى غير ذلك من الحِكم التي نعلمهـا أو لا سـبيل لنا إلى معرفتها، وثمة مقولـةٌ دخيلة على اللغة العربية مفادهـا "المؤمـن بَلَـوِيٌّ"؛ وهذا يعنـي أنّ المؤمن دائمًا مـا يتعرّض للبلاء وتحـلّ بـه المصائب كلّ حين، وكما: يقولـون العبرة بالمعاني لا بالألفاظ والمباني، فقد جاء في الحديث الذي رواه سـيدنا سـعد بن أبي وقاص ﵁ أنه سـأل سيدنا رسـول الله ﷺ: أَيُّ النَّاسِ أَشَـدُّ بَلَاءً؟ قَالَ ﷺ: "**الْأَنْبِيَاءُ، ثُمَّ الْأَمْثَلُ فَالْأَمْثَلُ**"(١٢).

وإذا نظرنا إلى المسألة من منطلق هذا الحديث سنجد أن آل البيت ﵃ هـم أكثر الناس تعرُّضًا للبلايا والمصائب، فلقد لاقوا شـتّى أنواع العذاب والاضطهاد على أيدي مراكز القوّة والنفوذ؛ فقُطّعت أطرافهم، بل وشُـنِق بعضهـم، وذُبـح البعض الآخر، ثم ارتحلوا إلـى الحقّ تعالى بعد أن ذاقوا طعـم الشـهادة، ولكن مـع هذا فإن ما أصـاب هؤلاء أقلّ بكثيـر ممّا نزل بالسـابقين الأولين، وما حلّ بالسابقين الأولين أقل بكثير ممّا لاقاه مفخرة الإنسانية ﷺ؛ لأن كل إنسان ينزل به البلاء حسب مستواه وقدره وقيمته.

الثلوج والزوابع والعواصف تجد مكانها في الذرى

لمـا كانت الأرواح السـامقة تتبوّأ مكانها دائمًا فـي الذرى العالية؛ فإن الثلـوج إذا مـا هطلت تجدها تهطل أوّلًا على هـذه الأرواح، وإذا ما نزلت حبّات الثلوج اصطدمت بدايةً بهؤلاء، وعلى نفس الشاكلة تتحوّل رؤوس هـؤلاء أوّلًا إلـى كتلـةٍ مـن الجليـد؛ بمعنى أن هـؤلاء هم أوّل مَـن يتلقّى الضربات الأولى لكلّ شيءٍ، فمثلًا الإمام الغزالي لم يفهمه المجتمع الذي

(١٢) سنن الترمذي، الزهد، ٥٧؛ سنن ابن ماجه، الفتن، ٢٣.

يعيش فيه خلال فترةٍ معينة من حياته، فتعرّض للتهجير؛ فأخذ نفسَه وانزوى بعيدًا عن أعين الناس، واضطرّ إلى أن يبيت وحيدًا بين المقابر، وإذا ما تأمّلنا في تضرّعات وابتهالات سيدي عبد القادر الجيلاني أدركنا جيّدًا قدر ما أصاب هذا الرجل الصالح من مصائب وابتلاءات، وكذلك لا يختلف سيدي أبو الحسن الشاذلي عن سابقَيه وغيرهم من الأولياء والصالحين.

وإذا ما نظرنا إلى العصر الحالي وتأمّلنا المعاناة التي كان يكابدها مهندس الفكر في هذا العصر الأستاذ بديع الزمان سعيد النورسي سيُخيّل إلينا وكأن البسمة لا تعرف الطريق إليه، لقد جاء هذا الرجل العظيم إسطنبول وهو في ريعان شبابه، محمّلًا بأفكار رائعة لا تطرق أذهاننا اليوم حتى ولو في المنام ونظرًا لأن "مستشاري السلطان" لم يعقلوا ما جاء به فقد ألقوا به في مستشفى المجانين بحجّة أنه يهذي في كلامه، ولمّا وقف مستشارو السلطان في مواجهة هذه الأراء والأفكار تعذّر حتى على العقلاء من ذوي البصائر في زمانه أن يفهموا كلامه.

والحقّ أن الإنسان لا يصل إلى الكمال في الإيمان ما لم يُتّهم بالجنون بسبب إيمانه(١٣)، ولأن هذه القامة الشامخة قد بلغت الكمال في الإيمان فقد وصموها بالجنون.

بعد ذلك شارك الأستاذ النورسي في الحرب ضدّ الروس، فقضى أيامًا صعبةً في ظلّ الظروف القاسية هناك، ووقع أسيرًا، فتعرض في الأسْرِ للأذى والاضطهاد، ثم عاد إلى وطنه علّه يجد السعادة والهناء، لكنه تعرّض هذه المرة لتنكيلٍ آخر؛ حيث انزوى وحيدًا إلى غارٍ في مدينة

(١٣) يقول رسول الله ﷺ "**أَكْثِرُوا ذِكْرَ اللهِ حَتَّى يَقُولُوا: مَجْنُونٌ**" (**مسند الإمام أحمد**، ١٩٥/١٨؛ أبو يعلى: **المسند**، ٥٢١/٢).

"وَانْ"، فما لبِثَ أن قُبِضَ عليه فجأةً وهو يعيشُ عزلته هناك ولم يتخلّص -طوال خمس وثلاثين سنة عاشها بعد هذه الحادثة- ممّا يكنّه البعض له من مشاعر العداء في الدين، وما يضمره البعض الآخر من غلّ وحقدٍ وحسدٍ؛ فتوالت عليه الأحكام واحدًا تلوَ الآخر حتى إنه تعرّض للنفي والسجن والعزل والسمّ والمحاكمات وحُكم عليه بالإعدام، وغير ذلك.

كل هذا العناء يلاقيه هؤلاء ونحن نسمّي ما يصيبنا عناء!

حُمادى القول: إن أشدّ الناس بلاءً هم الأنبياء ثم الذين يلونهم، فالأقرب والأقرب كلٌّ حسب درجته ومرتبته، ومن أهمّ الحِكم في هذا الأمر أن هؤلاء الروّاد الذين تحمّلوا عبءَ الدعوة إن لم يتعرّضوا لمثل هذه البلايا والمصائب الكبيرة أخذ أتباعُهم ومَن ساروا خلفهم يشتكون ويتذمّرون مِن أدنى بليّةٍ تحلّ بهم، فَقَرصةُ البعوضة أو النحلة تؤرّقهم، وإذا ما رأوا عقربًا أو حيةً همّوا بالصراخ والصياح دون أن يقتربا منهم، ولكن إن رأى هؤلاء الأتباع الروادَ السابقين وهم يتحمّلون هذا القدر من المعاناة دعاهم ذلك إلى السلوى وقالوا في أنفسهم: كلّ هذا العناء يلاقيه هؤلاء ونحن نسمّي ما يصيبنا عناء! ولذا فإن أحوال مَن هم في موقع القدوة تنبئ بأمورٍ كثيرةٍ لمن يأتون من بعدهم، فمن ينظر إليهم ويشاهد الأحداث التي نغّصت عليهم حياتهم تختلف رؤيته ومشاعره وقراءته لتلك الأحداث التي مرّوا بها، وفي النهاية تحلو له الآلام التي يعايشها.

أما المنافق "**وَمَثَلُ الْمُنَافِقِ كَمَثَلِ شَجَرَةِ الْأَرْزِ**" فقد شبّه الرسول الكريم ﷺ هنا المنافق بشجرة الأرز، ولا يعنينا هنا أن تكون الشجرة المشار إليها في الحديث هي شجرة السرو أو الصنوبر أو الأرز أو الدلب، أمّا ما يعنينا فهو الوصف الذي اكتسبه المنافق "لا تهتز حتى تُستحصد"؛ يعني أن هذه

الشجرة التي تبدو ثابتة في الظاهر إذا ما تعرّضت لريحٍ شديدةٍ انخلعت من جذرِها وسقطت، ولم تستطع الاستواء مرة أخرى. أجل، إن ذلك المنافق الذي يمشي متبخترًا ويظنّ نفسه أنه غير معرّض للسقوط إذا ما اعترضته ريحٌ شديدةٌ سقط على الفور وعجز عن الاعتدال مرّة أخرى، أما الزرع فسرعان ما يستوي مرّةً أخرى وينهض مهما كانت شدة الريح التي عصفت به.

وهنا ملمحٌ لطيفٌ يرِدُ بالخاطرِ ويتعلّق بهذا الحديث الشريف: قد يهتزّ المؤمن ويتمايلُ منفردًا فيدورُ رأسه ويعشى بصره إزاء ما يُلاقيه من مغرَيات، فيتعرّض لهزّةٍ مؤقّتةٍ إن سلم نفسه للذنوب والآثام.

ومن ثمّ يجب علينا أن نأخذ بيديه ونسدي له النصح ونرشده إلى الطريق القويم، ونخلّصه ممّا تردّى فيه، وهذا أمرٌ يسيرٌ عمله بالنسبة للفرد الواحد، ولكن إن عمَّتِ البلوى وانغمس المجتمع كلّه في الذنوب؛ تفحّم من داخله وسقط سقوطًا مدوّيًا يشبه سقوط شجرة الدلب الضخمة، ولذا علينا أن نمدّ أيدينا إليه، ونساعده على القيام مرة أخرى، ونبثّ الحيوية فيه مجددًا، وهذا بالطبع أمرٌ شاق كثيرًا مقارنةً بما نفعله مع الفرد.

ولكن يجب أن تكون هذه الغاية السامية هي هدف تلك الأرواح التي نذرت نفسها لإقامة دين الإسلام المبين، بمعنى أنّ على هؤلاء أن يحتضنوا جميعَ شرائح المجتمع وأن يكونوا هم القلب النابض في كلّ مكان، وأن يَدُلّوا المجتمع الذي يعيشون فيه على طرق الانبعاث من جديد؛ لأن الوظيفة الأساسية والمسؤولية الحقيقية التي تقع على عاتق هؤلاء هي رفع شجرة الدلب الساقطة مرّةً أخرى، وبعث الحيوية والطمأنينة فيها من جديد.

رُوح التفاني طوال العمر

سؤال: ما الضوابط الأساسية التي يجب مراعاتها لاستدامة الحفاظ على حيوية روح التفاني في القلوب؟

الجواب: بدايةً لا بدّ للقلوب التي نذرت نفسها لخدمة الحق أن تتجنّب شتّى الأفعال والتصرّفات التي من شأنها الإضرار بمعايير الثقة، وأنا لا أظن أو أتوقّع من هؤلاء الأشخاص -الذين جاشت قلوبهم بالمشاعر الصادقة فوقفوا أنفسهم على دعوةٍ ساميةٍ وغايةٍ نبيلة دون التشوّف لأجرٍ دنيوي- أن يتعمدوا القيام بتصرّفات تؤدي إلى تشويه صورة خلطائهم أو الإضرار بدائرتهم، لكن قد يخطو البعض خطواتٍ غير محسوبة ويشرعون في أعمالٍ دون حسابٍ أو تخطيط، فيؤدّي ذلك إلى وقوع بعض الأخطاء التي تتسبّب في تشويه صورتهم، ومثل هذا الحال يقتضي أن يبذُلَ هؤلاء الأشخاص الذين اجتمعوا حول فكرةٍ وشعورٍ واحدٍ كلَّ وسعهم لتلافي هذه الأخطاء على الفور مستعينين في ذلك بالمشورة والحركة الجماعية، فإن قاموا بهذا؛ تخلّص المخطئ من الخجل، وما أفسح المجال لوجود بعض الأفكار السلبية حول الدائرة التي ينتمون إليها.

اللهم لا تُخزِ أصدقائي بسببي

كان مولانا "خالد البغدادي" يتحرّى الدقة البالغة في مسألة الاستغناء عن الخلق، وهو أمرٌ يشكّل نموذجًا جيّدًا لنا في هذا الصدد، فنراه مثلًا ينبّه طلّابه ومريديه منذ البداية إلى بعض الأمور السلبية التي انتشرت في عهده ويُحذّرهم منها حتى لا تتغلّب عليهم أو تتسلّل إليهم، وكان يقول لهم: "احذروا من مخالطة الأثرياء والحكّام ورجال الدولة؛ لأن هؤلاء يجعلون من عطاياهم لكم وتوجّههم إليكم بل وابتساماتهم في وجوهكم وسيلةً لرشوتكم، فإن خضعتم لهؤلاء اضطررتم طوال عمركم إلى التكفير عمّا جَنَتْه أيديكم، ولذا عليكم أن تقنعوا بما في أيديكم ولا تستجدوا شيئًا من أحدٍ، فإن كنتم متزوّجين من واحدةٍ فلا تتطلّعوا إلى الثانية، ولا تنسوا أن هؤلاء الحكام وأرباب الدولة يودّون أن يسيطروا عليكم بما سيضربونه من أغلال على أيديكم"، ومن ثم فإنني أرى أنه ينبغي لمن جعل الأولويّة في حياته للخدمة أن ينأى بنفسه عن أيّ عملٍ قد يؤدّي إلى سوء الظنّ فيه، وألّا يحوم ألبتّة حول مواضع التهم والشبهات، فمثلًا عليه أن يأخذ حِذره ولا يمر من أمام الماخور حتى لا يجعل أحدًا يقول عنه: ماذا كان يفعل هذا هنالك؟ ولذا لا بدّ من توخّي الدقة والحذر حتى لا يُنسب العيب الذي يقوم به الفرد إلى الجماعة.

لكن علينا ألا ننسى أبدًا أننا مهما راعينا الدقة؛ فلا بدّ من التعرّض لسهام النقد والاتّهام، فهناك بعضُ الناس رغمَ أنكم تبعثون فيهم روح الوحدة والتضامن معهم وتترنّمون بالحب الدائم لهم ولا تقفون موقف العداء من أيّ واحدٍ منهم؛ فإنهم يحملون لكم كلّ حقدٍ وغلٍّ، فلا يصافحونكم ولا يحتضنونكم بل ويردّون باشمئزازٍ على تبسماتكم، وعند

ذلك لا يكون أمامكم إلا أن تعرضوا حالكم على ربّكم وتتوسّلوا مبتهلين ومتضرعين إليه، ولا تنسوا أن هذه الأمور كانت موجودةً منذ آدم عليه السلام وستظلّ إلى أن يرثَ الله الأرض ومن عليها.

المهم هنا هو أن يتجنب أرباب الحق في حياتهم على المستوى الفردي والأسري والاجتماعيّ كلَّ فعل أو تصرّفٍ قد يجلب العار والخزي للحركة التي ينتسبون إليها، علينا بعد استنفاد أسباب الإرادة التي منحها الله لنا أن نلجأ إليه سبحانه مستعينين بحفظه وعنايته قائلين: "اللهمّ لا تُخْزِ أصدقاءنا بنا ولا تخزنا بأصدقائنا"، فالإنسان مؤهّلٌ دائمًا للوقوع تحت أسارة نفسه؛ لأن العديد من الذنوب ونقاط الضعف تنتج عن الأهواء والرغبات التي قد تسوق الإنسان إلى الوقوع في المهلكات، فضلًا عن ذلك فإن الشيطان يُزيّن للإنسان دائمًا هذه المهلِكات ويُزخرِف له الذنوب والآثام، فمن لم يحذر ويتنبه لكلٍّ من هذه المهلِكات انساقَ وراءها دون وعي، وصار وصمة عار -والعياذ بالله- على جبين مَن حوله.

من أجل ذلك على الإنسان -الذي ينتسب إلى حركةٍ تتعلق بها الآمال- أن يتجنّب كلّ ما يمسّ شرفه وكرامته، وأن يحرص على الصمود ضدّ غوايات النفس والشيطان، وألا يتنازل عن صدقه وأمانته أبدًا، وأن يتحرّز من الاعتداء على حقوق الآخرين الذين يشاركونه الدرب نفسه؛ فإذا ما رفع يديه إلى السماء دعا الله في طمأنينةٍ وسكونٍ قائلًا: "اللهم اخسف بي الأرض ولو كانت لي ألف روح ولا تجعلني سببًا في جلب العار والخزي إلى أصدقائي"، وهذا تعبير عن مدى الصدق والوفاء للدعوة، فيجبُ على كلّ روح أوقفت نفسَها للخِدمة أن تبذلَ قصارى جهدِها -وكأنها ممثل للأمن والصدق والعصمة- لعدمِ تشويه صورة أصدقائها وعدمِ إفساح

المجال للوقوع في أيّ خطإٍ مهما كان صغيرًا. أجل، عليهم التحلّي بروح الاستغناء على الدوام وعدم الاستجداء من أحد، والقناعة بما وهب الله، والابتعاد عن أيّ عملٍ يمسّ الشرف والكرامة.

وعلينا ألا ننسى أن الإنسان الذي يسعى إلى أن يكون صوتَ الحق والحقيقة قد يكون بتصرّفاته وأفعاله الصادقة أكثر إقناعًا من كلامه؛ لأن المغالاة التي لا تعبّر عن الحقيقة أو تتجاوز المقصد قد تستهوي المخاطبَ لبعض الوقت، ولكنْ فضلًا عن أنها تترك أثرًا إيجابيًّا في النفوس فهي عقبات تحول دون عملية الإقناع، فالتصرفات التي تأخذ صفة الاستمراريّة لا يتسرّب إليها الكذب، لأنها تجري دائمًا في مجراها الصحيح، والإنسان الذي يملك الإقناع هو ذلك الإنسان الذي يوحي بالصدق والوفاء دائمًا، ولا يتخلّى عن عفّته وشرفه مطلقًا، ويبعث الأمان والثقة فيمن حوله، ولذا يمكننا أن نقول باطمئنانٍ إن التمثيل مُقدّمٌ على التبليغ.

لا بدّ أن يسبقَ الحالُ القالَ

فمن صفات النبوّة التي كان يتحلّى بها سيدنا رسول الله ﷺ: التبليغ؛ بمعنى تبليغ أمته الرسالة التي تلقّاها عن ربه ﷻ، لكن إن لم يمثّل ويُطبّق هذا القرآنَ المعجز البيان الذي أنزله الله تعالى شخصٌ مثل سيدنا رسول الله ﷺ ما كان هناك بيانٌ يعلن عن نفسه بما يُحدثه من دويٍّ في آذاننا حتى عصرنا الحاضر، وما وجد له صدًى في النفوس بهذا المستوى، فالقرآن الكريم الذي نُعلّقه في بيوتنا وغُرَفِ نومِنا ونحفظُه في محافظَ حريريّة لم ولن يتّضح تأثيرُه إلا على أيدي الذين يمثّلونه حقّ التمثيل، ومن ثم فإن عمق التمثيل بالحال لسيدنا رسول الله ﷺ يتقدّم على عمق التبليغ بالقال،

ولقد دُعي ﷺ للعروج إلى السـموات العلى ليس لأنه بلّـغ القرآن فقط بل لأنه مثّله في الوقت نفسه حقّ التمثيل.

التواضع وعدم إثارة عرق الغبطة

يقول سيدنا رسول الله ﷺ في حديثٍ له: "**سَيِّدُ الْقَوْمِ خَادِمُهُم**"(١٤).

وكان من أعظم ممثّلي هذه الروح بطلُ الإسلام صلاح الدين الأيوبي، كان أولَ حاكم يستخدم لقب "خادم الحرمين"، ولما سمـع السلطان "ياووز سليم" -أسكنه الله فسيح جناته- الذي كان يمثل الروح نفسها الإمامَ يقول في خطبته "حاكم الحرمين"، انزعـج كثيرًا، واسـتوى قائمًا على ركبتيه من فورِه قائلًا: كلّا، بل خادم الحرمين، ثم أخذ الذين جاؤوا من بعده يلقّبون أنفسَهم بهذا اللقب، من أجل ذلك يجب على الأرواح التي نذرت نفسها للخدمـة أيًّـا كان موقعهـا في الحيـاة الاجتماعيّة أن تعتبـر خدمة الآخرين هـي أعلى منزلةٍ لهـا، وأن يقولوا في أنفسِـهم إذا اقتضت الحاجة: "ينبغي للإنسـان أن يعتبر نفسـه خادمًا وسـاقيًا بين هؤلاء الذين يعشـقون الخدمة ويلتفّون حول منطِقٍ وفكرةٍ وغايةٍ واحدة"، وأن يهرعوا لخدمة الآخرين.

مـن جانـبٍ آخر قـد تُثيرُ نجاحات البعـض في مجـالاتٍ معيّنةٍ غبطةَ الآخرين، بل قد يتحوّل هذا الشـعور بالغبطة إلى حسـدٍ وغيرةٍ لدى ذوي النفوس الضعيفة، وهنا يجب مراعاة المبادئ الإلهية التي وضعها الإسلام لتربيـة النفـوس، ولقد وضـع بديـع الزمان سـعيد النورسـي رحمه الله في ضوء هذه المبادئ دسـتورًا ذكر فيه ضرورة عدم إثارة طلاب القرآن الحقيقيين لمشـاعر الغبطـة لـدى إخوانهـم(١٥)، مـع أن الغبطـة شـعور لا حـرج فيه

(١٤) البيهقي: **شعب الإيمان**، ١٠/٥٨٢؛ الديلمي: **الفردوس بمأثور الخطاب**، ٢/٣٢٤.

(١٥) بديع الزمان سعيد النورسي: **اللمعات**، اللمعة الحادية والعشرون، دستوركم الثاني، ص ٢٢١.

في الإسلام، ولكن إذا أخذنا بعين الاعتبار أن الغبطة تقع على حدٍّ متاخمٍ للحسد فسيتبيّن لنا أن الإنسان الذي ينتابه الشعور بالغِبطة قد يعبر إلى الطرف المقابل -أي الحسد- دون وعيٍ منه، ولذا جعل بديع الزمان عدم إثارة عرق الغبطة من مسؤوليات طلبة القرآن، أما السبيل للخروج من هذا المأزق فهو تقدير كلّ من يسعى للخدمة وإيثار الآخرين على نفسه في حينه، فهناك البعض من الناس قد تتغلّب عليهم بعض نقاط ضعفهم مثل حبّ الاستحسان لما يفعلون، والتهليل لهم، والإعجاب بهم، وحبّ المنصب والمقام، وعلى ذلك لا بدّ أن يُخصّص لكلّ إنسانٍ المجال الذي يناسبه، وتُوسّع الدائرة التي سيتحرّك فيها، وبتنوّع المجالات يمكن للأفراد القيام بخدمات أوسع وأرحب، وبذلك يقنعون بالعمل الذي يقومون به، وبجانب هذا لا بدّ من العمل على تزويد هؤلاء بالإيمان والأخلاق الحسنة، وتقوية علاقتهم بربّهم، ومعرفة أن كل ما بحوزتهم إنما هو من الله وحده.

خطر الثبات على القمة

ومن الأمور التي لا بدّ من مراعاتها أيضًا الثبات على الاستقامة، فقد يوجّهنا الحق ﷻ إلى طريق مستقيم، ولكن لا يكفي سلوك الطريق المستقيم فحسب، بل لا بدّ من مواصلة السير في هذا الطريق حتى النهاية في حيطةٍ وحذر، هناك قول جميل يرويه بعضهم على أنه حديث من أحاديث رسول الله ﷺ: **"النَّاسُ كُلُّهُمْ مَوْتَى إِلَّا الْعَالِمُونَ، وَالْعَالِمُونَ كُلُّهُمْ هَلْكَى إِلَّا العَامِلُونَ، وَالعَامِلُونَ كُلُّهُمْ غَرْقَى إِلَّا المُخْلِصُونَ، والمُخْلِصُونَ عَلَى خَطَرٍ عَظِيمٍ"**[١٦].

---

(١٦) العجلوني: **كشف الخفاء**، ٢/٣١٢.

وإذا كان لنا أن نطلق اسمًا على هذا الخطر العظيم نقول: خطر الثبات على القمة، من أجل ذلك يجب أن ترتعد فرائصنا أيًّا كانت القمّة التي بلّغنا الله إيّاها خوفًا من أن ننقلب رأسًا على عقِب، لقد هدى الله تعالى أتباع الديانات السماوية السابقة إلى الطريق المستقيم، ولكن وقعت بعض الانحرافات في خطّ الدائرة وتعذّر تلافيها لأن هؤلاء لم يراعوا المبادئ الواضحة في مركز الدائرة، فوُصم بعضُهم بالضالين، وحُكم على الآخرين بأنهم من المغضوب عليهم، ومن ثَمَّ: فإذا كان من الصعب سلوك الطريق المستقيم؛ فالأصعب من ذلك هو مواصلة السير في هذا الطريق.

أجل، من الصعب الوصول إلى القمة لكن الأصعب هو المحافظة على التواجد فيها، وفي هذا السياق يشير الأستاذ النورسي ﷺ إلى "أنّ مَن يهوي من برج الإخلاص ربما يتردّى في وادٍ سحيق إذ لا موضع في المنتصف"[١٧].

الاستخدام حسب القابليات

ثمّةَ أمرٌ مهمّ لا بدّ من أن تلتفت إليه الأرواح المتفانية حتى يمكنها أن تقدّم خدماتها على مستوى أرحب وأوسع ألا وهو تدبّر الأشياء والأحداث وتجنّب محاربة الفطرة، لقد خلق الحق ﷻ الناسَ بطبائع مختلفة ووهبهم أيضًا قابليّات ومهارات متباينة، وربما لا يترك البعض تأثيرًا مباشرًا فيمن حولهم لأنّ علاقتهم ضعيفة في الحياة الاجتماعية، فمثلًا هناك أناس يمكنهم أن يعبّروا بأقلامهم عن الحقّ والحقيقة ويؤثّرون في العديد من الناس ويثيرون شعور الانبعاث في القلوب بكتاباتهم، ولكن إن عُرِضَ عليهم التحدّث في مكانٍ ما قد يخسرون كل المكانة

(١٧) بديع الزمان سعيد النورسي: **اللمعات**، اللمعة الحادية والعشرون، دستوركم الرابع، ص ٢٢٤.

التي حظوا بها بكتاباتهم في أول محاضرة لهم؛ لأن الله تعالى لم يمنحهم مهارة التحدّث بقدر ما منحهم مهارة الكتابة، ولكن هؤلاء أنفسهم يحالفهم الكثير من النجاح والتوفيق عندما يشرحون القيم التي يؤمنون بها من خلال كتبهم ومقالاتهم وما شابه ذلك، من أجل ذلك يجب على الإداريّين والمسؤولين أن يكونوا على وعيٍ تامٍّ بهذه المسألة ويكلّفوا الناس بالعمل الذي يتناسب مع قدراتهم وأهليّاتهم.

ولا يعزب عن علمكم أن سيدنا رسول الله ﷺ قد أرسل سيدنا خالد ابن الوليد ﷺ إلى اليمن للإرشاد والتبليغ نزولًا على رغبته، ومرّ على ذلك -كما روى أبو موسى الأشعري- يومان وثلاثة وأسبوعان وثلاثة وما من رائحٍ أو غادٍ، في الواقع لم يكن سيدنا خالد ﷺ بالشخص الذي لا يستطيع الخطابة، إذ إن الحقّ تبارك وتعالى جعله مرجوحًا في عالم الإرشاد، راجحًا في عالم القيادة؛ بمعنى أن الله تعالى جعله مفضَّلا في جانب آخر، فلو أن خالدًا ﷺ كان خطيبًا مفوّها على مستوى بعض الصحابة الذين قلّ أن نجد لهم مثيلًا في التاريخ فمن كان إذًا سيدكّ أركان بيزنطة، ويدمّر الساسانيين، ومن ثم رجع سيدنا خالد ﷺ من اليمن إلى المدينة، وبعث رسول الله ﷺ إلى اليمن بدلًا منه سيدنا عليًّا كرم الله وجهه، ذلكم الصحابي الجليل الذي أثار الانفعالَ في الأرواح بكلامه، وأوصل صوته إلى ما وراء العصور، ووهبه الله ميّزةً وخصوصيّةً معيّنةً فكان خطيبًا وواعظًا وناصحًا، وما إن وصل ﷺ إلى اليمن واستقر به أيامًا قليلةً حتى توافد الناس على الدخول في الإسلام؛ لأن هذا الجبل الأشمّ كان يعلم متى وأين وماذا؟ يجب أن يتحدث حتى يستطيع النفاذ إلى القلوب.

وهكـذا فـإن الوظيفـة الملقاة على عاتـق الإداريّين هـي التعرّف على مختلـف قابليـات مـن حولهم كلٌّ علـى حِدة، واسـتغلال كلّ فـي مكانه الصحيح حتى يمكن الاستفادة منهم بشكلٍ مثمرٍ، فكما أن تكليفَ النملة بما يحمله الفيل يسحقها ويقهرُها فكذلك إذا كلفنا الفيل بما تحمله النملة -وهـو الـذي يقدر على خلـع غابةٍ والذهاب بهـا- نكون قد قلّلنا من قدر الفيل وأضعنا كرامته.

ومـع أن مراعاة ماهية طبائـع الأشخاص وقابلياتهم يُعدّ أمرًا مهمًّا عند توزيــع الأعمـال؛ إلّا أنّه لا بدّ ألا يغيب عن أذهاننا أن التأثير الحقيقي إنما هـو مـن الله ﷻ، فمثلًا لقـد تعرّفتُ على أناس لا يملكـون مهارة الحديث ويتعسّرون في تكوين ثلاث جُمَلٍ متتابِعةٍ للتعبير عن مقاصدهم ومع ذلك تراهم إذا تحدثوا تبدتْ مشاعر اللين والرقة لدى المخاطبين، وليس بوسعنا أن نُرجِــع هـذا التأثيـر إلـى هيئة هذا المتحـدث أو إلى شـمائله أو قدراته أو سـعة فكـره، أو مهارته في الحديث، يعنـي أن القلوب بيد الرحمن ﷻ، وهو الذي يهدي من يشـاء إلى الصراط المسـتقيم، ومن ثمّ ينبغي لأرباب القلـوب ألا يسـتخفّوا بـأي عملٍ يقومـون به في سـبيل الله، وعليهم القيام بالمسؤوليات التي تُناط بهم من خلال استغلال كلّ الوسائل التي من شأنها النفـاذ إلـى القلوب مثل دعوة الآخرين على الشـاي، واسـتضافتهم لتناول الطعام، وزيارتهم أحيانًا...

التوازن بين الواقع والمثالية لدى القلوب المتفانية

مـن جانـب آخر لا بدّ من عدم الخلط بيـن الواقـع والمثاليات. أجل، لا بـدّ من إعلاء الهمم، والسـعي وراء الأهداف السـامية، كما يجب على السـائرين في سـبيل الغاية السـامية أن ينشـدوا غايات مثلى حتى يمكنهم

تغيير وجه العالم في لحظةٍ واحدة؛ لأنه إن كانت الهممُ عاليةً والإمكانيات قاصرةً عن إنجاز هذه الأعمال جبَرَ اللهُ تعالى هذا القصور بفضله وبسبب النوايا الطيبة، وجازى الشخصَ بما يتناسب مع الهدف الذي كان ينسجه في خياله؛ بمعنى أن الإنسان ينال ثواب نواياه الجميلة التي لم تتحقّق.

على الإنسان أن ينشد المعالي، وأن يوسّع من دائرة غاياته العليا، ولكن مع كل هذا ينبغي مراعاة عناصر الزمان والمكان والإمكان والإنسان لتحقيق ما يصبو إليه من أفكار، لا بدّ من مراعاة الظروف القائمة ومدى إمكانية تحقق الأفكار الجميلة من عدمها حتى لا تتعرض أعماله للخطإ والخسارة.

أحيانًا يسلك البعض طريقًا لتغيير لون العالم ويعيش نوعًا من الطوبيا[١٨] كـ"المدينة الفاضلة" للفارابي و"مدينة الشمس" لكامبانيلا[١٩]، ويتخيل في هذا العالم المتخيّل أن الناس إذا ما تقابلوا مع بعضهم تعانقوا، وإذا ما ذهبت الأسود والذئاب إلى الأغنام طلبوا السماح منها، كما أن السوق أصبح يزدان بالروعة والبهاء لدرجة أن الناس الذين يتسوقون فيه غدوا كالملائكة، فالجميع في هذا العالم لا يحيد ولا يزيغ عن الاستقامة قدر أنملة، حتى إن الأطفال قد صاروا كالملائكة عندما وصلوا إلى مرتبة النضج أو البلوغ وناهزوا خمسة عشر عامًا، دون حاجة إلى تربية أو تعليم.

أجل، من الممكن التفكير في كلّ هذا وتصوّره، ولكن تحقيق هذا أمرٌ مختلفٌ تمامًا، إنكم مضطرّون هنا إلى مراعاة طبيعة الإنسان وعلاقات

(١٨) **الطوبيا**: كل فكرة أو نظرية تسعى إلى المثل الأعلى ولا تتصل بالواقع ولا يمكن تحقيقها. (**الناشر**)

(١٩) **توماسو كامبانيلا**: راهب وفيلسوف وشاعر إيطالي (ت: ١٣٣٩م) في باريس، وكتابه مدينة الشمس يتناول فيه تصوُّرًا للمدينة الفاضلة مبنيًّا على المنطق وحب الله، وكان يعادي فكر أرسطو ويحاول إصلاح الفلسفة ويسعى لجعلها تعتمد على التجريب والملاحظة. (**الناشر**)

الناس ببعضهم، فما صادفنا حياة بهذا المستوى حتى في محيط الأنبياء، ولم تكن الأسواق على هذه الدرجة من الاستقامة، ولم تتأسّس مثل هذه الأخوّة بين الذئاب والشياه، ولم تُعرِض الأسود عن أكل اللحوم وتتّجه إلى أكل العشب قط.

وفي رأيي أن الواقع ما دام يشير إلى هذا فلا بدّ أن نضع في اعتبارنا مسألة تحقُّق المثاليّات التي نطمح في الوصول إليها فإن كنا ننتظر ممّن يعملون معنا أن يغيّروا وجه العالم وأن يقوموا بخدمات تضفي وجهًا جديدًا عليه فلا مفرّ من أننا سنُمنى بخيبة الأمل وستتحطم أماني الآخرين الذين علّقوا آمالهم علينا، وذلك لأننا بنينا الأحكام على الخيال وتعلّقنا بأمورٍ يصعُب تحقيقُها، ولذا لا بدّ من مراعاة قابلية كلّ فرد على حِدَةٍ حتى لا ننتهي إلى مثل هذه العاقبة، ونقسّم الأعمال تبعًا لذلك، ونأخذ في الحسبان عناصر الزمان والمكان والإمكان والإنسان عندما نودّ تحقيق ما نريد من أفكار جميلة.

الموقف الإيماني من شبكات النفاق الحاقدة

سؤال: ما الموقف الذي يجب أن تتّخذه القلوبُ المؤمنة إزاء الأحداث المنكَرَة والسلبيّة التي تقعُ حولها؟

الجواب: بادِئَ ذي بدءٍ علينا أن نعرف أن هذه ليست المرّة الأولى أو الأخيرة التي تقع فيها أحداثٌ سلبيّةٌ منكَرة، فكثيرًا ما يُجلّي القرآنُ الكريم أمامنا هذه الحقيقةَ في شكل لوحاتٍ حيّةٍ؛ فنراه تارةً يقصُّ علينا بمختلف الأساليب والأشكال قصصَ الأنبياء السابقين، وتارةً أخرى يُحدِّثنا عن وقائع مختلفة تكفي الواحدةُ منها لإثارة العجب والدهشة في النفوس، فكانت هذه الوقائع تبعث السلوى في قلب النبي ﷺ، وتلفت الأنظار إلى التكرُّرِ التاريخيّ الدائم، وإننا إذا ما تفحّصنا كلّ هذه الوقائع التاريخية لتبدّتْ أمامنا لوحةٌ لطيفةٌ مفادها أنه ما من قوم انحلّوا وانفرطَ عِقْدُهُم إلا بعث الله فيهم أنبياء لهدايتهم وإصلاحهم، وقد اضطلع المجدّدون بعد خاتم الأنبياء ﷺ بمهمّة بَعثِ الروح التجديديّة وإصلاحِ الخراب الذي عمّ المجتمع.

لم تخطر ببالِ الظالمِ النهايةُ، ولكن...

لم تتفشّ المنكرات في مجتمعٍ في أيِّ حقبةٍ تاريخيّةٍ كما تفشّتْ في مجتمع الجاهلية، وفي هذا يقول شاعر الإسلام "محمد عاكف":

لقد تجاوز البشرُ الضباعَ وحشيّةً وافتراسًا

فالضعيف الحليم يأكُلُه إخوانُه غيلةً واختلاسًا

وكانت الفوضى تعمّ أرجاءَ الأرض جمعاء

والفُرقة التي تقوّض أركان الشرق

الآن هي في ذلك العهد داءٌ ووباء

وبعد أن رسم الشاعر هذه الصورة المفجعةَ عن ذلك العهد يقول:

ثم زال ظُلْمُ العتاةِ الجبابرة وحلّ محلّه الطُّهْرُ

وانتشى العجز الذي كان يظنّ

أن كلّ حقه الانسحاق والقَهْرُ

أما الظلم فقد تبدّد وانقشعَ

وهو الذي لم يكن يدور بخَلَدِه

أن يزول أو يَقَع

وهنا يشير الشاعر إلى "سنة الله" التي تجري في الحياة الاجتماعية. أجل، قد لا تخطر الحياةُ والانبعاث ببال العجز اليوم أو غدًا، وقد لا يخطر الزوال والانتهاء ببال الظلم، ولكنّ هذا ما وقع بفضلٍ من الله وعنايته مرّات ومرات على مدار التاريخ، وما حدَثَ دليلٌ على ما سيحدث، وإن من أعظم الفوائد التي يمكن استخلاصها جرّاءَ استقراءِ التاريخِ وبَقْرِ بطونِ كُتُبِهِ وإقامةِ جسورِ التواصلِ معه هو استيعاب هذه الحقيقة؛ فإن تتابُعَ وتيرةِ الهدم والإصلاح بصفةٍ دائمةٍ حتى اليوم، واستمراريّة تكوُّرِ

الليلِ والنهار دون انقطاع يُعدّ أعظمَ دليلٍ وأسطعَ برهانٍ على أن الإصلاحَ يعقب التخريبَ حقًّا، والنهارَ يولَدُ من رحِمِ الليل صِدقًا.

تعرضْتُ للتضييق والإيذاء طوال حياتي، ولكنني ما يَئِسْتُ قطّ!

ولزيادة الإيضاح نقول: كثيرًا ما ينحرف البشر عن الطريق، فتتفرّق كلمتهم، ويتناثرون يمينًا ويسارًا مثل حبّات السّبحة التي انحلّ وانفرطَ عِقْدُها، وتتبَعُ التغيُّراتِ السلبيةَ تغيُّراتٌ أخرى، ويُصاب المجتمع بمسخٍ وتشوُّه شكليٍّ كبير، ولكن يجب ألا ننسى أن الله تعالى قادرٌ على أن يوقِدَ جديدَ نورٍ ومعرفةٍ في القلوب يكونان سببًا في صحوة الناس وجمعِ شتاتهم.

إنني شخصيًّا لا أدّعي أنني قوي الإيمان، ومع هذا فإنني رغم ما تعرَّضْتُ له من تضييق واضطهاد منذ أن كنتُ في العشرين من عمري لم أيأس قط؛ كل هذا لم يؤثر فيَّ ولم يَفُتَّ في عضدي، ولم يخطر ببالي -ولو لحظة واحدة- أن أتراجعَ عن الطريق الذي أسيرُ فيه أو أحيدَ عنه، ولم أعبأْ ألبتّة بالإهانة أو التهديد، وكنتُ كلّما أجدُ حفنةً من الناس أجلس معهم في المسجد، ونتدارس فيما بيننا، وقد استمرت هذه الاضطهادات، ومع ذلك لم أقع في اليأس أبدًا؛ إذ كانت تراودني هذه الفكرة طوال حياتي:

ولسوف تشرق الأيام التي وعدك بها الله ربّ العالمين

ومن يدري، فربما غدًا، وربما قبلُ، فكن من الواثقين

لأن الله تعالى يقول: ﴿**وَلَا تَيْئَسُوا مِنْ رَوْحِ اللّٰهِ إِنَّهُ لَا يَيْئَسُ مِنْ رَوْحِ اللّٰهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ**﴾ (سورة يُوسُفَ: ١٢/٨٧).

وأحسب أنني بهذه الكلمات أُعَبِّرُ عن عواطف الأرواح المتفانية؛ لأن كلًّا منهم إذا ما واجهته أي مشكلة يقول كما قال الشاعر "نسيمي":

أنا عاشقٌ لك ملوَّعٌ أيها الحبيب المحبوب

حتـــى وإن شققـــت قلبـــي بالخنـــجر

فلـــن أتـــزحزح عـــن حبّـــك أو أؤوب

ولو وضع النجارُ منشاره على رأسي مهدِّدًا

بـــل وإن شقّـــوني نصفيـــن كزكريـــا مجدّدًا

وإن أحـــــرقوا جـــــسمي وذرُّوا رمـــادي

يـــا إلـــهي يا ستّـــارُ لن أتنازلَ عنك يا مرادي

لأن المهمّ بالنسبة لهم هو رضا الله، ووسيلة الرضا سيرُ موكب الخدمة، ولا أهمّيّـة ولا قيمـةَ لتعرُّضِنا لِبَعْضِ الحوادث التـي تُحرق الكبدَ نظيرَ أن يُواصِلَ الموكبُ سيرَه، فليست الخدمات المبذولة منوطةً بأحدٍ منا.

الجُرأة والثبات يُفسدان ألاعيب ذوي النوايا السيئة

مهمـا تعرَّضْنـا لأحـداثٍ تُحَطِّـمُ الآمـالَ وتثبّـطُ الهِمَمَ وتُكـدِّرُ صفوَ الصـدورِ فيجـب علينـا ألا نفزعَ أو نقعَ في مسـتنقع اليـأس الذي يحول دون كلّ كمـال، بـل لا بدّ دائمًا من الصمـود دون تحدٍّ أو عناد؛ فإن جرأةَ القلـوب المؤمنة وثباتهـا يقمـع أصوات ذات النوايا السـيّـئة؛ لأن ترحيبنا بالموت الذي يهدِّدُوننا به وقولَنا إزاءه: "على الرحبِ والسعة، كنتُ أتمنى دائمًا أن أرتشِفَ كأسَ الشهادة، وألتقي بربّي"؛ يثير الدهشة والعَجَبَ فيهم ويُسـقِطُ في أيديهم. أجـل، إن ثبات المؤمنين وصمودَهـم لهو تعبيرٌ مهمٌّ عـن ثقتهم بربّهم واعتمادهـم عليه تعالى، ودافـعٌ عظيم يُفْسِـدُ مخطّطات الطرف المقابل، ويسوقه إلى الذعر والفزع.

الصبر والنصر

الصبر هو المفتاحُ السِّـرّيُّ السحريُّ الفريد للوصول إلى النجاة، وكما أنه من أهمّ السُّـبلِ في بلوغ سـعادةِ الجِنان، والوصول إلى مشاهدةِ جمال الرحمـن، والفوز بالخلود والرضوان؛ فـإنَّ له فائدة دنيويّة دون ذلك أيضًا وهـي الخلاص من الأَزَماتِ وإحراز النجاحات، ويندرج في قائمة الصبر أمـورٌ مثـل المواظبةِ علـى العبادة والطاعـة، ومقاومةِ المعاصـي، وتحمُّلِ المصائـب، ومعارضةِ الظلم والعدوان، وعدمِ اسـتعجالِ الأمور المرهونة بالزمـان، والثبـاتِ في مواجهة مفاتن الدنيا، وإيثـار معاناة الخدمة على ما يدعو إليه الاشتياق لجمال الله تعالى.

وهـذه الأمـور يمكننا أن نسـمّيها أنـواع الصبر، فإنْ لم نُهمِـل أيًّا منها تسـنّى لنا أن نفتح آلاف الأبواب بهذا المفتاح السرِّيّ، غير أنّ الإنسان إنْ ضربَ بالصبرِ عرضَ الحائط واستعجلَ الأمورَ فتعثُّرُهُ مُقَدَّرٌ ومحتومٌ؛ لأن:

الـعَجُولَ يعـثُرُ بعبـاءَتِه

والمتأنّي يُدرِكُ غايَتَهُ بِرَوِيَّتِهِ

أجل، إن من يستعجل السيرَ والخطى يعلَق طرفُ عباءَتِهِ بقدميه فيتعثّرُ، بينمـا من يتحـرّك بِحَيطةٍ وحذرٍ يَصِـلُ إلى مراده ومقصـودِه، ولهذا ينبغي للمؤمن أن يسـير وفقًا لخطّةٍ مسـبقةِ الدراسـة، كما يجب ألا يَحْدُثَ خلطٌ بين السير المبنيّ على صبرٍ وسابقِ حِسابٍ وتخطيطٍ وبين الكسل والعزوفِ عن العمل، بل إنّ الإنسـان يلزمه أن يكون نشِـطًا دائمًا، ويسير نحو هدفه، وعليه وهو يسير إليه أن يكون في تدبُّرٍ وتذكُّرٍ وتأمُّلٍ وحَذَرٍ، وأن يُفَكِّرَ في أوَّلِ الأمـرِ وآخرِه، وأن يضـعَ أصحاب الحَسَـد والغيرة في حسـبانه، وألا يغضّ الطرفَ مطلقًا عما يُساور ذوي النوايا السيئة من مشاعرِ حقدٍ وكره.

إثارة الغبار لا تحجب نور الشمس

وهنا أيضًا ينبغي لكم ألا تبالوا بالمؤامرات والأكاذيب والتلفيقات التي يقف وراءها بعضُ الظالمين المعتدين، وكما يقولون في المَثَلِ: "لا يضرُّ السحابَ نباحُ الكلابِ"، بمعنى أنكم طالما تسيرون في الاتجاه الصحيح وعلى الطريق القويم فلا قيمةَ ولا أهمّيّة لما ستفتريه بشأنكم مجموعةٌ من الألسنِ القَذِرَةِ التي انطبعت على الفتنة والفساد، وهنا أجد فائدةً في التذكير بهذه القطعةِ الشعريّة:

فما تبالي السما يومًا إذا نبحت كُلُّ الكلابِ وحقِّ الواحدِ الباري

لو كلّ كلبٍ عوى ألقمتَه حجرًا لأصبح الصخرُ مثقالًا بدينارِ

ومن هنا فلنَدَعِ النابحَ ينبح، ولا ينبغي لنا أن نأبَه أساسًا بأمر الذين يرموننا بالأدناس، وبالمناسبة فإن لم تكن هذه النوعية من العبارات والأقوال من سجيتنا وأسلوبنا الخاص بنا فينبغي ألا ننسى أن القرآن الكريم نفسه ضرب مثلًا بالحمار والكلب ليبيّن بعض الحقائق[٢٠]، وحين نضع نصبَ أعيننا الأسلوب النزيه العفيف للقرآن الكريم يتبيّن أنه يجب التعبير عن تلك المسألة والقضيّة بذلك الشكل احترامًا للحقيقة.

أجل، إن كنتم قد برمجتم أنفسكم كي تتلاحموا وتتمازجوا مع روح أمَّتِكم وعقلِها وقلبِها، وتتخلّصوا من وصاية الدول الأخرى عليكم، وتتبوَّؤوا تلك المكانة الرائعة في التوازنات الدولية فعليكم ألا تهتمُّوا بالمواقفِ والكلماتِ القبيحةِ الشاردةِ الواردةِ من هنا وهناك، وما دمتم واثقين من صحّةِ وسلامة الطريق الذي تسيرون فيه، ومن أنكم لا تركضون وراء هدف آخر غير نيلِ رضا الحقِّ تعالى؛ فينبغي لكم ألا تُلقوا بالًا لما

(٢٠) انظر مثلًا: سورة الأعراف: ٧/١٧٦؛ سورة الجمعة: ٦٢/٥.

يُمـارَس ضدَّكـم من أمور عدائيّة، وألا تقفوا عندهـا كثيرًا، بل وألا تهتمّوا بها أصلًا.

فليخشَ السائرون في الضلال سوءَ عاقبتهم

إن كان هناك من يجب عليهم أن يقلقوا ويفزعوا ويتحيّروا في أمرهم، متسـائلين ماذا عسـاهم أن يفعلوا؛ فإنهم هم السـائرون في الطريق الخطإ، حيث إنهم يعجزون عن الخَلاص من التخبُّط والتلوّي في مسـيرهم رغمَ أن التخريـب أسـهلُ مـن التعميـر؛ ومن يَـكُ كذلـك لا يتقدّمُ قيـدَ أنملة، وبالرغم من أن أمثال هؤلاء يستخدمون كلَّ أنواع الطرق السلبيّة والهدّامة كالترهيبِ والتسلُّطِ وهدمِ القِيَمِ والتعدِّي على القِيَمِ الخاصّةِ فإنَّه يستحيل القول إنهم ساروا قُدمًا حتى اليوم ولو بقدرٍ يسير.

أجـل، إنّ هذه الآلامَ المسـتعصيةَ، والخراباتِ الداثـرةَ ينبغي ألا تُولِّد اليأسَ في روح الإنسان، وألا تُصيبه بالذُعر، غير أنّ هذا لا يعني أنْ نغضّ الطرف عن الدمار والتخريب الحادث، بل على العكس علينا مشاهدةُ هذا التخريب والدمار المروِّع، لأن رؤيته تُذكِّر الإنسـان بمسؤوليّاته وواجباته، وبهذه الطريقة فإنّ ذا الفِكرةِ المثاليّة والإحسـاسِ المرهَفِ السـليم سيفكر ويتدبّر فيما يطلبه الله تعالى من عباده الصادقين تجاه هذا المشـهد، ويُركّز علـى مـا يجـب القيام به من أمـور قائلًا: "تُرى لـو أن نبيًّا واجـهَ مثل هذا المشهد ماذا عساه أن يفعل، وكيف كان سيتصدّى له؟".

بيد أن المشهدَ محجوبٌ، والأحداثَ الجاريةَ لا تُدرَكُ بكلّ تفاصيلها، وليـس معروفًـا بالضبـط مـا الذي يجـب فعله، ونتيجـةً لهذا فـإن البعضَ -حفظنـا الله- ربما يخلد إلى الراحة رغمَ كل المصائب والمِحَنِ الجارية؛ ويرى أنه يكفيه الانشـغالُ بأمر نفسـه وشـؤونه الخاصّة فحسـب دون أن

يهتمّ بالتقلُّباتِ التي يعيشها المجتمع، ولا التخريبات التي تعصفُ به، ولا البيوت والمؤسسات التي دُمِّرت فأصبحت حصيدًا كأن لم تَغْنَ بالأمس، وهذا أيضًا يُمثّل نوعًا من الأنانية والتبلُّد الحِسِّيّ واللامبالاة؛ ولهذا فإنّه يجب ألا نعتبر التوكُّلَ على الله والتحلّيَ بالأمل وتجاهلَ التصرُّفات والأقوالِ القبيحةِ البغيضةِ مناقضًا للتأوّه قلقًا ومصداقًا لمقولة "أينما تسقط النار فستحرقني أنا أوّلًا"؛ ومن ثمّ تجبُ رؤيةُ المشهد بخطوطه العريضة وتحليلُه من جانبٍ، بينما من الجانب الآخر نسعى سعيًا حثيثًا يحدونا إيمانٌ راسخ وعزيمةٌ قويّةٌ وأملٌ كبيرٌ في ترميم الدمار الموجود ترميمًا يتوافق مع القواعد والأسس المتينة التي توارثناها عن ماضينا.

مهمّة الإرشاد وأسوار العفّة

سؤال: ماذا يعني مفهوم العفة التي يجب أن يتحلّى بها ممثّلو نهج النبوة؟

الجواب: أنفق جميع الأنبياء حياتَهم في سبيل تقديم الرسالات السماويّة إلى البشرية، ولم يتشوّفوا إلى أي أجرٍ من أحدٍ، وعاشوا حياتهم في تواضعٍ ومحو، وتجنبوا الإسراف، ولزموا القناعة، وعاشوا في بساطةٍ وزهد، ومع أنّ بعضهم قد آتاه الله السلطنةَ والملكَ -مثل نبيّ الله سُليمان وأبيه داود عليهما السلام- إلا أنّهم لم يَدَعوا حياة التواضع، بلْ وجّهوا كلّ قوّتهم وإمكانيّاتهم في سبيل رفعِ رايةِ الدين الحقِّ، لم يسحرهم المُلكُ الذي آتاه الله لهم، ولم يَغْشَ أبصارَهم. أجل، لم ينلْ أحدٌ من عفّتهم وعصمتهم، ممّا دفع الناس إلى الثقة بهم، وظلّوا طوال حياتهم أوفياء لخصال النبوة، ومِن ثمّ فلا بدّ للذين يسيرون في طريق النبوّة أن يُؤدُّوا هذا الطريق حقّه، وهذا لا يتأتّى إلا بالتحلّي بهذه الأوصاف الملازمة للأنبياء؛ أما مَن لم يتمكّن من التحلّي بها -دعْ عنك عدم أدائه لوظيفة الإرشاد والتبليغ- فمن المحتمل أن يسلك طريق الشيطان وإن كان مسلمًا.

لا يقتصر تشوّه السمعة على المخطِئ فحسب

وعلى ذلك فإن الذين يسعون في وظيفة الإرشاد والتبليغ قد يجلبون الخـزيَ والعارَ إلـى الهيئة التي ينتمون إليها باقترافهـم الذنوب وارتكابهم الأخطاء الصغيرة التي تمسّ الصدقَ والعفّةَ، لا سـيما إن كانت هذه الهيئة تتبـوّأ مكانًـا عاليًـا؛ لأن مثلَ هـذه الهيئة مثلُ الجسـدِ الواحـد إذا أصابت النجاسـةُ عضـوًا منه اشـمأزّت وتأثَّرَت منها سـائرُ الأعضـاء، ولذلك فلا يصـحّ لِمَنْ تطايرت النجاسـة إلى طرف ثوبه أن يقـول: "لا ضير لأنها لم تمتدّ إلى وجهي ويدي وعيني"، وعلى نفس الشـاكلة فليس من الصحيح أن ينتمي الشخص لهيئةٍ ما، ثم لا يتحكّم في عينه وأذنه ويده ولسانه، ولا يكتفـي بالأذواق والملـذات ضمن الدائرة المشـروعة، ويظلّ يحوم حول الدائرة غير المشروعة ثم يقول: "ما أنا إلا مجرَّدُ كَعْبٍ، أو قدمٍ أو كوعٍ في هذا الجسـد... ولقد ظننت أن النجاسـة التي لطختني لن تلحق بالآخرين الذين يعملون في نفس دربي!".

ومن هنا فإن الوظيفة الملقاة على عاتق الذين يسعون في سبيل خدمة الحـقّ هـي أن يحذروا مـن تطايُرِ أو تناثُرِ النجاسـة عليهـم ويراعوا الدقة البالغـة في هـذا، وأن يحافظـوا على نقائهـم وطهرهم على الـدوام، وألا يخرجوا عن دائرة العِفَّة في أي شأن من شؤونهم من مأكلٍ ومشرَبٍ وقيامٍ وقعـود، ومـع اسـتخدام أعضائهم كلها من يدٍ ورِجْلٍ ولسـانٍ وعينٍ، كما يجـبُ على المرشـد الحقيقـيّ مبلِّغِ الحـقِّ والحقيقة أن يظـلّ وفيًّا لغايته المثلـى، ثابتًا صامدًا، لديه الجرأة والشـجاعة لأن يرفـع يديه قائلًا: "اللهمّ إن كنـتُ مـددتُ نظـري أو ألقيت سـمعي إلى شـيءٍ لا ترضـاه فخذْ منِّي روحي"، وعليه كذلك ألا يسـمح لنفسـه بتلطيخ وجه الإسـلام أو تدنيسه

أبـدًا؛ لأن الأنبياء وهـم الممثّلون الحقيقيّون لطريق الإرشـاد والتبليـغ لم يسـمحوا لـذرّة واحدة من الطيـن أن تُلامس أذيالَهـم وإن كانت من قبيل عموم البلوى، ولم يسمحوا لأحدٍ بأن ينال من شرفهم ألبتة.

"اللّهم لا تُخْزِ أصدقائي بي، ولا تُخزني بأصدقائي!"

إن أيّ إنسـانٍ لا يُراعي هذا القدرَ من الحساسـية اللازمة فقد اعتدى علـى حـقّ الآخريـن، وألحَـقَ بهم الضـررَ، ومن ثـمّ فإن لم يسـامح هذا الشـخصَ كلُّ مـن ينتمي إلى تلـك الهيئة فدخولُه الجنةَ أمرٌ مشـكوكٌ فيه، وهـذا يدعونـا إلى أن ندعو الله ونتضـرّع إليه دائمًا قائليـن: "اللّهم لا تُخْزِ أصدقائي بي، ولا تُخزني بأصدقائي".

ومـع الأسـف فـإن بعضًا ممـن يوصفـون بأنهـم مسـلمون اليوم قد اجترحوا من السـيّئاتِ ما يشـدهُنا ويجعلُنا نتلوّى أَلَمـًا ونحنُ نقول: لَيْتَهم لـم يتبعـوا هوى أنفسـهم ولم يرتكبوا هذه السـيئات! ليتهم ماتـوا وأُحْيوا مـرّات ومـرّات وما تخلّوا عـن عفّتهم وصدقهم، ولـم يسـلكوا طريقَ هذه اللوثيات!

عفّة الحديث

مـن جانـبٍ آخـر فلا بدّ لمـن يتبـوّأُ مقامًا معيّنًـا -وإن كان هـذا أمرًا لا يسـري علينـا نحـن البسـطاء- أن يفكّـر مليًّا قبـل أن ينبِس ببِنتِ شـفةٍ مـن أجل الذيـن يتبعونه؛ لأن منزلتهم تقتضي منهم أن يفكروا مليًّا في كلّ كلمـة قبـل أن تخرجَ من أفواههم، ثم يقدّمونها لمخاطبيهم متناسـقة على شكل مصاريع من الشِّعْرِ؛ لأنَّ الكلامَ الذي يُقالُ دونَ مراعاة لما يستوعبه المخاطبـون أو حسـابٍ لنوعيـة ردّ الفعـل الـذي قد تنجم عنه؛ من شـأنه أن يَشُـقّ جروحًا غائرةً وكأنّه الحربةُ في صدور المخاطبين، ومداواة هذه

الجـروح صعبـةٌ وعسـيرةٌ في كثير مـن الأحيان، بل إن الـكلام الذي يُقال دون تفكُّرٍ ورويّةٍ قد يؤدِّي إلى الخلاف والافتراق؛ فربَّ كلمة تُشعِلُ فتيلَ الحرب بين المتخاصمين، وربّ جملة تتسبّبُ في هلاك أمّة، وربّ حربٍ أدلَعَتْ نيرانَها بنتُ شفة.

قِيَمُنا التي هي العناصر الأساسية لِجَنَّتِنا المفقودة

العفة والعصمة والصدق والوفاء هي قيمُنا التي فقدناها -مع الأسف-، وتلـك القيمُ هي العناصرُ الأساسـية التي تقوم عليهـا جَنَّتُنا المفقودةُ، فلو أنكـم تريـدون إقامة جنّةٍ مـن جديد فعليكـم أن تهيِّئوا هذه المسـتلزمات الأساسـية لهذه الجنة، ولقد وضـع لنا الأنبياءُ العظام صلوات الله وسـلامه عليهم رسمًا هندسيًّا لهذا البناء الحضاريّ، ثم جاء مِنْ بعدِهم المجتهدون والمجـدّدون والأوليـاءُ والأصفيـاءُ، وأنشـؤوا صورًا مختلفة لهذا الرسـم المعماري استجابةً لدواعي التجديد التي يقتضيها العصر، وكأنهم يقدِّمون للمخاطبين رسـالةً مفادها: "وفِّقوا بين سـلوككم وأعمالكم وبين الرسـوم والمناهج التي وضعناها لكم؛ لأن المفهوم الحقيقيّ للعبودية لا يتأتى إلا باتِّباع هذا المنهج".

وما أجمل ما قاله الشاعر "محمد عاكف" في هذا الصدد:

أينَ الإسلام؟ بل أين الإنسانية؟ لقد افتقدناهما بالتمام

فـإذا كانـت الغـاية خـداع العالم فلا مخدوع والسلام

وكم من مسلم حقيقي عرفتُ! إلا أنهم في القبر يرقدون تحتَ الركام

لستُ أدري أين أجِدُ الإسلام! كأنّه في السماوات العُلى فوقَ الغمام!"

لا أريـد أنْ أُقنّـط أحـدًا بقولي هذا، فينبغي للإنسـان أن يُوصد أبواب اليـأس ولا ييـأس أبدًا، لكـن يجب عليه إلى جانب هـذا ألا يتوانى لحظةً

واحدةً في مراقبة نفسه ومحاسبتها؛ لأن منْ يُحاسبُ نفسه في الدنيا يَسلَمُ في الآخرة، فها هو الإنسان العظيم الذي قال عنه الرسول الأكرم ﷺ "**لَوْ كَانَ نَبِيٌّ بَعْدِي لَكَانَ عُمَرَ بْنَ الخَطَّابِ**"(٢١)، يقضي حياته كلَّها محاسبًا نفسَه ويسائلها وهو الذي قال: "حَاسِبُوا أَنْفُسَكُمْ قَبْلَ أَنْ تُحَاسَبُوا"(٢٢).

ولذا ينبغي للإنسان أن يُنظِّمَ حياته وفقًا لمنطقٍ رياضيّ جادّ؛ لأنه بينما يمكن تكثِيرُ الحسنات بحيث تصبحُ الآحادُ عشرات، والعشراتُ مئات، والمئاتُ آلافًا إلى ما لا نهاية؛ فقد يتسبب خطأٌ بسيطٌ في أن يضيع كلُّ شيءٍ هباءً منثورًا، وبتعبير آخر؛ فالإنسان إذا عاش حياته بالمحاسبة والمراقبة حقًّا استطاع أنْ يُكثِّر القليلَ، وإلا فإنّ أخطاءً طفيفةً قد تذهبُ بحياته تمامًا، ولهذا فإن فضيلة الأستاذ بديع الزمان بينما ينثر الضياء على أرواحنا بحِكَمِه يحذِّرنا قائلًا: "فاحذر! وخفِّف الوطء، وخَفْ من الغَرق، ولا تُهلِك نفسك بأكلةٍ أو كلمةٍ أو لمعةٍ أو إشارةٍ أو بَقْلَةٍ أو قُبلةٍ، فتَذهب عنك لطائفُك العظيمة التي شأنُها أن تستوعب العالمين"(٢٣).

وقد قال مفخرة الإنسانية ﷺ: "**إِنَّ النَّظْرَةَ سَهْمٌ مِنْ سِهَامِ إِبْلِيسَ مَسْمُومٌ، مَنْ تَرَكَهَا مَخَافَتِي أَبْدَلْتُهُ إِيمَانًا يَجِدُ حَلَاوَتَهُ فِي قَلْبِهِ**"(٢٤)، لأن العين تنظر إلى الشيء أحيانًا، فتخطو القدم صوبه مباشرةً، ثم تمتدّ إليه اليد، وفي النهاية تُرتكَبُ أكثر الأفعال البوهيمية خِزيًا وعارًا، فإن كان مُرْتَكِبُ ذلك الفعل منتميًا إلى زمرةٍ معيّنة فقد يُعزى إلى أفرادِ تلك الزمرة قاطبةً كلُّ ما ارتكبه من جُرمٍ ومنكرٍ، وإن وضعْنا في حسباننا أنَّ هناك من

(٢١) **سنن الترمذي**، المناقب، ١٧.

(٢٢) **سنن الترمذي**، القيامة، ٢٥.

(٢٣) بديع الزمان سعيد النورسي: **اللمعات**، اللمعة السابعة عشرة، المذكرة الرابعة عشرة، ص ١٨٧.

(٢٤) الطبراني: **المعجم الكبير**، ١٠/١٧٣.

يَتحَيّنُ فرصة وقوع غيره في مثل هذه العثرات في يومنا الحاضر كي يتسنّى له اتّهام طائفةٍ عظيمة بهذا الفعل... إن وضعنا ذلك في حسباننا تأكّدت لنا ضرورةُ الحذر الشديد والحيطة في هذا الصدد.

صيانة الأمانة

إذًا بالله عليكم! هلمَّ بنا نبنِ أسوارًا خلفَ أسوار، وحصونًا إثر حصونٍ حتى لا تُرتكب مثل هذه النوعية من السفاهات والوقاحات التي تُخجِلُ هيئةً بأكملها، وينبغي لنا ألّا نكتفِي بهذا فحسب، بل نوصد أبوابًا خلف أبوابٍ، ونقول لأعوان الشيطان إذا جاؤوا: "لا تُتْعِبُوا أَنْفُسَكم هباءً، فالأبوابُ موصدةٌ دونكم"، وبهذه الطريقة نَفِي -آمنين مطمئنّين بإذن الله- بوظيفة الإرشاد والتبليغ حيث نكون.

حريّ بنا ألا نتبع هوى أنفسنا فنحطّم دنيانا التي منَّ الله بها علينا بما فيها من أَوجُهِ الجمال والخير، والحقيقة أن الحق تعالى وهب القلوب المؤمنة التي قد لا تعرف بعضها البعض كثيرًا من الإمكانات والتجلّيات التي لم تتيسّر ولو حتى للقوى العظمى، بل ولا للدول الكبيرة، ولو أننا تفرّغنا تمامًا لحَمْدِ الله على ما وهَبَنا من نِعَمٍ، وملأنا وقتنا كلّه بتردادِ كلمة "الحمد لله" دون أيّ انشغالٍ آخر عنها؛ فلن نوفي النعمة حقها، والشاعر "سعدي الشيرازي"[٢٥] يقول: "لا بدّ من الشكر مرتين عند كُلِّ نَفَسٍ"، أما الفضل الذي نحن بصدده فإنه شرف ومنّةٌ تفوق كلَّ نَفَسٍ.

والحاصل أن الِحمْلَ ثقيلٌ، والأمانة مقدّسةٌ جدًّا، لا تستطيعون الوفاء بها حتى وإنْ حملتموها محفوفة بفريق من الحراسة المشدّدة، لأنها أمانة

(٢٥) **سعدي الشيرازي** (٦٠٦-٦٩٠ أو ٦٩٤هـ): هو الشيخ مصلح الدين، من شعراء الصوفية الكبار، ولد في مدينة "شيراز"، وكان من مريدي الشيخ عبد القادر الجيلاني، قضى ثلاثين سنة من عمره في الأسفار، ونظم الشعر، من أشهر كتبه كتاب "كُلستان".

الله، أمانـة رسـول الله، أمانة المجددين والسـلف الصالـح، إذًا بالله عليكم هلمَّ بنا نقتَفِ آثارهم، فلا نخذلَ بني جلدتنا في هذا الشأن! ولنَعِشْ بعفّتنا، ولندفـنْ أهواءَنـا، بل لا نكتـفِ بدفنها، لنضـعْ صخورًا عليهـا، ولنحافظْ بهـذا على إيماننا، فلا نخسـر آخرتنا، حريٌّ بنـا ألا نكون مثل من يملؤون جيوبهـم وأكياسـهم وحقائبهم حين تلوح لهـم الفرصة، وألا ننخدع نحن أيضًـا كمـا انخدع الظّانُّون أنَّ الدينا هي كلُّ شـيء، وألَّا نسـير على خُطى السائرين في إثر قارون، وألا نَتَفرعَنَ كالمُتَفَرعِنِين، بل على العكس ينبغي لنا أن نتأسّى بسيّد الأنام نبينا محمد ﷺ، وخلفائه الراشدين أبي بكر وعمر وعثمان وعلي ﷺ، ونعضّ على سنّتهم بالنواجذ.

وَحِّدْ القبلةَ ولا تشتِّتْ الهمّةَ

سؤال: ذكر الأستاذ بديع الزمان سعيد النورسي رحمه الله في موضعٍ من رسائله أن الإمام الربانيّ أحمد السَّرْهَنْدِيّ قُدِّس سرّه قد أوصاه في واحدةٍ من التوافقات الخالصة بتوحيد القبلة[٢٦]، وبناءً عليه اعتصَم بديع الزمان بالقرآن الكريم وجعلَه المرشدَ الأوحد له، فما الذي تكشف عنه هذه الحادثة في وقتنا الحالي؟

الجواب: في البداية أريد أن ألفت انتباهكم إلى أمرين قد يُفهمان خطأً:

(٢٦) يقول الأستاذ بديع الزمان: "وجدتُ كتاب "المكتوبات" للإمام الفاروقي السرهندي، مجدد الألف الثاني فتفاءلت بالخير تفاؤلًا خالصًا، وفتحته فوجدت فيه عجبًا... حيث وردت فيه رسالتان كتبهما الشيخُ إلى "مِيرْزا بديع الزمان" فأحسست كأنه يخاطبني باسمي، إذ كان اسم أبي ميرزا وكلتا الرسالتين كانتا موجهتين إلى ميرزا بديع الزمان فقلت: يا سبحان الله، إن هذا ليخاطبني أنا بالذات، لأنني كنت ألقب قديمًا "بديع الزمان"، ومع أنني ما كنت أعلم أحدًا قد اشتهر بهذا اللقب غير الهمداني الذي عاش في القرن الرابع الهجري، فلا بد أن يكون هناك أحد غيره قد عاصر الإمام الرباني السرهندي وخوطب بهذا اللقب، ولا بد أن حالته شبيهة بحالتي حتى وجدت دوائي بتلك الرسالتين... والإمام الرباني يوصي مؤكدًا في هاتين الرسالتين وفي رسائل أخرى أن: وحِّد القبلة أي: اتبع إمامًا ومرشدًا واحدًا ولا تنشغل بغيره! لم توافق هذه الوصية -آنذاك- استعدادي وأحوالي الروحية... وأخذت أفكر مليًّا: أي المشايخ أتبع! أأسير وراء هذا، أم أسير وراء ذاك؟ احترت كثيرًا وكانت حيرتي شديدة جدًّا، وحينما كنت أتقلب في هذه الحيرة الشديدة... إذا بخاطرٍ رحمانيٍّ من الله سبحانه وتعالى يخطر على قلبي ويهتف بي: "إن بداية هذه الطرق جميعها... ومنبع هذه الجداول كلها... وشمس هذه الكواكب السيارة... إنما هو القرآن الكريم فتوحيد القبلة الحقيقي إذًا لا يكون إلا في القرآن الكريم... فالقرآن هو أسمى مرشد... وأقدس أستاذ على الإطلاق... ومنذ ذلك اليوم أقبلت على القرآن واعتصمت به واستمددت منه..." (بديع الزمان سعيد النورسي: **المكتوبات**، المكتوب الثامن والعشرون، الرسالة الثالثة، ص ٤٣٠-٤٣١).

الأول: يجب أن نعلم أن الأستاذ النورسي ﷺ لم يكن يستصوب اتخاذ مثل هذه التوافقات (التفاؤلات) والرؤى أحكامًا عامّةً؛ لأن الأحكام المستقاة منهما أحكامٌ خاصة وليست موضوعيةً، فضلًا عن ذلك لا بدّ من تأويل هذه التوافقات والرؤى تأويلًا صحيحًا، وتأويل الرؤى يُعنى به التوصّل إلى نتيجةٍ ما من خلال تأويل بعضِ الرموز المعينة، ومن ثمّ يختلف ما يرد في الرؤيا عن الحقيقة التي تعبر عنها، وهذه الأسس التي سقناها حيال التوافقات والرؤى أمورٌ مسلّمٌ بها، ولا بدّ أن الأستاذ النورسي عندما اهتدى إلى هذا التوافق؛ استقرّت نتيجتُه في ذهنه، وصدّق عليه قلبُه، ورآه متوافقًا مع تجاربه، ولذا أعطاه هذا القدر من الأهمّية ونقله لنا.

أما الآخر فهو: إن عبارةَ "وحِّد القبلة نحو القرآن" التي صاحبت هذا التوافق لا يُقصد منها أن الأستاذ النورسي قد انفصل عن القرآن الكريم وهجره، وأخذ يلهث وراء أمور أخرى حاشاه، فحياته ظاهرة للعيان، ومن المعلوم لدى الجميع أنه قد ظل طوال حياته يسعى وراء الحقائق القرآنية دون سواها، وعلى ذلك فإن عبارة "وحِّد القبلة" ما هي إلا هدفٌ دُلّ عليه الأستاذ في أفقِ توافقٍ خاص، والواقع أنه كان خلال المراحل الأولى من حياته يبتغي تناسبَ إقامةِ الحق والحقيقة والتعبير عنهما مع روح ومقتضيات عصره، وفي هذا السبيل طوّف بالتكايا والزوايا، وتعرّف بالكثير من الناس، لكنه لم يقابل أحدًا -وفقًا لرؤيته- يعي مشاكل العصر التي ينبغي الوقوف عليها ويهتمّ بها ويطرح حلولًا تتناسب مع روح العصر، وإزاء هذا الوضع رأى ضرورةَ تناول المشاكل التي اعترضت حياةَ المسلمين بأسلوب ومنهجٍ مختلفٍ، وفي النهاية توصّل إلى أن القرآن الكريم هو المرشدُ الأوحدُ الذي يجب الرجوع إليه والاستعانة به.

وإذا ما نظرنا إلى العهد الذي عاشه الأستاذ النورسي لوجدنا أن كلَّ شيء في ذلك العصر قد أصابه الخراب والدمار، وانقلبت جميعُ القيم رأسًا على عقب، ولقد صور لنا الشاعر محمد عاكف هذه الأيام بقوله:

خراب ديارٍ وانهيارُ بيوتٍ واستيحاشُ صحراء

وانمحاق البركة من الأيام، وافتقار الليالي إلى الغاية العلياء

فلما شاهد الأستاذ النورسي كلّ هذا أدرك عِظم الداء، فبحث يمنةً ويسرةً عن علاجٍ ناجعٍ له، ورغم أنه حاول أن يوضّح مدى شدّة وفداحة ما وقع من دمارٍ وخراب، وضرورةَ معالجة المسألة من الأساس مجدّدًا، والاهتمامَ بمسألة الإيمان؛ فإنه مع الأسف لم يجد إلا القليل ممّن يتفهّمون همّه، وبناءً على ذلك يمّم وجهه شطرَ القرآن الكريم، ولكنه لمّا فعل ذلك لم يقصر نفسه على مناهج التفسير التقليدية، ولكن انتهج لنفسه منهجًا خاصًّا استقاه من منهلِ القرآن الكريم نفسه، وبهذا المنهج قدّم لنا وصفاتٍ علاجية من الدساتير الماسيّة للقرآن الكريم تداوي جميع أمراض عصرنا.

تحديد مشاكل العصر أوّلا

والحقُّ أنّ الكثير من العلماء ظلّوا -على مدار قرون متعدّدة- يبحثون عن حلولٍ تلبّي متطلّبات وظروفِ عصرهم، فحرّروا مؤلّفاتهم على هذا الأساس؛ ولقد ظهرت -على سبيل المثال- العديد من المشاكل المختلفة في عهد الإمام الغزالي مثل: تسلّل الفلسفة اليونانية إلى العالم الإسلامي، وانتشار أفكار المعتزلة والجبرية، وظهور فرقتي الباطنية والقرامطة، وقد طعّمت الفلسفة اليونانيّة بجانبها الباطنيّ العالمَ الإسلاميَّ آنذاك، مما نتجَ عنه تأثُّر كثيرٍ من المسلمين؛ فمثلًا نجد الفارابي وابن سينا -في باكورة

أعمالهما الفكريّة- قد تأثّرا بالفكر الفلسفي الذي وفد علينا من خلال ترجمة مؤلفات أفلاطون وأرسطو التي تعتمد في الأساس على أفكار سقراط، فما كان من الإمام الغزالي إلا أن بذل كلّ طاقته في سبيل توجيه الناس في عصره إلى نهج النبي ﷺ وصحابته الفضلاء ﷺ أجمعين، وتمّ له ذلك بفضل من الله؛ إذ أسَّسَ منهجًا وطريقًا خاصًّا بعيدًا عن الفلسفة اليونانية، وأضفى على الفلسفة الإشراقية لونًا خاصًّا.

وكذلك اشتغل الإمام الرباني بحلّ المشاكل التي انتشرت في عصره، وكما تعلمون أنه معاصرٌ لسلطان الهند "جلال الدين أكبر شاه" الذي كان مهيمنًا على مقدرات بلاد الهند، لقد ادّعى هذا الشاه كالتاريخانيّين (الحداثيّين الذين يُنكرون صلاحية نصوص القرآن لكل زمانٍ وأوان) في عصرنا أن الكتاب والسنة لا يتوافقان من حيث ماهيتهما الحقيقية مع روح العصر الذي يعيشون فيه، وابتدع خلطةَ ديانة؛ بمعنى أنه سعى إلى تشكيل ديانة جديدة تشتمل على توليفة من اليهودية والمسيحية والبوذية والهندية وشيءٍ من الإسلام، وبناءً على ذلك شكّل الإمام الرباني أسوارًا حول الإسلام يجابه بها هذا الفكرَ الضالَّ المنحرفَ، واستطاع بِرُوحِ التجديد الكامنة في أعماقه أن يُشيّدَ صرحَ الروحِ في العالم الإسلامي مرة أخرى.

والواقع أن هذه الهمّة ومثيلاتها مستقاة من همّة رسول الله ﷺ عند انزوائه في "سلطنة حراء" قبل زهاء ستة أشهر من نزول الوحي عليه، فمن غير المعقول ألا تفكّر مثلُ هذه العقلية الرائعة وهذا الإنسان المحظي بجاهزية خاصة في المشاكل التي كانت منتشرة في العصر الجاهلي قبل أن ينزوي إلى "سلطنة حراء"، فكم أضْنَتْ هذه الروح الفريدة نفسها وأنهكت عقلها قبل أن تُشَرِّف غار حراء في سبيل توجيه الناس إلى الله

والدِّين الحنيف! وفي النهاية نزل الوحي منهمرًا على الرسـول ﷺ، ووَجَّهَ الله تعالـى وَجْهَ نبيّه ﷺ إليه تعالى، وأرسـل له شـرعةً جديـدةً فيها العلاج الناجـع لكل أمراض ومشاكل العصر.

الدساتيرُ القرآنيّةُ الماسيّةُ وَصْفَةٌ طبيةٌ لعصرٍ مريضٍ

حين طالـع الأسـتاذُ بديـعُ الزمان "المكتوبـات" للإمام الربّاني ووقـع لـه هـذا التوافق أخـذ بوصيتـه الداعية إلى ضـرورة التوجُّـهِ التـامّ مجدّدًا إلـى القـرآن الكريم، والبحثِ عن علاجِ مشـكلاتِ العصرِ في ثنايا حقائق القـرآن الماسـيّة دون سـواها، وهذا يعنـي أنّ النتيجة التـي ظهرت لبديـع الزمان في هذا التوافق تتّفق مـع المشـاعر والأفكار المسـتقرّة لديه مسبَقًا، بـل إنهـا في نفـس الاتجـاه، وبنـاءً عليه قَطَـعَ علاقتـه بكل شـيء وركّزَ فـي نقطـة واحـدة، وكثّف هِمّته على هـذا الموضوع حتى إنَّه لـم تُثْنِه عنه لا المضايقـات ولا النفـي ولا السـجون ولا المعتقـلات قـطُّ، ولم تُجبره على التراجـع ولو حتى خطوةً واحدةً؛ وذلك لأنَّه كان يؤمن يقينًا بأنَّ نجاة الإنسـان المعاصر وخلاصه سيتحقّق بالدساتير القرآنية الماسيّة، وأنّ هذه النجاة ستكون مصدرَ أملٍ لنجاة آخرين كُثُر.

وإذا ما نظرتم إلى الأمر من زاوية يومنا المعاصر؛ تَعَذّرَ عليكم أن تروا الشناعاتِ والدناءاتِ التي ارتُكبت في تلك الفترة رؤيةً كاملةً، ولا تستطيعون الوقوف على الصورة بكلِّ تفاصيلها، فحتى كبار العلماء الذين عاشـوا في ذلك العصر ممن يُوصفُ كُلُّ واحد منهم بـ"العلّامة" تذبذبوا بين هذا وذاك؛ بحيـث إنكم حين تنظـرون إلى مؤلّفاتهم تجدون بعضَهم قد ماشـى نظريّةَ التطـوّر، حتـى إنَّ بعضَهم قـال: إنَّ التطوُّرَ نظريّةٌ، وإنَّـه إذا ما أثبتَتْها العلوم التجريبيّة ذات يومٍ؛ فمن الممكن التوفيقُ بينها وبين الآيات القرآنية.

أجل، في هذه الفترة ارتجّ جذرُ المجتمعِ بمقوّماته الأساسية، وتوالت فيـه الانكسـارات والمصادمات تترى، وظهرت عقلية سـامية تعرف كيف تنظر إلى الحوادث نظرةً كليّةً شموليّةً، وتبصر الأسبابَ والنتائجَ مجتمعة، ولقد أخذت هذه العقلية بعين النظر والاعتبار توصيةَ الإمام الربّاني تلك؛ نتيجـة مطلَقِ ثقتهـا به، وبتعبيرٍ آخر: وافـقَ توافقُها هـذا توافقاتِه الداخليةَ الخاصة؛ فاستفادت من هذا الاقتران وواصلت المسير في هذا الطريق.

آفاق جديدة بوجهة نظر جديدة

يمكـن فـي يومنا الحاضر أيضًا -انطلاقًا مـن المنافذ التي تركها بديـع الزمـان مفتوحـةً- تقديم صـورة جديدة للمسـائل والقضايا التـي تناولها، وإكسـاب النـاس انفعـالًا جديـدًا؛ فعليكـم أن تعرضوا بأسـلوبٍ ومنهجٍ مختلـفٍ تلـك الحقائقَ التـي تناولها هو بحيثُ تأسِـرُ أَلبابَ مَـنْ يطّلعون عليها فيقولوا: "كنا نقرأ هذه القضية لسنوات عديدة إلا أننا لم نفهمها على هـذا النحو قط"، ويشـعروا بانفعـالٍ وحسٍّ جديد فـي أرواحهم، والواقـعُ أن معظـم كلامـه عميـقُ المعنى والمحتـوى إلى درجة أنْ يُشَـكِّلَ كلٌّ منه أطروحةً علميةً مستقلّة بذاتها؛ بيد أنَّ القدرة على رؤية هذا العمق تتطلّب سـعيًا إلى اطّـلاعٍ وقراءةٍ تتجـاوز الشـكليّات لتنفذ إلى اللطائـف الكامنة في الداخل، وكما تعلمون فإنّ العالم المغربي المرحوم "فريد الأنصاري" قـد أَلَّـف كتابًـا جميـلًا بعنـوان "مفاتيح النـور" يُعنـى بالمفاهيم الرئيسـة في رسـائل النور، فلماذا لم تُجرَ في بلدنا دراسـةٌ حول آثار هذا الإنسـان المبارك تكون بقدر أفق ومستوى تلك التي أجراها الشيخ فريد الأنصاري؟ لمـاذا عجزنـا أن نُقيّـم آثـار هذه القامـة السـامقة الممتازة الفريـدة تقييمًا من زوايا مختلفة؟ الواقـع أنّ المرء يتأوّه كلَّما فكّر في هذه الأمور ويعجز عن أن يمنـع نفسه من التحسُّر والأسف.

ومــع ذلك فالأمرُ أهمّ بكثير من مجرّد التفجّع والتأسُّـف؛ ففي رأيي أنّ الواجب الذي يقـع على عاتق العقول المستنيرة في عصرنا هو مطالعة هــذه المؤلفات القيمة للأسـتاذ بديـع الزمان بوجهة نظر جديدة، لا سـيّما ذوي الأفق العلميّ الواســع، الخبراء في مجال الدراســات الدينية، فإنَّهم يستطيعون من خلال القراءة المقارنةِ تناولَ تلك المؤلفات ومطالعتها مـع مؤلفـات العلمـاء العظام من أمثال الإمام الماتريـدي والإمام الغزالي وعز الدين بن عبد السلام وابن سينا وفخر الدين الرازي؛ مما يولّد في الضمائر هيجانًا وحماسًا جديدًا تجاهها، بل لا يكتفون بهذا فحسب وإنما يحللون تلـك المؤلفـات الممتازة وفـقَ منهج قراءة ومطالعة جديـد، وانطلاقًا من المنافذ التي تركها فضيلة الأستاذ النورسيّ مفتوحةً؛ يستطيعون إعدادَ جيلٍ من العلماء قادرٍ على اسـتحداثِ منهجٍ علميٍ للمسـتقبل، وتأسـيسِ عِلمِ المناهــج الفقهيّة، إلى جانبِ إجراء دراســات سـليمة حــول بعض العلوم كالفقه والحديث والتفسير.

يَمَامُ العالم الميتافيزيقي والانبعاث المرتقب

سؤال: ما الأمور التي يرتبط بها انفتاح الإنسان على المعنويّات والعوالم الميتافيزيقية؟

الجواب: يَعتبر بعضُ الناس المادةَ كلّ شيء، فيعيشون حياتهم بمنأى عن المعنويات والميتافيزيقا... قد يكون لفطرتهم أثرٌ واضح في هذا التوجّه، غير أنهم لم يُعطوا إرادتهم حقّها، ولم يبذلوا أيّ عزمٍ أو جهدٍ حقيقيّ في هذا المضمار، لقد انحدرت عقولُ هؤلاء إلى عيونهم، وأصبحوا لا يُفكّرون إلّا فيما يرون، وانغمسوا في المادّيّات حتى آذانهم وإن كانوا يدّعون الإيمان بربهم؛ فحبسوا أنفسهم بأنفسهم في الإطار الضيق لأفكارهم وقناعاتهم؛ فمثلًا لا يؤمنون بما يُسمّى الكرامات التي نستطيع عدّ الآلاف منها، والتي نُقلت إلينا عبر العصور بالتواتر عن أناسٍ ثقاتٍ يستحيل تواطؤهم على الكذب، بل إن بعض هؤلاء الماديين يرفضون الاعتراف بالمعجزات حتى رغم اضطرارهم إلى قبولها بسبب تواتُرِ وسلامة رواياتها؛ ويحاولون أن يُفسِّروها بالأسباب المادّيّة ويُخضعونها لتأويلاتٍ من قِبَلِ أنفسهم.

لقـد قيّـد هؤلاء عالمهم الفكـري بالمادّيات، وبمـرور الزمن أضعفوا قابلياتهـم وقدراتهم علـى فهم الجانب الميتافيزيقي للأشـياء والحوادث، ومن ثمّ لم يسـتوعبوا الحِكَم التي تحتويها تلك الحوادث التي تبدو شـرًّا مسـتطيرًا في الظاهر، ونظرًا لأنهم لـم يسـتطيعوا الوقوف على علم "تأويل الأحاديث" فلم يسـتطيعوا إدراك المعاني المختلفة الكامنة في جريان هذه الحوادث.

خلفيّاتُ الحوادثِ والحِكْمَةُ منها

إذا نظرنـا إلـى كيفيّة وقوع الحوادث نجدها كالآيات البينات تعبّر عنْ معـانٍ تختلـف من شـخصٍ لآخر، ولكن على الإنسـان إذا مـا أراد إدراك ذلـك أن ينظـر إلى ما يحدث حوله ويستشـعره أوّلًا بِلطيفتِـهِ الربانية، وأن يمتلك القدرة على التحليل والتأليف؛ بمعنى آخر: عليه أن يدرس الأوامر التكوينية كالأوامر الشرعية على أنها كتابٌ مقروء، وأن ينظر إلى الحوادث نظرةً شموليةً، وأن يبذل وسعه لإدراك الصلة بينهما، وأن يسعى لاستيعاب العلاقة بين السبب والنتيجة، ضاربًا بمفهوم "الصدفة" عرض الحائط، وما أجمل ما قاله الشاعر التركي "رَجَائِيزَادَه محمود أكرم":

الكون بأسره كتابٌ عظيمٌ لله

إن أمعنتَ النظر في أي حرفٍ منه رأيتَ أن معناه: "الله"

لنفترض أن بعض الحوادث قد وقعت صدفةً، أو أن احتماليّة وقوعها واحـد بالمائـة، فإذا أضفتَ إليهـا بعض العوائق والوقائـع التي ترتبط بها فسـتقلّ نسـبة احتماليّة الوقوع إلى واحد في الألف، أو واحد في المليون، أو فـي المليـار، ولو أجال الإنسـانُ النظـرَ في حياته، وتنـاول كلّ ما جال بخاطره وعلق ببصره ولامسـته حواسه ومشـاعره بنظرةٍ شموليّة؛ فبإمكانه

استنباط الكثير من المعاني العميقة من هذه الحوادث والروابط التي تربط بينها، وسيشاهد بعين اليقين مرّة أخرى مع كل حادثة أنه لا صدفةَ في الكون ولو بقدر ذرة، ولكن إذا تناولها بشكلٍ مستقلٍّ كما يفعل بعض الفلاسفة فلن يستطيع حينذاك إدراك مضمون ومفهوم الإيمان بالله تعالى المكنون في كلِّ حرفٍ من هذا الكون.

وانطلاقًا من هذا فإذا ما رغب الإنسان في الانفتاح على عالم المعنويات فليدقّق النظر في الكون وما يجري فيه من أحداث، وليؤمن يقينًا بأنه لا يوجدُ شيءٌ في الكون دون معنى، فمثلًا إذا ما سقط كوبٌ من يده وانكسر فعليه أن يعلم وفقًا لعلم "تأويل الأحاديث" أن لهذا معنى بالتأكيد، وأن يتأمل فيه حتى يفهم المعنى والرسالة اللذين يعبّر عنهما، لكن لا تحملوا كلامي على غير محمله؛ لا أدعو بقولي هذا إلى أن نُخضع نظرتنا للحوادث إلى التفاؤل أو التشاؤم وما ينشأ عن ذلك من أملٍ أو يأسٍ، بل إلى إدراكِ أن لكلّ حادثةٍ معنًى معيّنًا تعبّر عنه بلسان حالها.

الدعاء: المفتاح السري للانفتاح على العوالم الميتافيزيقية

لا بدّ للإنسان حتى يُدركَ البعدَ الميتافيزيقي للوجود أن يسعى إلى تعميق معلوماته النظريّة بأداء العبادات والطاعات، ولا جرم أن الدعاء يأتي على رأس العبادات؛ لأنه مُخُّ العبادة، وهو اسمٌ وعنوانٌ على العبودية الخالصة لله تعالى، كما أنه عبادةٌ تتجاوز دائرة الأسباب، فهو السُّلّمُ الأهمّ في إيصال الإنسان إلى أفق ما وراء الأسباب.

ولكن ما هو أهمّ مطلب لا بد أن يسأله العبدُ عند دعائه لربه؟

إننا نواظب صباح مساء على الدعاء بـ"اللَّهُمَّ أَجِرْنَا مِنَ النَّارِ وَأَدْخِلْنَا الْجَنَّةَ مَعَ الْأَبْرَارِ"، ولا شكّ أن النجاةَ من النار والفوزَ بالجنة من أهمّ

الغايـات التـي ينشـدها المؤمن فـي الحقيقة، ولكن الأحرى أن يسـأل اللهَ تعالى ما هو أعظم من ذلك، ألَا وهو: معرفة الله معرفةً يقينيّة، وعدم الغفلة عنه تعالى أبدًا.

أجـل، هـذه هي الغاية الأسـمى التي يجـب أن يَعِيَها الإنسـان ويركّز عليها في دعائه، ينبغي له إذا ما رفـع يديه بالدعاء لربّه ﷻ أن يطلب معرفة الله ومرضاتـه أولًا، وأن يُلـحّ فـي الطلب حتى يشـعر وكأن اللطائف التي تأتيـه مـن ربّه قد أصابت يديه بالخَدَرِ والتنميـل، أو كأنّها تنهال عليه، فإذا مـا عـاش العبد هذا الشـدَّ المعنوي من رأسـه حتى أخمـص قدميه، فعليه أن يدعـو الله وكأن قلبَـه قد انخلـع ورأسَـه قد تصدّع: "اللهـم زِدْني إيمانًا ومعرفـةً بـك ومحبّةً لـك، وأطرِبني بالشـوق إليك، واملأْ قلبي بعشـقك، واجعلني مجنونَ سبيلك!".

جرِّبوا أن تسـألوا الله ذلك ألفَ مرّةٍ بقلبٍ صادقٍ سـليمٍ لا سـيّما في جوف الليل، ولا يعزب عن علمكم أن الله هو الذي يمزّق سـتائر الطبيعة ويفتـح آفاقًـا جديدةً لكم خلفهـا، سـتطّلعون بإذنه وعنايته علـى العوالم الميتافيزيقية، ويجب ألا ننسـى أن من طلبَ وجدّ وجدَ؛ أي إن من يتابـع أمـرًا ويحملـه على محمل الجـدّ يتفضل الله عليه بما يتمنّـى، فهل يلتفت أحـدٌ إلـى متسـوّلٍ يعقد يديه وراء ظهـره، ويعامل الناس باسـتغناء أعطَوه أم منعـوه؟! وكذلـك فإن قبول الدعاء منوطٌ بتوجُّه الإنسـان إلى الله توجُّهًا كامـلًا، وملازمتـه السـجود على أعتابـه، وإصرارِه فـي طَرْقِ بابِـهِ، ويقينه باستجابة دعائه.

لكننـي مضطرٌّ أن أقول -وكُلّـي حزنٌ- إنَّ الدعاءَ رغمَ أهميته الكُبرى للمسـلمين فقـد صـار أقـلَّ العبـادات اهتمامًا عندهـم في يومنـا الحاضر

للأسـف؛ إذ صـار ضحيّةَ الشـكليات والمظاهـر منذ زمنٍ بعيـدٍ، حتى إنّ الأدعيـة التـي تُرفـعُ وتُردَّد في الجوامـع راحت ضحيّة الشـكل في شِـباك العادة والغفلة.

وينبغـي ألّا يُفهـم مـن عباراتـي أنّ العبـادات التي يؤدّيها المسـلمون الذين تمتلئ بهم الجوامـع والأدعيةَ التي يرفعونها لا تُقبل، فحاشـا وكلّا! فـالله جـلَّ جلاله يجزي المؤمن ولو على أقل الأعمـال وأصغرها حجمًا، ويكافئُه عليها ولو كانت مثقال ذرة، لكنه ينبغي ألا يُنسى أنّ قيمةَ الإنسان ومكانتـه تكـون بقدر اهتمامه بما له قيمةٌ، فإن كنتم تُقَـدِّرون متاعًا دنيويًّا: قصـرًا كان أو نُزُلًا فخمًا أو ما شـابهَ ذلك فقـد اختزلتم قيمتَكم في قيمته، وإن قدّرتم الجنة واهتمَمْتم بها صرتم تَعدِلونها من حيث القيمة، ولكنّكم إن ربطتم عبوديّتكم ورغباتكم بعشـق الله والشوق إليه فإنكم ترتقون آفاقًا لا حـدودَ ولا نهايـة لهـا، لأنـه تعالى خالـدٌ بـاقٍ لا نهايةَ لـه، إنْ تعظّموه وتمجّـدوه بالتهليلِ والتسـبيحِ والثناء، وتقولوا: "اللهـم لك الحمد والثناء عددَ ذرّات الكون"، وتستشعروا ذلك في وجدانكم وأفئدتكم وتُحسُّوا به؛ وتخفُق قلوبُكم كلّما ذكرتموه؛ فإنَّ هذه الحالة تُشير إلى مكانتكم وقدركم عنـده تعالـى؛ لأنه ورد فـي الحديث النبوي الشـريف "**مَـنْ كَانَ يُحِبُّ أَنْ يَعْلَمَ مَنْزِلَتَهُ عِنْدَ اللهِ فَلْيَنْظُرْ كَيفَ مَنْزِلَةُ اللهِ عِنْدَهُ، فَإِنَّ اللهَ ﷻ يُنْزِلُ الْعَبْدَ مِنْهُ حَيْثُ أَنْزَلَهُ مِنْ نَفْسِهِ**"(٢٧)، فعليكم أن تَقْدُروا الله تعالى حقّ قدره، وتفكّروا فيه دومًا، وتراقبوه في كل شـؤونكم، وتُرَدِّدُوا اسمَه دائمًا، وتُحافِظوا على صِلَتِكم به.

(٢٧) **المنتخب من مسند عبد بن حميد**، ص ٣٣٣؛ أبو يعلى: **المسند**، ٣/٣٩٠؛ الحاكم: **المستدرك**، ٦٧١؛ البيهقي: **شعب الإيمان**، ٢/٦٥.

الانغلاق دون العوالم الميتافيزيقية

قد يمنُّ الله بمحضِ فضله على أحَدِ عِباده بأنواعٍ وأنواعٍ من النِّعَمِ بما يزيدُ على اجتهادِ هذا العبد وسعيِه، لكنَّ المقياس الموضوعي والأساس هو أن يوفّيَ الإنسانُ إرادته حقَّها؛ لأن الحقّ تعالى يقول: ﴿**وَأَنْ لَيْسَ لِلإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعى**﴾ (سورة النَّجْمِ: ٣٩/٥٣)، أي لا شيءَ يُمنَحُه الإنسانُ إلا ثواب سعيِه ووفائِه بحقّ إرادته وسيرِه في سبيل الله.

ومن هذه الناحية فإنَّ مَنْ يقول: "لا أستطيع الانفتاح على العوالم الميتافيزيقية، وأعجز عن النظر إلى الأشياء والحوادث نظرةً شموليّةً، ولا أقدر على أن أربطَ بينها، ولا أنْ أَصِلَ إلى تركيبة تجمعها" ينبغي له أن يُراجع نفسه بالدرجة الأولى؛ فينظرَ هل فعل ما يلزم فعلُه أم لم يفعل؟ تُرى هل نهض مثلُ هذا الإنسان لصلاة التهجد أربعين يومًا متتاليةً دون توانٍ منه أو تراخٍ إلى جانب اهتمامه وحرصه على أداء الفروض؛ فَخَرَّ ساجدًا باكيًا وسأل الله تعالى ما يجب أن يُسأل ويُطلبَ؟ إنّ منْ لا يفعل هذا يتبين أنه لا يهتم بالمعنويات والروحانيات كما ينبغي، فلا يُتوقع منه أن يكون أُفُقُه المعنويُّ كما يجب، وإن صحَّ القول إن بعضَ الناس منغلقون دون المعنويات والروحانيات، إلّا أنّ مَن ألزَمهم بهذه الحالة ليس هو الله تعالى، بالعكس إنهم انغلقوا دون المعنويات والروحانيات ولم يحظوا بها لعدم قيامهم بالضروريّات اللازمة من أجل الانفتاح على العوالم الميتافيزيقية، وعدم وفائهم بحقّ الإرادة في هذا.

وثمة قضيّة أخرى أريد الحديث عنها ههنا وإن لم تكن مطروحةً في السؤال أساسًا، وهي: أنّ استمرارَ مرحلة الانبعاث هذه -التي انطلقت تبُثُّ الأمل والخير في الإنسانية جمعاء في أيامنا الراهنة- وثباتَها ورسوخَها

علـى الســاحة ســوف يتأتّى ويتحقَّقُ بِيَدِ الإنســان المؤهّـل والمنفتح على المعنويـات والعالـم الميتافيزيقي إلى جانـب العلوم الطبيعية والشـرعية. أجـل، إذا نشَّـأنا وأعْدَدْنَـا "جيـلَ الإرادة" المـزوّد بالإمكانيـات التي تفي بلـوازم هاتين العالمين: الطبيعيّ والميتافيزيقيّ؛ فسـوف تصحو الإنسـاينة على ربيـعٍ جديدٍ بأيدي أبطال المعنويّات وأولياءِ الله هؤلاء الذين يقدّمونه على كلِّ شـيءٍ، وسيبتسـمُ وجه الدنيا مرة أخرى، وتشـهدُ البسيطةُ جمعاء بعثًا جديدًا يمتدُّ من أقصاها إلى أقصاها.

النشاط والحيوية في حياة الخدمة

سؤال: كيف يمكننا أن نبلغ أفقَ الفعاليةِ والحيويةِ الدائمة التي يستهدفها الإسلامُ في الحياة الفردية والاجتماعية؟

الجواب: لا مكان للركودِ والجمودِ في فلسفة الإسلام ورؤيته الحياتية، فكلُّ شيء فيها نَشِطٌ وحَيَويّ بدءًا من الإنسان حتى الأرض، ومرورًا بالأشياءِ إلى الأزمان، فكما أمر الإسلامُ الفردَ أن يتحلّى بالنشاط والحيوية الدائمة في أداء الأعمال الصالحة مثلًا، كذلك أمره بأن يستثمر ويستغلّ المال والأرض والزمان أجودَ استثمارٍ وأفضل استغلال حتى يجني من ورائها أرجى الثمار.

أما عن أهمّ المسائل التي تتطلّب حيويةَ المسلم وفعاليته فهي المسائل الإيمانية، لذا نقول دائمًا في دعائنا: "ربَّنا زِدنَا عِلمًا وإيمانًا ويقينًا"، فعلى المؤمن أن يسعى إلى تجديدِ إيمانِه وزيادةِ يقينِه دائمًا بمراجعة الكتب والتعرّف على الحياة المباركة للسلف الصالح والجلسات الإيمانية والتفكّر والأوراد والأذكار، وفي هذا السياق فإن التركيزَ على قراءة الأدعية الواردة

في كتب الأدعية المعروفة مثل "القلوب الضارعة"[٢٨] وسبرَ أغوارها إلى حدٍّ ما من شأنه أن يفتح آفاقًا متعدّدة أمام الإنسان.

إن الحيوية والنشاط والفعالية تمتلِكُ أهمّيّة بالغةً في حلّ ومواجهةِ المشاكل المستعصية التي يتعرّض لها العالَمُ الإسلامي منذ عصور، ومحافظةِ القلوب المؤمنة على وجودها دون التذلل أو الدخول تحت وصاية الآخرين، لقد فقدَ المسلِمون -مع بالغ الأسف- هذا الحماس والنشاطَ والحيوية منذ قرونٍ، ولم يستطيعوا الحفاظ على مكانتهم كعنصرٍ من عناصر التوازن الدولي، ومن ثمّ فقدوا زعامتهم، ودخلوا تحت وصاية غيرهم في المجال السياسي والثقافي والاقتصادي... إلخ.

مجتمعٌ أسيرٌ مغلول الأيدي والأعناق

ولقد نبهنا الأستاذ النورسي ﵀ إلى هذه الحقيقة بقوله: "يا أيتها القبور المتحركة برجلين اثنتين، أيّتها الجنائز الشاخصة! ويا أيّها التعساء التاركون لروح الحياتين كلتيهما -وهو الإسلام- انصرفوا من أمام باب الجيل المقبل، لا تقِفُوا أمامَه حجر عثرة، فالقبور تنتظركم... تنحّوا عن الطريق، ليأتي الجيل الجديد الذي سيرفع أعلام الحقائق الإسلامية عاليًا، ويهزّها خفّاقة تتماوجُ على وجوه الكون"[٢٩]؛ ولأن هذا الدين العالمي الخاتم ينوءُ بتمثيله الإنسانُ الخاملُ أو الفكرةُ البالية أو ضعفُ الهمة؛ فلقد طلب الأستاذُ النُّورسي من الأرواح الخاملة الفاقدة للحماسة والتي تشكّل نموذجًا سيّئًا للأجيال المقبلة أن تتنحّى، وتُفسح الطريقَ للجيل المقبل

(٢٨) **القلوب الضارعة**: هو كتاب يجمع بين دفتيه مختاراتٍ من أدعية سيد المرسلين ﷺ وإخوانه من النبيين والصحابة الكرام وكبار الأولياء والصالحين، أشرف على جمعها الأستاذ فتح الله كولن، ومعظم هذه الأدعية مقتبسةٌ من كتاب "مجموعة الأحزاب" للشيخ ضياء الدين الكومشخانوي من علماء العهد الأخير للدولة العثمانية.

(٢٩) بديع الزمان سعيد النورسي: **صيقل الإسلام**، المناظرات، ص ٣٧٩-٣٨٠.

الذي سيأتي بعدها متمتّعًا بروحِ الحيويةِ والنشاط؛ حتى يتبوّأ المكانة التي ينبغي له أن يتبوّأها، ويؤدّي ما يجب عليه أن يؤديه.

أجل، من الأهمية بمكان ألا يكون الإنسان نموذجًا سيّئًا، وإنني لا أريد هنا أن أقترفَ ذنبًا بذكر مساوئ أجدادنا رحمهم الله، ولكنّني انطلاقًا من مسؤوليّة إحقاق الحقّ وإجلاء الحقيقة أستميحكم عذرًا في أن أنوه بهذا الأمر:

إنّ ممّن تسببوا فيما نعيشُه اليوم من ركودٍ وضعفٍ في الهمّة آباءَنا وأمهاتنا وأجدادنا وجداتنا، ووراء أخطائهم مَنْ سبقوهم -بقدر ما-، وللإنصافِ فلقد أدّوا ما يقع على عاتقهم في إيمانهم بربهم وأدائهم لعباداتهم، ولكنهم عجزوا عن تجاوز القوالب الفكرية البسيطة عند تقييمهم للأحداث، فلم يستطيعوا بلوغَ آفاقٍ يُدركون بها عصرَهم عند دراسته وتحليله، ومن ثمّ تسبّبوا فيما نعيشه اليوم من قحطٍ وجفافٍ في حياتنا الفكرية والعملية على حدٍّ سواء.

وبناءً على ذلك إننا نُعَدّ جيلًا ضائعًا فاشلًا، لأننا لم نُنَشّأ بما يتناسبُ وأُفُقَ إدراكِ عصرِنا، وعلى ذلك لم نستطع أن نحظى بوصف أمناء المستقبل الذين يرثون الأرض، وأصبحنا نحن مَن نقوم بالتجديف وغيرُنا هو مَن يتولى قيادة الدفّة.

وإذا نظرنا إلى المسألة من الناحية الاجتماعية نقول: إما أن تديروا الدفّة في التوازن الدولي أو أن تظلوا تُجدّفون طوال عمركم؛ لا توسّط بين الأمرين. أجل، إما أن تكونوا حاكمين أو تظلوا محكومين؛ وبعبارةٍ أخرى: إما أن تكونوا عنصرًا من عناصر التوازن الدولي أو تعيشوا ضمن الإطار الذي رسمه لكم غيركم؛ أو قُلْ: إما أن تكونوا أصحاب الكلمة

والنفوذ أو تغدوا أسرى لغيركم؛ بمعنى أن تصيروا كالعبيد الذين يحملون أغلالًا في أعناقهم وأقدامُهم مقيدةٌ بالسلاسل، وهذا -للأسف- هو حال المسلمين منذ عدّة قرون.

إن التردّي في مثل هذا الحال الناشئِ عن عدم تمثيل الإسلام التمثيلَ الحقّ قد أفضى إلى أننا لم نستطع أن نحافظ على كرامة الإسلام وشرفه، بل وألحقنا به الذلّ والهوان، والحقُّ أننا بقدرِ ما يتسَبَّبُ حالُنا الكئيبُ هذا في إهانة الإسلام سنَلْقَى هوانًا عند الله، فهذا بذاك، لذا فالعملَ العملَ، والسعيَ السعيَ على طريق استعادةِ مكانتنا اللائقة بنا مرّةً أخرى، من أجل هذا يجب على الإنسان أن ينشد المعالي والذرى دائمًا وأن يُعلي من هِمَّتِه، ويرفع من سقف طموحاته.

أبطال الإرادة وكرامة الإسلام

ليس الإنسانُ نباتًا ولا جمادًا، بل هو كائنٌ حيٌّ منحه الله إرادةً إن أعطاها حقَّها بصفتِها شرطًا عاديًا، وأحسنَ استغلال القوّة التي وهبه الله إياها استغلالًا سليمًا استطاع بإذنٍ من الله أن ينفث نسمات الانبعاث في جنباتِ الأرض كلها، فمتى شُحذت الإرادات، وأُشعلت مشاعل الآخرين أنارت الأرضُ كلها وكأنها ساحةٌ للمهرجانات، وإن شئتم فانظروا إلى عصر السعادة من هذه الزاوية؛ ألم يستطع النبي ﷺ أن يحقّق في غضون ثلاثةٍ وعشرين عامًا ما لا يمكن أن يحقّقه غيرُه خلال عدّة قرون؟ أَوَلم يستطع الخليفة الأول سيدنا أبو بكر الصديق رضي الله عنه أن يُقلّم أظفار إمبراطوريتين عملاقتين في تلك الآونة بجيشٍ لا يتعدّى قوامه عشرين ألفَ جندي؟ رغم أنه كان في الوقت ذاته يُصارِعُ فلولَ المرتدّين بما فيهم مسيلمة الكذاب الذي كان على رأسِ جيشٍ يبلغُ أضعاف المنظّمة الإرهابية التي لم نستطع دحرَها في تركيا منذ سنين.

لقد أعطى سيدنا أبو بكر ﷺ إرادته حقّها، وتغلّب بفضلٍ من الله وعنايته على كل تلك المشاكل والصِّعاب؛ وهذا مثالٌ حيٌّ للفعالية والحيوية التي يجب أن يكون عليها المسلم.

أُسُس المحافظة على النشاط والحيوية

يمكن إيجازُ أُسُسِ المحافظة على النشاط والحيوية على النحوِ التالي:

إن أحدَ العناصر المهمة في سبيل الحفاظ على نشاط الناس وحيويتهم هو الإرشاد إلى سبيل يتسنّى للجميع السيرُ فيه، وتحديدُ مجال معين واضحِ المعالم، فالإنسان وإنْ انسلّ من الأنانية وتحرّك باسم الجماعة لكنه يرغب من الناحية النفسية في معرفةِ إطار العمل الذي سيقوم به والنقطةِ التي سيصل إليها، أما تقديرُ الإنسان بسبب ما بذله من سعيٍ وجُهدٍ فإنه يُحفّزُ عشقَه وشوقه إلى فعل الخيرات، وإن كان هناك من يخلطون أنانيتهم في العمل كلّما حقّقوا درجاتٍ مختلفة من النجاح إلا أنه ينبغي في مثل هذا الموقف توجيههم إلى الإخلاص بأسلوبٍ ملائمٍ ليّنٍ.

ومن جانب آخر ففي نفس الوقت الذي تُساعِدون فيه غيرَكم على الانبعاث والحياة تُساعِدون أنفُسَكم أيضًا على البقاء في نشاط وحيوية؛ فالإنسان الذي يُحيي العالَمَ لا يُتصوَّرُ أن يبقى هو ميتًا؛ لأنه يستحيل عندما تساعدون الآخرين على النهوض من كبوتهم وتستبدِئُونهم العمل وتجعلونهم يركضون كالمتسابق في سباقات الماراثون أن تتخلّفوا أنتم عنهم وتتأخروا دونهم.

إن معرفةَ القيمة الحقيقيّة للزمن الذي يمثّل خطًّا اعتباريًّا لأَمرٌ في غاية الأهميّة كي نحافظَ على النشاط والحيوية، وقد تعذَّرَ علينا نحن أن نُدرك -مدّةً طويلةً- أنَّ الزمنَ بِحَدِّ ذاته قيمةٌ مهمةٌ، فهو الكنز الفريد الذي يمكن

الفوزُ بالجنة بفضله إن استُغلَّ استغلالًا جيّدًا. أجل، إنَّ الإنسان إذا أحسنَ توظيـفَ الزمـان فإنّه ينفتح علـى "اللازمانية"، ويفـوز بالأبدية خلالَ فترة زمنيـة قصيـرة وجيزة، فإنَّ معرفـة القيمة الحقيقية الأصليـة للزمان وإحياء كل لحظـة فيـه بالحركة والعمل الصالح لتُمثّلُ أساسًـا "جوهريًّا" من أجل حياة "خدمةٍ" حيوية نشطةٍ.

تحويل الإمكانيات الفانية إلى جماليّات خالدة

سؤال: ما الذي ينبغي أن تكون عليه نظرة المؤمن إلى الدنيا حتى يتسنى له تحويل الإمكانيات الفانية في الحياة الدنيا إلى جماليات خالدة في الآخرة؟

الجواب: لقد خُلق الإنسان ورشّح للخلود، وذهنه منشغلٌ على الدوام في تصوّر السعادة الأبدية الخالدة، وعلى ذلك يجب على الإنسان أن يقدّر الدنيا بقدر فنائها والآخرة بقدر خلودها، ولو كان لنا أن نتحكّم في الطبيعة البشرية وسمحت الأحكام الدينية بهذا فأنا أعتقد أننا إذا ما فكّرنا في الدار الآخرة وخلودها سنقول: "يجب علينا أن نقطع صلتنا بالدنيا تمامًا ولا نيمّم وجوهَنا إلّا إلى الآخرة"، غير أن فطرةَ الإنسان وشهواته وضعفه البشري لا يُجيز مثل هذا الكلام، كما أن الكتاب والسنة اللذين شرعا الأحكام بما ينسجم مع الفطرة الإنسانية لا يُقرّرا مثل هذا النمط من الحياة، ومن ثمّ يجب على الإنسان ألّا يغضّ بصره عن القوانين التي أودعها صاحبُ الشريعة ﷻ في الفطرة الإنسانية، وأن يكون على وعي لما هو مرشحٌ له ولنوعية المفاجآت التي تنتظره؛ بمعنى أن يسير في الطريق الذي رسمه له القرآن الكريم ويبتغي الدار الآخرة فيما آتاه الله تعالى، ويجعل لها الأولوية في حياته، ولكن لا ينسى نصيبه من الدنيا أيضًا.

وفـي هـذا الصدد علـى الإنسـان أن يعتبر رغباتـه وشـهواته الدنيوية كَكِسرة خبزٍ أو قطعة عظمٍ -عذرًا لهذا اللفظ غير اللائق- ملقاة إلى نفسه، وبذلـك يسـتطيع أن يواصل طريقه دون أن تغريـه جماليّات الدنيا الفاتنة، بيـد أن إدراك الإنسـان بشـكلٍ كاملٍ للدنيـا والعقبى وما فيهمـا من ألوان ونقوش خاصّة بهما يتوقّف على المعرفة الحقّة، فمَنْ لم يستطـع أن يُزيّن إيمانـه بالمعرفة لا يسـتطيع أن يشـعر بجماليات صعوبـات الطريق الذي يوصّلـه إلى الخلود وإن كان مسـلمًا، ومـن ثمّ لا يناله إلا التعب والنصب في الطريق الذي يسير فيه.

إن المعرفـة فـي حـدّ ذاتهـا تولّد ضروبًـا مـن المحبة كأمـواج البحر المتلاطمـة، وأما المحبة فتوجّه نظرَ الإنسـان إلى المحبوب الحقيقي ﷻ، ومن خلالها يتخلّص الإنسـان من دغدغة المشاعر، فيطرح عَظْمَةً لرغبات نفسـه وضغوطاتها ويواصل طريقَه، والدنيا مهما كانت فاتنة فعلى الإنسان ألا يثق بها، أما الشيء الوحيد الذي لا بد أن يوليه الإنسان الأهمية القصوى في هذه الدنيا فهو نشـر الاسـم الجليل المحمدي ﷺ في كل أنحاء العالم، ورفـع كرامـة الإسـلام الضائعة المنتهكة مثـل الرايات التـي ترفرف على الأبراج العالية.

فلا قيمة للبقاء في الدنيا إن لم ترتبط قلوبنا بهذه الغاية السـامية، فإذا جعـل الإنسـانُ غايتَه مسـألة إعلاء كلمـة الله وأن تكون الـروح المحمّديّة روحًـا للإنسـانية، فلا غضاضـة من بقائه في الدنيا إن كان يسـعى لتعريف القلـوب بروح سـيد الأنـام ﷺ حتى وإن عمّـر ألفًا إلا خمسـين عامًا مثل سـيدنا نـوح عليه السلام، أما الحيـاة التي تمضي دون أن تكتنفهـا مثل هذه الغاية السامية فما هي إلا خداع يتوازى مـع الإفلاس.

وا حسرتاه! لقد خُدعنا، خُدعنا بالتصفيق والأبهة والعظمة!

الحقيقـة مـع الأسـف أن هنـاك كثيرًا من المخدوعين فـي هذه الدنيا، وفي الواقـع لا يمكن التوصّل إلى قرار صائب في شيء ما إلا بعد تحديد قدر الأهمية التي نوليها له، فإذا ما وصل الإنسان إلى النهاية قد لا يستطيع أن يجد ما يأمله، وحينذاك يقول كالشاعر الصوفي الشيخ "غالب":

وصلنـا إلـى ديـار الحبيـب فلم نلقه

ودخلنا الجنة ولكن هيهات أن نلقاهُ

بمعنى أن الإنسان الذي لا يستطيـع أن يحافظ على التوازن بين الدنيا والعقبـى يظـلّ في تعبٍ دائـم وهو يظن أنه يعمل من أجـل الدين، فإذا ما ارتحل إلى الآخرة لم يستطـع أن يلقى أو يرى الحبيب سبحانه الذي تلتفّ حوله كلّ القلوب.

قد ينخدع الإنســان بالأعمال الخيّرة التي يقوم بها، بســبب أنها أعمالٌ يشــوبها الرياء والســمعة والعجب والفخر وحبّ التقدير والتهليل، وبذلك يُحيل الإنســان أعماله الإيجابية التي بذلها طوال عمره إلى أعمال ســلبية، يقول سيدنا رسول الله ﷺ في حديث له:

"**رُبَّ صَائِمٍ لَيْسَ لَهُ مِنْ صِيَامِهِ إِلَّا الْجُوعُ، وَرُبَّ قَائِمٍ لَيْسَ لَهُ مِنْ قِيَامِهِ إِلَّا السَّهَرُ**"[٣٠].

ومن الممكن ضربُ أمثلةٍ متعدّدةٍ ومتنوّعة، فيمكنكم أن تقولوا مثلًا: ثمّة كثيرون يسعون في طريق الحقّ حتى إنهم لو انتقلوا إلى الدار الآخرة ما اســتطاعوا أن يروا الحبيب؛ لأن هؤلاء قد دنّســوا الأعمال التي يقومون

(٣٠) **سنن ابن ماجه**، الصيام، ٢١؛ **مسند الإمام أحمد**، ١٤/٤٤٥.

بها على متن هذا الطريق؛ فلم يراعوا آداب السير، وانحرفوا عن الجادّة، وأخذوا يتعثرون، ولا شك أن نهاية هؤلاء الذين تعثّروا في هذه الدار وضلّوا الطريق هي السقوط والتردّي كليًّا -حفظنا الله- يقول تعالى:

﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ ۞ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ﴾ (سورة القَمَرِ: ٥٤/٤٧-٤٨).

وهنا يشير ربنا ﷻ بهذا البيان الإلهي إلى أن الذين يعيشون حياتهم زاحفين لاهثين وراء شهواتهم وملذاتهم سيُسحبون في النار على وجوههم.

أجل، لقد وقع هؤلاء أسرًى لأهوائهم، وصاروا عبيدًا لأنفسهم، ومن ثمّ كان مآلهم الانكبابَ على وجوههم، ولا تنفعهم شفاعة الشافعين، يقول تعالى حكايةً عن مثل هؤلاء:

﴿فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ﴾ (سورة الْمُدَّثِّرِ: ٧٤/٤٨).

وحتى لا نتعرّض لمثل هذه العاقبة الوخيمة في الآخرة علينا أن نراقب الله تعالى في كلّ أمور حياتنا، فلا بد أن يتقرّب العبد بشيءٍ من ربّه حتى يُقبل ربُّه عليه، فلو امتلأت حياة الإنسان بمشاعر التوقير والتعظيم والتبجيل لله ﷻ في هذه الدنيا أمدّه الله في الآخرة بيد العناية الإلهية، وخلّصه من الذل والهوان وهو في أشدّ الأزمات.

ومِن ثمّ يجب أن نملأ حياتنا بالأعمال الصالحة بقدر الاستطاعة، وأن نَجْبُرَ أوجهَ النقص والقصور عندنا بصِدْقِ النية وصفائِها؛ لأنّ في النية فيوضات وبركات خفيّةً تُفيد في جبر أوجه النقص والقصور، وإنّ قطرةً واحدةً منها لتملأُ البحار والأنهار، من أجل ذلك على الإنسان أن يوسّع

من دائرة نواياه، فمثلًا عليه أن يقول: "اللهم زوّدني بالفرص والإمكانيّات حتى يتسنّى لي أن أغيّر مدار الكرة الأرضية؛ فيُرفرفَ الاسمُ الجليل المحمّدي في شتّى أصقاع الأرض"؛ لأن قطرةً من النية في هذه المسألة قد يُجازي الله تعالى عليها ثوابًا يعادل البحار؛ بمعنى أن الإنسان إن أنهك نفسَه في التفكير حتى كاد رأسُه أن ينفجر من أجل إنجاز الأعمال التي لا بدّ من إنجازها، ثمّ وصل إلى درجةٍ تتجاوز طاقتَه وقدراته استشفعَ بنيّته قائلًا: "اللهم إني عازمٌ على إنجاز هذا الأمر، ولكن طاقتي إلى هذا الحدّ، ولا أستطيع أن أصل بالأمر إلى أبعدَ من هذا"، حينذاك يقول له مَن لا حدّ لقدرته ولا نهاية لمشيئته وإرادته ﷻ: "عبدي، سأصل بالأمر إلى ما لا تستطيع أن تصل إليه".

مَن أحب الدنيا لم ينلْ الآخرة!

ولنا أن نربط هذه المسألة بما قاله الشيخ محمد لطفي أفندي ؒ:

ألا يحبّ المولى مَن أحبه؟

ألا يرضى عمَّن هرول لنيل مرضاته؟

لو وقفتَ له على الباب.. وفديته بالروح والنفس والأحباب...

وعملت بأمره، أما يُجزل لك الثواب؟

لو خررتَ خريرَ الماء، وانهمرت عيناك مثل أيوب بالدموع والبكاء...

واكتوى قلبك بالعشق والابتلاء، أما يُقبل عليك رب الأرض والسماء؟

فهذا الهم دواء للهم، والصمد سبحانه يحب مَن يهتمّ

ألم يُدركك فضل الواحد الأحد..فهو بلسمٌ لكلّ مغمومٍ مهتمّ؟

هذه هي خلاصة القول.

إنْ شعَرَ العبدُ بالمعية في الدنيا روحيًا وحسّيًا وفكريًا حظيَ بالمعية الحقيقية في الآخرة، ومَن يعيشون هنا معًا يصلون إلى المعية هنالك، ولذا تمسّكوا دائمًا بهذه المعيّة وتعلّقوا بها، وادْعُوا الله دائمًا في توسّلٍ وتضرّعٍ: "اللهم معيتك، اللهم معية حبيبك ﷺ".

أشغلوا أنفسكم بذلك ليلَ نهار، والْهجُوا دائمًا بذكره؛ حتى تحْظَوا بهذه المعيّة عندما ترحلون إلى الآخرة، فلو دخلتم في معيّته هنا انهالت عليكم المفاجآت هناك، حتى تنسوا هذه الدنيا الكاذبة الخادعة التي خلّفتموها وراءكم، ولكن يا للأسف! اضطربت العقول في أيامنا وتشتتت المشاعرُ والأفكار، وأصبح الناس يفكرون في الدنيا أكثر من الحياة الأبديّة والذات الأبديّة.

ولو اطّلعتم على كلام الصالحين لأدركتم قدر معاناتهم وشكواهم من الدنيا، فمثلًا يقول "يونس أمره":

عجزتُ أمام نفسي الظالمة

فهي لا تشبع من ملذّات الدنيا الغاشمة

والغفلة غشيتْ بصري

والعمرُ يمضي والنفسُ لا تدرِي

فهل تَعْتَبِرُ يا إلهي "مسلمًا"

مَن يتجلبَبُ بالغفلة ويتّبع هوى نفسه مسلّمًا؟

يكسب ثم يكسب ثم يضيّعه سُدًى

وتأبى نفسُه أن ينفق قرشًا منه في سبيل الهُدى

إلهي، أزح عن عينيّ الغفلة والضباب

ولا تسوّد وجهي يوم تسودّ الوجوه وترجف الألباب

يقول يونس؛ أصغوا إلى حديثي ولو كان عجيبًا

من أحب الدنيا لم ينل من الآخرة نصيبًا

أجل، لا بد أن نكون على أهبة الاستعداد حتى نرى الحبيب ونلقاه، لن يضيع هناك ألبتة أيُّ كتاب عشقٍ سطّرتموه هنا، وعندما ترحلون إلى هناك يقولون لكم: ها هي الخطابات التي وصلتنا منكم، كما قال الشاعر "نسيمي":

جاءني من الحق تعالى النداء

أن أقبل أيها العاشق فأنت مَحْرمٌ تستحقّ الثناء

وهذا مقام المحارم الأقرباء

وقد وجدناك أهلًا للبرّ والوفاء

فهل هناك قيمةٌ لأيّ مدحٍ وثناءٍ دنيوي إلى جانب هذا المدح والثناء الذي يُخاطب به الإنسانُ في الآخرة: لقد فُتحت القسطنطينية على يد السلطان الفاتح الذي "أفديه بروحي وإن كان لي ألف روح"، ولكن ما قيمة هذا الفتح بجانب السلطنة التي يهبها الله في الآخرة؟ إن هذا كله لا يعادل حتى الذرات بجانب الشمس.

الخلاصة: أنّ مَن يكسب الدنيا برأسماله هنا لن يبقى له رأسُمالٍ يكسب به الآخرة، وسيذهب إلى هناك خالي الوفاض، ولكن مَن استغلّ إمكانياته في سبيل الفوز بالآخرة انهالتْ عليه كثيرٌ من المفاجآت عندما يرتحلُ إليها.

بعدما أشار الحقّ ﷻ إلى طبيعة الإنسان في سورة القيامة تحدّث عن العاقبة التي سينالها كلا الفريقين في الآخرة، يقول تعالى:

﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ ۝ وَتَذَرُونَ الآخِرَةَ ۝ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ ۝ إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ۝ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ ۝ تَظُنُّ أَنْ يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ﴾ (سورة القِيامَةِ: ٧٥/٢٠-٢٥).

ندعو الله رب العالمين أن يجعلنا من أصحاب الوجوه النضرة في ذلك اليوم الرهيب!

دعاءٌ ذو أربعة أُسُسٍ

سؤال: كان رسول الله ﷺ كثيرًا ما يدعو فيقول: "*اللّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الْهُدَى وَالتُّقَى، وَالْعَفَافَ وَالْغِنَى*"[٣١]، فهلا توضّحون لنا هذه الأسس الأربعة الواردة في هذا الدعاء؟

الجواب: لا بدّ أن أنوّه بدايةً بأنّ كلّ هذه الأسس الواردة في الدعاء هي من الخصال العظيمة التي كان يتحلّى بها الأنبياء العظام عليهم السلام، بل يمكن أن يُقال إنها وصفٌ ملازمٌ لهم، لا ينفكّ عنهم، وبما أن الأنبياء يضطلعون في تصرُّفاتهم وسلوكيّاتهم بمهمّة الإرشاد لكل المؤمنين؛ فعلى أبطال الإرشاد والتبليغ الذين نذروا أنفسهم للإنسانيّة وتبليغ الحقّ والحقيقة أن يتحركوا بما يتناسب مع هذه الخصال الجليلة، وأن يترجموا هذا الدعاء: "**اللّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الْهُدَى وَالتُّقَى، وَالْعَفَافَ وَالْغِنَى**" إلى أفعال وتصرُّفات، وينقلوا كلماته من مناطِ القالِ إلى الحالِ.

---

(٣١) **صحيح مسلم**، الذكر، ٧٢؛ **سنن الترمذي**، الدعوات، ٧١، **سنن ابن ماجه**، الدعاء، ٢.

١- الهدى

والهدى هو أول الخصال التي سـألها سـيّدُ الأنبياء ﷺ في هذا الدعاء، ويعني رؤيةَ الصواب والشعورَ به، وبلوغَه والثباتَ عليه؛ ومن هنا كان في غاية التناسـب ورودُ "الهدى" كأوّل مطلبٍ في هذا الدعاء؛ إذ من المتعذّر أن يرى الإنسـانُ الصوابَ، ويبرمج حياته عليه دون هدًى من الله، فإذا ما انتفى الهدى فلا مجال حينذاك للحديث عن التقوى والعفاف والغنى؛ لأنّ حصـول الخصال الثلاث التي أعقبـت "الهدى" ورودًا في الدعاء إنما هي مترتّبةٌ عليه من ناحية ما.

فالهدى هو أساس ورأس كلّ أمر، ومصدره هو القرآن الكريم والسنة المطهرة الصحيحة التي تتناولُ أقوال وأفعال وأوصافَ وتقريرات الرسول الأكرم ﷺ، يقول الله تعالى في الآية الثانية من سورة البقرة: ﴿**ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْـبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ**﴾ (سـورة البَقَرَة: ٢/٢)، وتلفت هذه الآيةُ الانتباهَ إلى أنّ القرآن الكريم في حدِّ ذاته مصدرُ هدايةٍ بالنسـبة للمتقين، وبعدما عدّد ربُّنـا سبحانه وتعالى خصـالَ المتقين فـي الآيتين الثالثة والرابعة من نفس السـورة أكّدَ سبحانه وتعالى على الهداية مرة أخرى في الآية الخامسـة فقال: ﴿**أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ**﴾ (سـورة البَقَرَة: ٥/٢)، كما ذكر سـبحانه أن التقوى هي الشـرط الأسـاسُ للاسـتفادة -بحقٍّ- من القرآن المعجز البيان، ونوّهَ بالعلاقة بين الهدى والتُّقى.

والهـدى -كما أسـلَفتُ- هو مـن الخصالِ التي فطـرَ الله تعالى أنبياءه عليهـا جِبلّـةً؛ لأن الله سبحانه وتعالى أرسـلَ هـؤلاءِ العظمـاء بمهمّـةٍ نبيلة، وحاشـاه أن يسـمحَ لهـم بتصرّفـات يتذّرع بها الرُّعَّـنُ قليلو الحيـاء للنيل منهم في المسـتقبل؛ ومن ثمَّ فإن ما قيل في حقّ سـيدنا داود وسـيدنا سـليمان عليهما السلام

ما هو إلا فِرْية أطلقها بنو إسرائيل، وكذلك ما قيل في حق سيدنا نوح وسيدنا هود عليهما السلام ما هو إلا محض كذب افترته أقوامهم، كما أن الكلمات النابية التي استهدفت النبي ﷺ وأخرجَتْه عن دائرة الهداية ما هي إلا تعبيرٌ عن الوقاحة وسوء الأدب، وإنّها لَإِفْكٌ عظيمٌ يهتزُّ له عرشُ الرحمن.

وبالمناسبة أريد هنا أن أكشف الستارَ عن الخطإِ الذي وقع فيه بعض علماء السوء عند تعليقهم على قول الله تعالى: ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى﴾ (سورة الضُّحَى: ٩٣/٧)؛ حيث قالوا في معنى الآية: "وجدك الله تعالى على ضلالة فهداك"، وفسّروا الضلالة هنا بأنها نقيضُ الهداية، وانطلاقًا من هذا ادّعوا افتراءً أن سيد العالمين سيدنا ومولانا محمدًا ﷺ كان يعيش -حاشا لله- في ضلالة حتى اللحظة التي أُضيء فيها أفقُه بنور النبوّة، والحقيقةُ أنّ مَن ينسب مثل هذه الضلالة إلى سيدنا رسول الله ﷺ هو من يعيش في الضلالة أصلًا، ندعو الله تعالى أن يهديه سواء السبيل.

لأن الله تعالى يقول في سورة النجم: ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى﴾ (سورة النَّجْمِ: ٥٣/٢)، فعبّرَ الحقُّ جلّ جلاله هنا عن انتفاءِ الضلال بصيغة الماضي فقال: "مَا ضَلَّ" للدلالة على أن حياته السَّنِيَّة كلها كانت تقوم على الهداية دائمًا.

ورغم أن الآيتين السابقتين تبدوان وكأنهما متناقضتان ظاهرًا فمن الممكن التوفيق والجمعُ بينهما بالنظر إلى المعاني المختلفة لكلمة "الضلالة"؛ فالضلالة تنطبِقُ على معنى "الانحراف والحياد عن الطريق المستقيم"، وتنطبِقُ أيضًا على معنى "عدم القدرة على اختيار الطريق الأسلم والأقوم بين عدة طرق، والوقوع في حيرةٍ وتردّد"؛ وعلى ذلك فحريٌّ بنا أن نأخُذَ بالمعنى الثاني عند نسبة كلمة "الضلالة" إلى سيدنا رسول الله ﷺ؛

فلقد عاش ﷺ قبل نبوَّته حالةً من التردّد بين الطرق المختلفة، فبذل جهده لبلوغ الطريق المستقيم، وبذلك شكّل أرضيّةً مهمّةً لمستقبلِهِ حتى اللحظة التي بلغه فيها النور السماويّ.

وقد يكون المقصودُ من قوله ﷻ "وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى" تلك الدهشة والحيرة والهيمان الذي عاشه النبي ﷺ عند أوّلِ نزولٍ للوحي عليه؛ لأن سيدنا رسول الله ﷺ لما فوجِئَ بهذا الحدث السماوي انتابته صدمةٌ كبيرة، وربما لم يستطع أن يدرك ما الذي يجبُ عليه فعله، إلا أنّ ذا الفطنة الخارقة صلوات ربي وسلامه عليه اتّجهَ إلى زوجته الرزينة الوقورة والدرّة الطَّهورة أمِّنا السيدة خديجة رضي الله عنها، وأفضى لها بما في صدره؛ فهدّأت من روعه، وذكّرته بدايةً بسجاياه الطيبة، وعدّدت أخلاقه العالية، وطَمْأَنَتْهُ قائلةً: "كَلَّا وَاللهِ مَا يُخْزِيكَ اللهُ أَبَدًا، إِنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحِمَ، وَتَحْمِلُ الكَلَّ، وَتَكْسِبُ المَعْدُومَ، وَتَقْرِي الضَّيْفَ، وَتُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الحَقِّ"[٣٢]، ثمّ انْطَلَقَتْ بِهِ حَتَّى أتتْ ابنَ عمِّها القسَّ وَرَقَةَ بنَ نَوفَل.

وانطلاقًا من هذا يمكننا أن نفهم الآية الكريمة الواردةَ في سورة "الضحى" على النحو التالي: "لقد كنتَ في فترةٍ ما لا تدري ما الجنّة وما النار، وتتلوّى وتتألّم وتجزع من أحوال الناس العامة، ولا تدري ماذا عساك أن تفعل لهم، ومع أنك كنتَ تشعر بشيءٍ ما بسبب المعاني التي استلهَمْتَها مِمّا بقي من دين إبراهيم عليه السلام؛ إلا أنّك لم تكن في وضعٍ يسمح لك باتخاذ القرار القاطع في مسألة وضعِ كلِّ شيءٍ في نصابه، فأرسل الله تعالى لك وحيَهُ، وأزال عنك الحيرة والتردد، وأرشدك إلى الطريق المستقيم".

(٣٢) **صحيح البخاري**، بدء الوحي، ٣.

وثمـة أمرٌ آخر لا بدّ من الوقوف عنده فيما يتعلق بصفة "الهدى" التي كان فُطِـرَ عليهـا الأنبياء؛ وهو قولُ الله تعالى في سـورة الشـورى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْـتَقِيمٍ﴾ (سورة الشُّـورَى: ٤٢/٥٢)، وهذا يعني أن رسول الله ﷺ كان علـى الهـدى، ومرشـدًا للآخرين إليـه، وبما أن الأنبيـاء جميعهم كذلك فهم يسوقون الناس بمشيئة الله تعالى ويرشدونهم ويفتحون الطريق أمامهـم، ويوصّلونهـم إلى الهداية، وإذا تناولنا هـذا الأمر في إطار مفهوم الجهـاد والإرشـاد فإن هـؤلاء الأنبياء قد أزاحوا العوائـق بين الناس وبين ربهـم، وسـاهموا في وصال القلـوب بالله، ولا جرم أن اتّقـاد جذوة النور الإلهيّ في قلوب المخاطبين هو من اختصاصات ربنا سبحانه وتعالى.

٢- التقوى

والتقوى هي الخصلةُ الثانية التي سـألَها الرسول الأكرم ﷺ في دعائه، وتعني اتقاء غضب الله سـبحانه وعذابه بامتثال ما أمر به واجتناب ما نهى عنـه، والواقـع أن للتقـوى مراتـب كما للهـدى، فدِهليزُهـا أداءُ الفرائضِ والواجبـاتِ واجتنـابُ الكبائـرِ والمحرمـاتِ، وبعد ذلك نخطـو من باب التقوى إلى الداخل باجتناب الشبهات وعدم الاقتراب من دائرة المحرمات، ثـم نصـل في النهاية إلى التقوى الحقيقية بِتَرْكِ ما لا بأس به؛ حذرًا مما به بـأسٌ، والتقـوى بمعناها التام هي أداءُ أوامر الشـريعة على الوجهِ الأكمل، ولكـن علينا ألّا ننسـى أبـدًا أنها تعني -إلى جانب ذلـك- مراعاةَ القوانين التي وضعها الله تعالى في الكون والتي نسميها قوانين الشريعة الفطرية.

وعلـى ذلـك فإنّ اسـتفادة المؤمـن اسـتفادةً تامّةً من الكتاب والسـنة الموصلَين للهداية مرهونةٌ بـ"تقوى" ترتقي إلى هذا المسـتوى، وعند النظر إلـى الأمر مـن هذه الزاوية يتبين لنا أن الهدايـة والتقوى صنوان، وكما أن

الوصـول إلى التقوى مرهـونٌ بالهدى فإن الفهم الصحيـح للمنهج الذي وضعـه ربنـا ﷻ ونبيه ﷺ واسـتيعاب روحه وسـموّه وعظمتـه لا يتأتّى إلا بالتعمّق في التقوى.

٣- العفة

العفّةُ المذكورة في الدعاء ثالثًا تعني أن يتوخى الإنسان الحذر والدقة مـن أجـل حماية وصيانة شـرفه، وغـضِّ بصـرِه وضبطِ سـمعه، وتحكُّمِهِ فـي كلامـه بحيـث لا يتحـدّث إلا إذا لزمَ، ولا يتسـوّل أحـدًا، والخلاصة أن يتحـرّك فـي دائـرة الأدب والحياء فـي كلِّ أحواله وأطـواره؛ فإن عفَّ الأفـراد عـفَّ المجتمـع، وإلا فـإنّ مجتمعًا مكوّنًا من خليـطٍ من المذنبين والمخطئين تسـتحيلُ عليه العفّة، وإذا فُقِدَتِ العِفّةُ من المجتمع شـاعت فيه شـتّى أنواع المفاسـد والمسـاوئ كجرائم السـرقة والخطف والرشوة والكذب والنهب وما إلى ذلك، ويشرَعُ أولو المناصب الصغيرة في السرقة علـى قـدرِ مسـتواهم، بينما يَشـرَعُ الكبار في السـرقة والنهب بقـدرٍ أكبر؛ فيسرقون ويختلسون الأموال والثروات.

وقـد وصـف القرآن الكريـم أبطالَ العفَّـة بقول الله تعالى: ﴿**يَحْسَـبُهُمُ الْجَاهِـلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِـيمَاهُمْ لَا يَسْـأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا**﴾ (سـورة البَقَـرَة: ٢/٢٧٣)، أي وصَفَهـم بأنهـم حتى وإن جاعوا وظمِئُوا وتشـرّدوا فإنّ هذا لا يقودهم إلى التسوّل والتكفّف، والحقّ أنهم جديرون بتقبيل الجباه والتبجيـل والاحتـرام، ومـع هـذا فإن الإسـلام أجـاز لمن فـي مثل هذه الأحـوال مـن الضيق والحاجـة أن يطلبوا مـن غيرهم بقدر مـا يقيمون به صلبهم فحسب.

٤- الغنى

الأمر الرابع الوارد في دعاء رسول الله ﷺ هو الغنى، وله معنيان اثنان؛ أوّلهما: غنى القلب والاستغناء عمّا سوى الله، أما ثانيهما: فهو الثراء والغنى المادّي بالكسب الحلال، ولا حرجَ في طلب الثاني منهما أيضًا؛ لأنَّ كلَّ نعمة من نعم الدنيا إنْ أُحسِنَ استخدامها قد تكون عنصرًا مهمًّا في تقويةِ ودعم الإيمان والعبادة والطاعة، غير أنه ينبغي أن نتوخّى أعلى درجات الحذر عند طلب الغِنى المادّي فليكن حلالًا صِرفًا، ولنتجنّب البخلَ عند أداء حقّ المال، ولا نسمح للقلب أن يتعلّقَ أو يتكالبَ بالمال والأملاك أو عليهما، ولنذكر دائمًا أن المالَ والثروة لطفٌ ونعمة من الله، ويتحتّم علينا ألّا ننخدع بما في أيدينا من إمكانيات، فلا نقعَ بذاتِ الحفرة التي وقع فيها قارونُ عندما قال: ﴿**إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي**﴾ (سورة القَصَصِ: ٧٨/٢٨).

فإن رُوعِيَتْ هذه الأمور فلا حرج في طلب الثروة والمال من الحقّ تعالى، بالإضافة إلى ذلك فقد استجار سيد الأنبياء ﷺ واستعاذ بالله تعالى في بعضِ أدعيته من الفقر والجوع إلى جانب بعض الأمور الأخرى، ومن ذلك دُعاؤه ﷺ: "**اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْفَقْرِ وَالْقِلَّةِ وَالذِّلَّةِ**"(٣٣)؛ إذ إنّ منْ يتعرض لمثل هذه المواقف قد يشكو حالَهُ ويتذمّر منها، أو يقع في مستنقع التسوّل والشحاذة.

لذا فإنّ الإسلام لم يتبنّ موقفًا تحريميًّا ولا رافضًا تجاه طلب الثراء والغنى المادي، ولكنّه نهى عن كنزِ الثروات، وادّخارِ المال والنقود من أجل الثراء والمستقبل الشخصيّ؛ إذ بيّنَ القرآنُ الكريم سوءَ عاقِبَةِ

(٣٣) **سنن أبي داود**، الوتر، ٣٢؛ **سنن النسائي**، الاستعاذة، ١٩، ٢٠؛ **سنن ابن ماجه**، الدعاء، ٣.

من يكنزون المال ويمسكونه في أيديهم دون أن ينفقوا منه في سبيل الله فقال: ﴿**وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ**﴾ (سورة التَّوْبةِ: ٣٤/٩). أجل، إن من يتّخذون الخزائن ويكنزون فيها الثروات ويُرابون في الأموال، بل ويتحيّنون الفرصَ فيتلاعبون بالاقتصاد حسبما يحلو لهم، ولا يخافون الله ولا يفكّرون في الآخرة قد بُشّروا بعذابٍ أليم، والحقُّ أن الإنسان بوسعه أن ينال البشارةَ الحقيقيّة إنْ أنفق ما في يده من ثروة ومال في مسارها الصحيح، إلا أنّ مَن لم يُحسن استخدامها ولم يضعها في مكانها الصحيح فإنه يتسبَّبُ في تَحَوُّلِ البشارةِ إلى عذابٍ أليمٍ بالنسبةِ إليه.

وفي الآية الكريمة التي تلت الآية المذكورة آنفًا يقول الله تعالى: ﴿**يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ**﴾ (سورة التَّوْبةِ: ٣٥/٩) مُبيِّنًا بالتفصيل شكلَ وصورةَ العذاب الذي ينتظرهم في جهنّم.

أما المال والثروة التي تُدَّخَرُ لتُنفَقَ في سبيل الله تعالى فلها شأنٌ آخر. أجل، إن الثروة والمال الذي يُكتسب بنيّات طيبة كأن يُستخدم في سبيلِ إعلاء كلمة الله تعالى، وإنشاءِ المدارس والجامعات في شتّى بِقاع الأرض، وإعلامِ الإنسانية بقِيَمِنا السامية فيُمْكِنُ تقييمه بطريقة مختلفة، بل إنه ينبغي تحفيز الناس إلى هذا النوعِ من الغِنى كي تتحقّقَ تلك الغايات السامية.

يمكن التوفيق والجمعُ بين الاستفادة من نِعَمِ الحقِّ تعالى وبين العِفّةِ والاستغناء عمّا في أيدي الناس، وهذا التأليفُ من صميمِ الأوامر القرآنيّة؛ فمثلًا يُشار في قوله تعالى: ﴿**وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا**

تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾ (سورة القَصَصِ: ٧٧/٢٨) إلى الاهتمام بالدنيا والعناية بها بقدر ما يلزم فحسب إلى جانب الاهتمام بالآخرة والعناية بها وطلبها.

غير أن الأهمّ -إلى جانب كل هذه الأمور- هو غِنى الروح والنفس؛ فقد عاش الأنبياء العظام يحملون ويُجسّدون شعورَ الاستغناء هذا دائمًا، فلم يتشوّفوا إلى أجرٍ قطُّ في مقابل أدائهم وظيفة التبليغ التي اضطلعوا بها، ولم يسألوا الناس شيئًا قطُّ، وقد عانوا وتجشّموا كثيرًا من المشاقّ والمضايقات من أجل إيصال رسائلهم إلى أقوامهم، لكنهم لم يطلبوا من أيِّ شخص مقابلًا ولا مكافأةً على ما فعلوه؛ لأنهم فوّضُوا أمرهم كلَّه إلى الله تعالى، وعلّقوا عليه الرجاء، ومن ذلك قولُ نبيّ الله نوح عليه السلام لقومه: **﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾** (سورة الشُّعَرَاءِ: ١٠٩/٢٦)، وقولُ هود عليه السلام لقومه: **﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾** (سورة الشُّعَرَاءِ: ١٢٧/٢٦)، وقولُ نبيّ الله صالح عليه السلام لقومه: **﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾** (سورة الشُّعَرَاءِ: ١٤٥/٢٦)، فلقد استخدم الأنبياءُ مع أقوامهم أكثرَ المقوّمات تأثيرًا وفعاليّة ألا وهو "الاستغناء"، لأن اتخاذ موقفٍ مثل هذا مقنعٌ تمامًا بالنسبة للمخاطبين، وهكذا فإن عدمَ تشوُّف الإنسان إلى أجرٍ دنيويٍّ في مقابل الواجب الذي يضطلع به، وعدمَ طلبِهِ أيَّ مقامٍ ولا منصب دنيويّ وانتظارَهُ الأجرَ والثوابَ والمكافأة من الله تعالى فحسب يُمثِّلُ عمقًا آخر من أعماق الغنى (الغنى القلبي).

ومع هذا فإنه ينبغي للجميع أن يرضى بما قدّره الحق تعالى له، وألا يطمع في الأمور المادية والمسائل الدنيوية، لأنه ربما يكون الفقرُ الذي قُدّرَ من قِبلِ الله بحق بعض الأشخاص أفضلَ وأصلحَ لحالهم، ومَنْ

يدري فربما لو امتلكوا ثروةً أو مالًا طائلًا لأكبّهم سوءُ استخدامهم له في جهنّمَ على رؤوسهم؛ فيهوون فيها تمامًا كما هوى قارون، لِما في أنفسهم من ضعف أمام المال والثروة، لذا فحريٌّ بنا أن نُسَلِّمَ ونرضى بالتقدير الإلهيّ بحقّنا.

دعاءٌ لا تكتنفه الغفلة

سؤال: كيف نمزِّق حجاب الغفلة في الدعاء؟

الجـواب: إنّ مـن الأهمّيّة بمكان بالنسـبة لمَنْ يتوجـه إلى الله بالدعاء أن يكون لديه شعورٌ كاملٌ بأنه عندما يرفـعُ أكفَّ الضراعة فإنّما هو واقفٌ أمام الحضرة الإلهية، فتنساب الكلماتُ من فِيهِ وهو على وعي كاملٍ بها، وأن يتجنّب اللغو واللهو؛ لأن رسول الله ﷺ يقول:

"**وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ** ﷻ **لَا يَسْـتَجِيبُ** (وفي رواية: **لَا يَقْبَلُ**) **دُعَاءً مِنْ قَلْبٍ غَافِلٍ لَاهٍ**"[(٣٤)].

وهنا ينبهنا رسول الله ﷺ إلى أن الغفلة واللاوعي يشكّلان عقبةً حقيقيّة أمامَ قَبول الدعاء، وهذا يدعونا إلى أن نتعرف جيدًا على أهمية الدعاء في الديـن أوّلًا حتـى لا يذهب الإلف والتعوّد بطـراوة الدعاء وحلاوته، وألا يفقد كلامنا بريقَه وقيمتَه.

---

(٣٤) **سنن الترمذي**، الدعوات، ٦٧؛ الحاكم: **المستدرك**، ١/٦٧٠.

الدعاء مخّ العبادة

يقول سيدنا رسول الله ﷺ: "**الدُّعَاءُ مُخُّ العِبَادَةِ**"(٣٥).

فكما أن المخّ له أهميةٌ حياتيةٌ بالنسبة لبنية الإنسان، وقد يتعرضُ الإنسان لشللٍ ويصبح طريحَ الفراش أو يموت إن أصاب مخَّه خللٌ أو عطبٌ؛ فكذلك الدعاء يحافظ على الصلة بين العباد وربهم، وبه فحسب؛ تتميّزُ العبادة الحقيقيّة عن غيرها.

وفي الوقتِ ذاته فإنّ الدعاء يعني التوجّه إلى الله تعالى بطلباتٍ تفوقُ الأسباب، وهذا له أهميةٌ كبيرة في الوصول إلى الشعور بالتوحيد الحقيقي، لأنّ الإنسان عندما يرفع يديه بالدعاء ويتوجه إلى الله تزولُ وتتلاشى كلُّ الأسباب والحُجُبِ بينه وبين ربه سبحانه وتعالى، فالأسباب هي حجابُ عزته تعالى وعظمته، ولكن الإنسان الذي يدعو يتجاوز كلّ هذه الحجب، ويتلمس مقبضَ باب العزيز الجبار مباشرةً، ويسأله -وحده دون سواه- ما يشاء، وبذلك يحلّق في أفق التوحيد الخالص.

ومن ثمّ فعلى المؤمن إذا ما تخلّى عن الأسباب وشعر بامتثاله في حضرة مسبّب الأسباب جلّ شأنه أن يجعل قلبه يُقِرُّ متفاعلًا مع ما ينطلق به لسانه، وأن يعبّر القلب عن كلّ كلمةٍ تخرج مِن فِيه؛ وبتعبير آخر: لا بدّ ألا يكون ثمّة تناقضٌ بين القلب واللسان، وأن يُفَكِّرَ القلب في المعنى الذي يعبِّرُ عنه اللسان، فمثلًا إذا قال العبد: "اللهم بلِّغني رضوانك، وخصّني برضاك!" فينبغي له أن يضبِطَ إيقاعَ قلبه على سُلّمِ هذه الكلمات، لينبضَ القلب بها، وإيّاكم وازدواجيّةَ القلبِ واللسانِ وأنتم تقِفُون في حضرةِ الحنّان المنّان، وليسَ هذا في الدعاء فقط بل على المؤمن أن

(٣٥) سنن الترمذي، الدعوات، ٢.

يتحرّك مقرونًا بالوعي في كلِّ العبادات، فمثلًا على المصلي أن يصطحب النية التي هي "قَصدُ القلب" عند شروعه في الصلاة، وأن يجعل من هذه العبادة عملًا قلبيًا بقدر المستطاع؛ لأن الأعمال التي يقوم بها العبد تُرْهَن معانيها وقيمتُها عند الله على ما يُقدّمه صاحبُها من ولاءٍ وإذعانٍ ويقينٍ قلبيّ معها.

الإيمان والدعاء

ومثل هذا التعمّق في الشعور منوطٌ -في الدعاء وغيره- برسوخ الإيمان بالله بداية، فبِقَدْرِ إيمان العبد بربه يكون قدرُ وماهيّةُ الدعاء الذي يدعو به، أما من يعيش مشكلةً في إيمانه وضَعْفًا وضحالةً في يقينه فلا يمكن أن يصل ألبتة إلى تكاملٍ بين القلب واللسان، ومن هنا يمكن القول: إن لم يُخلص الإنسانُ في دعائِهِ ولم يَشعُرْ بفورانِ وهيجانِ الدعاء في قلبه فهذا يعني أنه يعيش بالفعل مشكلةً في إيمانه أولًا ثم في يقينه ومعرفته ثانيًا، والأنكى من ذلك أن الإنسان إن لم يُلْقِ بالًا لأمواج الكفر العاتية، ولم ينزعج ويتبرّم من ضلال الناس وطغيانهم، ولم يعبأ بإيمان هؤلاء الناس بنفس القدر الذي يوليه لأن يكون عنده عشّ وأَبْناء، ولم يرفع يديه بالدعاء قائلًا: "اللهم افتح واشرح صدور كلّ الناس على وجه البسيطة للإسلام، وإن لزم الأمر فأزهق روحي على أن تُدخل الإيمانَ إلى قلوبهم"؛ فهذا يعني أن ذلك الإنسان يعاني من مشكلةٍ إيمانيةٍ حقيقية، ومثل هذا الإنسان يحتاج أوّلًا، وبشكل ضروري، إلى إعادة تأهيلٍ كبيرةٍ في مسألة الأركان الإيمانية.

والواقع أننا جميعًا في حاجةٍ إلى إعادة تأهيل كهذه، فكما يقول بديع الزمان سعيد النورسي ﷺ: "إن أعظم خطرٍ على المسلمين في هذا الزمان

هو فســاد القلوب وتزعزع الإيمان بضلالٍ قادمٍ من الفلسـفة والعلوم"[٣٦]، "وإن كلّ ما تكسـبه أيدينا من إثم، وكلّ ما يَلِجُ إلى أذهاننا من شـبهةٍ يشقّ جروحًا غائرة في قلوبنا، ويفجر قروحًا داميةً في أرواحنا"[٣٧].

أجـل، كمـا أنّ التحقيـقَ في الإيمان قـد انهارَ كلّيّةً فـي عصرِنا؛ عصرِ النفـاق والجهـل والأنانيـة؛ فكذلك قد تفكّكَـتْ روابطُ التقليد والتأسّـي، إن النـاس قديمًـا كانوا ينظرون إلى شـيوخهم ومرشـديهم ويقلدونَهم في أفعالهم وتصرفاتهم، وبذلك يدخلون حظيرة الإيمان وإنْ كان تقليدًا على الأقل، فيحفظون أنفسهم وفقًا لمقولة: "مَن قلّد عالمًا لقيَ الله سالمًا"، لكن معظم الناس في يومنا هذا -مع الأسف- قد حُرِمُوا مثل هذه الإمكانية.

والحقّ أن الإنسـان إن أصغى إلى نفسـه، وتدبّرَ الأحداث التي تجري حولـه، وتأمّلهـا جيّدًا، فسيشـعر بالله ويحـسّ به في كلّ شـيء، كما يقول الشاعر التركي "جناب شهاب الدين":

إلهي أنت موجود
موجودٌ دائمًا وأبدًا
موجودٌ في عقلي وخيالي وشعوري

فلو أن الإنسان شاهدَ جمالَ الله تعالى في كلّ المرايا فقد يُهَرْوِلُ أحيانًا إلـى الشـجرة مثلًا لأنها تَجَلٍّ مـن تجلّيّات أسـماء الله، ويقَبّلها، ويحتضن العشـب، ويكحّـل عينيـه بالتراب، وقـد يتوجه إلى الشـمس التي هي ظلٌّ كثيف لاسمه تعالى "النور"، ويعيش من ناحيةٍ ما كالمجنون، وإنسانٌ على هذه الشـاكلة يتحلّى بالإحسـان أمـام الله، ويتعامل وكأنه يـرى الله تعالى، ويتحـرّك موقنًـا بـأنَّ الله تعالـى يراقبه على الـدوام؛ وبهـذه المنهجيّة دون

(٣٦) بديع الزمان سعيد النورسي: **اللّمعات**، اللمعة السادسة عشرة، السؤال الثاني المثير، ص ١٤٢.
(٣٧) بديع الزمان سعيد النورسي: **اللّمعات**، اللمعة الثانية، النكتة الأولى، ص ١١.

سواها يستطيعُ أن يصل إلى أفق اليقين، فإن رفع يديه بالدعاء تغلّب على الإلف والغفلة وتجاوز الأسباب ممزّقًا حُجُبَها، وتوسّل وتضرع إلى الله مع شعوره اليقينيّ بأن الله تعالى يراه.

الهيجان الوجداني وصوت الرَّجَفات

أجل، من المهمّ جدًّا أن تتخلّل الطمأنينة والخضوع والخشوع في الدعاء شعورَ الإحسان، لدرجة أنه ينبغي للإنسان إذ يتضرّعُ إلى الله تعالى بالدعاء؛ أن يتوجّه بِكُلِّهِ، ويغيبَ عن وعيه، ولقد شاهدتُ كُلًّا من الشخصيتين الفاضلتين: "طاهر مُوتْلُو" و"أحمد فيضي أفندي" من طلّاب فضيلة الأستاذ بديع الزمان؛ فكانا -وهما يدعوان الله تعالى- يُعبّران عن خلجاتهما الوجدانية، ويتلوَّيان ويغيبان عن نفسيهما تمامًا، والواقعُ أنهما كانا يتمثَّلان السلوكَ الذي تعلَّماه من أستاذِهما.

وهنا أريد أنْ ألفتَ انتباهكم إلى أمرٍ ربما يُعتبر مِشْجَبَ أعذارٍ بالنسبة لكم، ألا وهو أننا -للأسف- لم نرَ لا في التكايا ولا في المدارس الشرعية ولا في الجوامع أيضًا أناسًا يؤدّون الصلاة حقّ الأداء، ويدعون بإخلاص، ويتوجهون إلى الحقِّ من صميم القلب، لم يكن لنا في هذا الشأن من يتقدموننا، ويفتحون آفاقنا، ويرشدوننا بحيث يُظهرون لنا وجه الحقيقة المضيء عبر تفريج الباب عن التضرّعِ والخشوعِ الحقّ، فَظلَّ كلُّ واحد منّا أميًّا حيث هو.

ولكنه رغمَ كلِّ ما سبقَ فلا تَسْتَثْقِلُوا تحقيقَ الإيمان الحقيقي، ولا تَحسَبُوه مستحيلَ المنال، يا حبّذا لو أنكم تغتَمُّون فتتوجَّهون إليه في قلقٍ واضطراب؛ حينها تَشْهدون ما في تقديرِ الله من جمال، وتشاهدون أيّةَ أبوابٍ من المفاجآت السارة يفتحها لكم.

إن كان الأمر كذلك فَهَلُمَّ بنا نُحْيِ الليل فنؤدّي صلاة الحاجة لينقشع ما بداخلنا من غشاوات، وتُحَقِّقَ العبوديّةُ في أنفسنا انشراحًا فنتعمق في الإيمان؛ ثم نبتهلَ إلى الله قائلين: "اللهم أسألك أن تبلِّغني هذه الليلة مرتبة الإحسان، لا أسألك شيئًا سواها؛ لا كرامةً، ولا إكرامًا، ولا هذا ولا ذاك، كُلّي طلَبٌ ورجاءٌ أن أوثِّقَ صِلَتِي بك، وأن أحيا مُشبعًا بمعرفتك، فلا غايةَ لي مِن دُعائي إلَّاكَ، فَأَعْمِ عيني عما سواكَ"، ولنتنَبهْ حين نطلب هذا إلى أن تحمِلَ كلُّ كلمةٍ نتفوّه بها سمةَ هذا الشعور وصفتَه، ولنُلِحَّ في طلب هذا من الله تعالى كلَّ ليلةٍ، فلنُحاول أن ننهضَ ليلةً أو ليلتين أو أكثر، ولنتضرع إلى الله تعالى بلهفة وحُرقة، وإنني هنا لا أريد أن أسأل: "هل بينكم من قام الليلَ أسبوعًا كاملًا في عمره يطلب من الله المعرفة والمحبة والعشق والاشتياق، ويصلي صلاة الحاجة ثم يرجو مثل هذا الرجاء؟" لا أريد أن أسأل هذا بأسلوبٍ يوحي بأنني أتّهمُكم، لأنني على قناعة بأنَّ عددَ من سيجيبون عن سؤالٍ كهذا بالإيجاب لن يكون كثيرًا جدًّا، وهذا أيضًا يُظهِرُ مدى اهتمامنا بهذه المسألة، فينبغي ألا ننسى أنّ "مَنْ طلبَ وجدَّ وَجَدَ".

أحيانًا أنظر عن كَثَبٍ إلى أحوال الطائفين بالكعبة والواقفين على صعيد عرفات والمنتشرين في مرابع المزدلفة ومِنى من أجل الحج، وأبحث عن هذا الشعور فيهم، وأتفحّصهم؛ أيوجد بينهم من يضرع إلى الله تعالى بلهفةٍ وحُرْقَةٍ، ومن يجيش ويرغي ويزبدُ أم لا؟! فلو رَفَعَ ألفُ إنسان ممن هناك أكفَّ الضراعة بصدقٍ وإخلاص وعَلَت الأدعيةُ والرجاءاتُ الساميةُ إلى الحقّ من الأفواه بقدر ذلك الإخلاص؛ فإنه حاشا لله أن يردّ دعاء اكتسبَ الكُليّة والجماعية كهذا، بل إن اعتقادي في هذا الموضوع هو أنَّه: لو رفع الثلاثة ملايين مسلم الموجودون في هذا الموقف أكُفَّهم ودعوا: "اللهم

غيِّـر هـذه الأرضَ!" لَتبدَّلَـتْ الأرض التـي تحت أقدامهم فـي الحال غيْرَ الأرض ولصارت عالمًا مختلفًا، ولكن هيهات هيهات! فالعالم الإسلامي لم يعش مثل ما يعيشـه اليوم من تشـرذمٍ وتمزّقٍ وتشـتُّتٍ منذ فجرِه وحتى اليـوم، وهـذا يعنـي أنَّ الناس لا يسـتطيعون الإحسـاس بما حـلّ بهم من ذلّـةٍ وبمـا فُجِعوا به من مصائـب رغم ضخامتها، ولو أنهم أحسّـوا بذلك لاجتهدوا ولو بالدعاء على الأقل من أجل الخلاص من هذا الوضـع الذي هم فيه، وكما أن الناس لا يشـعرون بهذه المحنة فإنهم لا يشـعرون بقلقٍ من ضربات موجات الكفر المحيطة بهم، ولذا فإنهم لا يشعرون بالحاجة إلى دعاء كلّيٍ جماعيٍ.

وختامًا أقول: إنَّه ما لم يتحقّق الوصول سريعًا إلى أفق قلقٍ واضطرابٍ علـى هـذا النحو المنشـود وجـب على الإنسـان أن يُجبِرَ نفسـه، ويجتهد ويسـعى اجتهادًا وسـعيًا حقيقيًّا في هذا السبيل، أما دعاؤه رافعًا يديه على نحـو: "إن شـئتَ أعطِنـا وإلا فلا"، فهذا دلالة على الوقاحة وسـوء الأدب مـع الله، في حين أنَّ الإنسـان ينبغي له إذْ يدعو أن يكون كالشـحاذ؛ فيقول بلسـان حاله ومقاله: "أرجوك يا الله، لقد وقفت ببابك، أتوسـل إليك، إنني أرجـو هذا! اللهم مُنّ عليّ والطُف بي، اللهم أَمِتني، ولكن تقبّل دعائي!". أجل، على المؤمن أن يطمحَ إلى القِمَمِ الساميات، وأن يتطلّعَ إليها دائمًا وأبدًا، وأن يُعَبِّرَ بإخلاصٍ عن رغباته هذه، عسى أن يُدرِكه لطف الله فَيَمُنَّ عليه بالإجابة؛ ذلك أنَّ الإنسـان يحظى برعاية الله بقدر توجّهه إليه تعالى، وبمراقبةِ اللهِ له بقدر مراقبَتِهِ إيّاهُ تعالى.

المعنى الحقيقي للمسكنة

سؤال: كان رسول الله ﷺ يقول في دعائه: "*اللَّهُمَّ أَحْيِنِي مِسْكِينًا، وَأَمِتْنِي مِسْكِينًا، وَاحْشُرْنِي فِي زُمْرَةِ الْمَسَاكِينِ*"(٣٨)، فكيف نفهم هذا الدعاء النبويّ؟ وما الدروس المستفادة منه؟

الجواب: المسكين كلمةٌ مشتقّةٌ من الجذرِ "سَكَنَ"، وتعني لغةً: الإنسان الذي استسلم للراحة والخمول، وتوقّفت حركتُه، فلم يعدْ يكسب أو ينتج، وشرعًا: ذاك الذي لا مالَ له، يفترش الأرض ويلتحف السماء؛ ومن ثمّ فالمسكينُ من الناحية المادّيّة أسوأُ حالًا من الفقير؛ لأن الفقير هو الذي لا يملك من المال ما يبلغ نصابَ الزكاة (المقدر بحوالي ثمانين غرامًا من الذهب)، بمعنى أن لديه من المال قدرًا قليلًا، أما المسكين فهو لا يملك حتى هذا القدر القليل، وعلى ذلك فالمسكين هو الذي يقبل الزكاة والصدقة، ولا دخلَ له سوى المعونات من الآخرين.

---

(٣٨) **سنن الترمذي**، الزهد، ٣٧؛ **سنن ابن ماجه**، الزهد، ٧.

المسكنة المذمومة الواجبُ اجتنابها

لـم يكن النبـي ﷺ يرضى أبدًا بالركود والخمـول، وإهمال العمل، أو أن يكـون عالـةً علـى أحد، وكيف لا وهو الذي شـنّ حربًا ضروسًـا على التسـوّل، وذمّـه في أحاديث كثيرة، وحـذّر أمته منه!؟ فعَنْ أَنَـسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه، أَنَّ رَجُلًا مِنَ الْأَنْصَارِ أَتَى النَّبِيَّ ﷺ يَسْأَلُهُ، فَقَالَ: "**أَمَا فِي بَيْتِكَ شَيءٌ؟**" قَالَ: بَلَى، حِلْسٌ نَلْبَسُ بَعْضَهُ وَنَبْسُـطُ بَعْضَهُ، وَقَعْبٌ نَشْـرَبُ فِيهِ مِنَ الْمَاءِ، قَـالَ: "**ائْتِنِـي بِهِمَا**"، قَالَ: فَأَتَـاهُ بِهِمَا، فَأَخَذَهُمَا رَسُـولُ اللهِ ﷺ بِيَدِهِ، وَقَالَ: "**مَنْ يَشْـتَرِي هَذَينِ؟**" قَالَ رَجُلٌ: أَنَا، آخُذُهُمَا بِدِرْهَمٍ، قَالَ: "**مَنْ يَزِيدُ عَلَى دِرْهَـمٍ**" مرّتيـن أو ثلاثًا، قَالَ رَجُـلٌ: أَنَا آخُذُهُمَا بِدِرْهَمَيـنِ فَأَعْطَاهُمَا إِيَّاهُ، وَأَخَذَ الدِّرْهَمَينِ وَأَعْطَاهُمَا الْأَنْصَارِيَّ، وَقَالَ: "**اشْتَرِ بِأَحَدِهِمَا طَعَامًا فَانْبِذْهُ إِلَى أَهْلِكَ، وَاشْـتَرِ بِالْآخَرِ قَدُومًا فَأْتِنِي بِهِ**"، فَأَتَاهُ بِهِ، فَشَـدَّ فِيهِ رَسُـولُ اللهِ ﷺ عُودًا بِيَدِهِ، ثُمَّ قَالَ لَهُ: "**اذْهَبْ فَاحْتَطِبْ وَبِعْ، وَلَا أَرَيَنَّكَ خَمْسَـةَ عَشَـرَ يَومًـا**"، فَذَهَـبَ الرَّجُـلُ يَحْتَطِبُ وَيَبِيعُ، فَجَـاءَ وَقَدْ أَصَابَ عَشْـرَةَ دَرَاهِمَ، فَاشْـتَرَى بِبَعْضِهَا ثَوبًا، وَبِبَعْضِهَا طَعَامًا، فَقَالَ رَسُـولُ اللهِ ﷺ: "**هَذَا خَيرٌ لَكَ مِنْ أَنْ تَجِيءَ الْمَسْأَلَةُ نُكْتَةً فِي وَجْهِكَ يومَ الْقِيَامَةِ، إِنَّ الْمَسْأَلَةَ لَا تَصْلُحُ إِلَّا لِثَلَاثَةٍ: لِذِي فَقْرٍ مُدْقِعٍ، أَو لِذِي غُرْمٍ مُفْظِعٍ، أَو لِذِي دَمٍ مُوجِعٍ**"(٣٩).

وفي هذا الصدد يقول النبي الأكرم ﷺ أيضًا: "**اَلْيَدُ الْعُلْيَا خَيْرٌ مِنَ الْيَدِ السُّفْلَى**"(٤٠).

وهنا اسـتخدم ﷺ أسـلوب الكناية، مشيرًا إلى أن اليد التي تعطي خير من اليد التي تأخذ، وكأنه يقول محفّزًا المؤمنين على أن تكون أيديهم هي العليا:

(٣٩) **سنن أبي داود**، الزكاة، ٢٦؛ **سنن ابن ماجه**، التجارات، ٢٥.

(٤٠) **صحيح البخاري**، الزكاة، ١٨؛ **صحيح مسلم**، الزكاة، ٩٤، ٩٧.

"لا تقلّلوا من كرامتكم وعزّتكم الإنسانية بالتزلُّف والتودُّد إلى الآخرين، وما دمتم تمتلكون يدًا تعمل ورِجلًا تمشي فاعملوا على تأمين معيشتكم بأنفسكم، ولا تكونوا عالةً على أحد"، ومع هذا فقد أجاز الإسلام التسوّل عند الضرورة، ويزولُ الجوازُ بزوالِ الضرورة؛ مثل الجوع والعطش، فيجوز التكفّفُ بالقدرِ الذي يدفع عن الإنسانِ الضررَ والهلاك، وما سوى ذلك فلا، كما أن القرآن الكريم أباح أكلَ لحم الخنزير لِمَنْ وقع في خطر محقّق، ولكن بالقدر الذي يحفظ به حياته ليس إلّا، قال تعالى: ﴿**إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللّٰهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللّٰهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ**﴾ (سورة البَقَرَة: ١٧٣/٢)، فانتفى الإثمُ عن المضطرّ على قدرِ ضرورته فقط.

وقد استوعب السلف رحمهم الله هذا السرّ الوارد في الحديث الشريف، فأوصوا بصيانة كرامة الفقير، بأن يجعل المعطي يده أسفلَ يدِ الفقير عند إعطائه الصدقة أو الزكاة، ولقد لعبت "أحجار الصدقة" التي ظهرت في عهد الدولة العثمانية دورًا مهمًّا في الحفاظ على عزّةِ وكرامة الفقراء؛ حيث كان الأغنياء يضعون صدقاتهم في هذه الأحجار، ثم يأتي الفقير ويأخذ قدرَ احتياجِه منها فقط؛ مما يُدلّل على نقاءِ السريرة وصفاءِ القلب، وشعورِ التعاون والتضامن بين أفراد المجتمع العثمانيّ آنذاك، بل يمكن أن يقال إن ذلك المجتمعَ كان يشبه الملائكة في السماء، فها نحن الآن رغم وجود كمٍّ هائلٍ من رجال الشرطة والأمن فإننا لم نلمس -مع الأسف- مثل هذا الجوّ من الأمان الذي كان متوفّرًا في تلك الأيام؛ حيث لم يعد هناك رادعٌ قلبيّ، ولم تعد الآخرةُ محورَ اهتمام الناس، كما أن الشعور بالمحاسبة قد قُتل في نفوس الناس، والحقُّ أنّ الذي مات هو قلبُ الإنسان وضميرُه.

المسكنة الممدوحة، ورغبة الرسول في أن يكون عبدًا رسولا

في ضوء ما سبق يتبيّن لنا أن سيدنا رسول الله ﷺ لم يسأل الله تعالى المسكنةَ التي تعني سؤال الناس ومدَّ اليد إليهم، وإنما المقصود بالمسكنة هنا هو العيش المتواضع، أو الشعور بالعجز والفقر إلى الله، ولقد عرّف الأستاذ النورسي رحمه الله ذلك الفقر الذي جعله أساسًا لدعوته بأنه إدراك الإنسان أنه لا يملك شيئًا في الحقيقة، والشعور بالحاجة إلى الله تعالى، وصاحب هذا الشعور العظيم يلوذ إلى حماية الله تعالى وحفظه وكلاءته قائلًا: "**يَا حَيُّ يَا قَيُّومُ بِرَحْمَتِكَ أَسْتَغِيثُ أَصْلِحْ لِي شَأْنِي كُلَّهُ، وَلَا تَكِلْنِي إِلَى نَفْسِي طَرْفَةَ عَينٍ**"(٤١).

لقد كان سيد الأنبياء صلوات ربي وسلامه عليه يرجو أن يحيا بهذه المشاعر، ويرحل بها إلى أفق روحه، وأن يُحشر مع هؤلاء المساكين الذين يلجؤون إلى الله دائمًا، ويحلّقون في الآخرة بجناحي العجز والفقر، وبعبارةٍ أخرى: إن النبي ﷺ سيكون مرشدًا ورائدًا لأصحاب هذا الشعور في الآخرة أيضًا؛ لأنه عاش طوال حياته كواحدٍ من الناس، ولم يتخلَّ قطُّ عن مَحْوِهِ وتواضعه، فعن أمّنا عائشة رضي الله عنها أنها قالت: "كَانَ يَأْتِي عَلَينَا الشَّهْرُ مَا نُوقِدُ فِيهِ نَارًا، إِنَّمَا هُوَ التَّمْرُ وَالمَاءُ، إِلَّا أَنْ نُؤْتَى بِاللُّحَيمِ"(٤٢)، ومن يدري ربما النبي ﷺ كانت تساوره -في وقتٍ ما- بعضُ الأفكار حول مسؤوليّته تجاه أهله.

لقد جَلَسَ جِبْرِيلُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، ونَظَرَ إِلَى السَّمَاءِ، فَإِذَا مَلَكٌ يَنْزِلُ، فَقَالَ لَهُ جِبْرِيلُ: هَذَا الْمَلَكُ مَا نَزَلَ مُنْذُ خُلِقَ قَبْلَ السَّاعَةِ، فَلَمَّا نَزَلَ قَالَ:

(٤١) النسائي: **السنن الكبرى**، ٢١٢/٩؛ الحاكم: **المستدرك**، ٧٣٠/١؛ البيهقي: **شعب الإيمان**، ٢١٢/٢.
(٤٢) **صحيح البخاري**، الهبة، ١، الرقاق، ١٧؛ **صحيح مسلم**، الزهد، ٢٦-٢٨.

يَـا مُحَمَّدُ أَرْسَـلَنِي إِلَيكَ رَبُّـكَ أَمَلكًا جَعَلَكَ لَهُمْ أَمْ عَبْدًا رَسُـولًا؟ فَقَالَ لَهُ جِبْرِيلُ: تَوَاضَـعْ لِرَبِّكَ يَا مُحَمَّدُ، فَقَالَ ﷺ: "**لَا بَلْ عَبْدًا رَسُولا**"(٤٣).

لقد عاش النبي ﷺ فقيرًا، وعندما رحل إلى أفق روحه لم يخلّف مالًا يُحاسـب عليـه في الآخرة؛ فقـد أعطى نعم الله حقها، وأنفـق كل ماله في سـبيل الحقّ ﷻ، فسـار إلى الديوان المقدس أبيـضَ الوجه ناصعَ الجبين طاهرًا نقيًّا.

صرحُ العفة وأبطالُها

ومـع هـذا لم يركن النبي ﷺ للدعة والخمول، ولم يَشْـكُ لغيرِ خالقِه مـا تعـرّض له من أزمات، ولـم يكن عالةً على غيره، وما اسـتعطى أحدًا، ولـم يكـن يقبل الصدقة والزكاة أبدًا؛ حتى إنه قد حرّم الصدقة على نفسِـه وآلِ بيته(٤٤)، وإذا ما جاءته هديّة وزعها على الآخرين(٤٥)، حتى إنه قبل أن يرتحل إلى أفق روحه اشترى طعامًا بأجلٍ من يهوديّ؛ حتى يفي بحاجيّات أهلـه، ورهـن درعه المبارك عوضًـا عنه، فعَنْ عَائِشَـةَ رضي الله عنها، قَالَـتْ: "تُوُفِّيَ رَسُـولُ اللهِ ﷺ وَدِرْعُـهُ مَرْهُونَةٌ عِنْـدَ يَهُودِيٍّ، بِثَلَاثِينَ صَاعًا مِنْ شَـعِيرٍ"(٤٦)، ومـن المحتمـل أن الصحابـة رضي الله عنهم لـم يكن لديهـم علم بذلك، فلـو علموا لفعلوا ما استوجبه هذا الأمر.

كان النبـي ﷺ أجـودَ من الريح المرسـلة، يُعطي عطاءَ من لا يخشـى الفقـر، أنفـق كلّ مالِهِ في سـبيل الله، وعـاش -بمحضِ إرادتـه- حياةً أقلّ مـن درجـة أيّ فقيـر من أمّته، ومـع ذلـك لم يمدّ يده إلى أحدٍ مسـتجديًا، بل لم يقم بأي إشـارةٍ تدلّ على ذلك؛ إذ كانت المسـكنة التي ينشدها هي

(٤٣) أبو يعلى: **المسند**، ٤٩١/١٠؛ **مسند الإمام أحمد**، ٧٧/١٢؛ **صحيح ابن حبّان**، ٢٨٠/١٤.
(٤٤) **صحيح البخاري**، الزكاة، ٦٠، الجهاد، ١٨٨؛ **صحيح مسلم**، الزكاة، ١٦١.
(٤٥) **صحيح البخاري**، الزكاة، ٥٠، الرقاق، ٢٠؛ **صحيح مسلم**، الزكاة، ١٢٤، الفضائل، ٥٠.
(٤٦) **صحيح البخاري**، الجهاد، ٨٩؛ **سنن الترمذي**، البيوع، ٧؛ **سنن ابن ماجه**، الرهون، ١.

تفضيل الحياة البسيطة العادية مع إظهار مزيدٍ من الكرم والمروءة، ولأنّه صلوات ربي وسلامه عليه صرحُ العِفّةِ الشامخ لم يكن يتشوّف لأيِّ شيءٍ من الآخرين.

وكما أنَّه ﷺ كان رمزًا فريدًا في العفّة؛ فقد عاش ساداتُنا الصحابةُ الكرام الذين اقتفوا أثَرَه خطوةً بخطوة حيواتهم أبطالًا للعفّة، ولقد بجَّلَ القرآن الكريم وامتدح أبطالَ الإسلام الأُوَلِ الذين لم يتكفّفوا الناس ولم يسألوهم شيئًا، ولم ينظروا إلى ما في أيدي غيرهم ولم يُسلِموا أنفسهم للتسول رغم ما عانَوه من خصاصةٍ وحاجةٍ وشظفٍ في العيش فقال: ﴿**يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا**﴾ (سورة البَقَرَة: ٢/٢٧٣).

أجل، إننا حينما ننظر إلى حياة الصحابة الكرام نجدهم قد استنكفوا بحساسية مرهفة وحقيقية عن شتى صور الاستعطاء والتكفّف، وسدُّوا احتياجاتهم ودبروا أمورَ معيشتهم من كدِّ أيمانهم وعَرَقِ جباههِمْ، فمثلًا عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه أحدُ العشرة المبشرين بالجنَّة اضطرّ إلى تركِ كُلِّ ثروته في مكة مهاجرًا إلى المدينة، إلا أنّه ما إنْ وَصَلَ إلى المدينة حتى سأل عن السوق وبدأ العمل، ولم يقبل معونةً من أحد، وهو القائل: لَمَّا قَدِمْنَا المَدِينَةَ آخَى رَسُولُ اللهِ ﷺ بَينِي وَبَينَ سَعْدِ بْنِ الرَّبِيعِ، فَقَالَ سَعْدُ بْنُ الرَّبِيعِ: إِنِّي أَكْثَرُ الأَنْصَارِ مَالًا، فَأَقْسِمُ لَكَ نِصْفَ مَالِي، وَانْظُرْ أَيَّ زَوجَتَيَّ هَوِيتَ نَزَلْتُ لَكَ عَنْهَا، فَإِذَا حَلَّتْ تَزَوَّجْتَهَا، فَقَالَ لَهُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ: لَا حَاجَةَ لِي فِي ذَلِكَ، هَلْ مِنْ سُوقٍ فِيهِ تِجَارَةٌ؟ قَالَ: سُوقُ قَينُقَاعٍ، فَغَدَا إِلَيهِ عَبْدُ الرَّحْمَنِ، فَأَتَى بِأَقِطٍ وَسَمْنٍ، ثُمَّ تَابَعَ الغُدُوَّ... [٤٧]، لكنه ما لبث

(٤٧) **صحيح البخاري**، مناقب الأنصار، ٣.

أن أصبح -بعون الله وعنايته- من أثرى أثرياء المدينة فعَنْ أَنَسٍ ﵁ قَالَ: بَينَمَا عَائِشَةُ فِي بَيتِهَا إِذْ سَمِعَتْ صَوتًا فِي الْمَدِينَةِ، فَقَالَتْ: مَا هَذَا؟ قَالُوا: عِيرٌ لِعَبْدِ الرَّحْمنِ بْنِ عَوفٍ قَدِمَتْ مِنَ الشَّامِ تَحْمِلُ مِنْ كُلِّ شَيءٍ -وكَانَتْ سَبْعَمِائَةِ بَعِيرٍ- فَارْتَجَّتِ الْمَدِينَةُ مِنَ الصَّوْتِ، فَقَالَتْ عَائِشَةُ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ، يَقُولُ: "**قَدْ رَأَيتُ عَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنَ عَوفٍ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ حَبْوًا**"، فَبَلَغَ ذَلِكَ عَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنَ عَوفٍ، فَقَالَ: إِنْ اسْتَطَعْتُ لَأَدْخُلَنَّهَا قَائِمًا، فَجَعَلَهَا بِأَقْتَابِهَا، وَأَحْمَالِهَا فِي سَبِيلِ اللهِ ﷻ[٤٨]. أجل، إنَّ ساداتنا الصحابة الكرام الذين خبروا شَينَ سلوك التسوّل بحثوا عن سبل الكسب والعيش الحلال دائمًا مما تكسبه أيديهم رغم ما كابدوه من حاجةٍ وفقرٍ حقيقيّين، ومن ثمَّ فإنَّني أرى أنَّه لا يليق بمن يُنفقون أوقاتهم ويخدمون في سبيل الله تعالى أنْ يتشوّفوا للحصول على منحة أو عطية من الآخرين، فالأفضلُ دائمًا الأكلُ من عرق الجبين ولو حتى بالعمل في قطع الأحجار، أو تنظيف المباني والعمائر، غير أنّ ثمة بعض المواضع والخدمات التي يشتغل بها الإنسان لا تسمح له أن يمارس عملًا آخر غيرها، وفي مثل هذه الظروف فحسب قد يُرخَّصُ لهذا الإنسان باستعمال قدرٍ مما يمنح له بحيث يستطيع توفير احتياجاته الضرورية فحسب.

وإنني شخصيًّا أشعُرُ دائمًا بضرورة التفتيش في حياتي عن هذا الشأن وتَحَرّيه، فمثًلا عملتُ بالإمامة مدّة ثلاثِ سنوات قبل الْتِحاقي بالجيش لأداء الخدمة العسكرية، والحقيقة أنني كنت أستطيع أن أُشبع نفسي بوجبةٍ واحدةٍ فحسب يوميًّا من راتبي الذي كنت أنفق معظمه على الكتب والخدمات، فلَمَّا عُرِضت عليّ وظيفة العمل بالوعظ شعرت بحاجةٍ إلى أن أستفتي أحدًا: هل يجوز القيام بوظيفة الأمر بالمعروف والنهي

(٤٨) **مسند الإمام أحمد**، ٣٣٧/٤١.

عن المنكر بمقابل ماديٍّ؟ فسألت أحدَ أقربِ طلاب الأستاذ بديع الزمان عن هذه المسألة، فنَقَلَ إليَّ أن السؤالَ نفسَه طُرِحَ على الأستاذ بديع الزمان وأنّه أجاب عنه بقوله: "إنْ لم يسمحوا لك بالوعظ والإرشاد حين لا يوظفونك في هذا المجال فاقبل هذه الوظيفة، وإن لم تكن لديك حاجة إلى هذه الأموال فادفعها إلى من يحتاجها، غير أنَّكَ إنْ كنت محتاجًا فخُذْ من راتبها بقدر حاجتك فحسب"، وعليه فقد انتسبتُ أنا كذلك لمهمة الوعظ؛ فأخذتُ من الراتب الذي خُصِّص لي من الوعظ بقدرِ ما يسُدُّ احتياجاتي الضرورية، وتركتُ الباقي منه لذوي الحاجة طلبًا لرضا الله تعالى، فلما أصبح هناك أجرٌ يأتي من تأليف الكتب لم تمسّ يدي هذا الراتب، وطلبت أن يُمنح للمحتاجين.

ورجال الخدمة في يومنا هذا أيضًا ينبغي لهم ألا يسألوا الآخرين شيئًا، بل إنّه ليجب على الآخرين أن يُهرولوا وراءهم من أجل توفير احتياجاتهم الضرورية، قائلين: "ثمة حاجة وضرورة لهذا كي تخدموا وتنتجوا في مجالاتٍ أخرى فتنفعوا المجتمع أكثر"، وفي مثل هذه الأحوال فقد تقبلون كارهين لا راغبين ما يخصّصونه من مبلغٍ بسيط، أما خلاف ذلك من أن يربط الإنسانُ حياتَه بما يأتي من الآخرين فإن هذا يدخل -في رأيي- في إطار المسكنة والذلة التي عابَهَا وذمَّها القرآن الكريم والسنة المطهرة.

الإنسان ليس مخلوقًا رخيصًا يُشترى ويُباع بالمال

يجب أنْ تكون القلوب المؤمنة في عصرنا الحالي أكثر حساسية في هذا الموضوع، وتهتمّ وتنتبه لأن تعيش طيلة حياتها شريفةً عزيزةً، وعليها ألا تتشوَّفَ إلى أيِّ شيءٍ في أيدي الآخرين مهما كان بسيطًا،

وألا تضطرّ لدفع بدل ومقابل لأيِّ إنسانٍ. أجل، ينبغي لهم باعتبارهم أبطال العفة ألّا يتذلّلوا لأحدٍ ولا يَهِنوا، وإلّا فإنَّ شِبَاكَ المنفعة والمصلحة المتعددة تُخضعُ إليها هؤلاء الساعين في سبيل الدين وتستَعبِدُهم، ثم يأتي يوم تجبرهم فيه على التنازل عن شيءٍ من دينهم والعياذُ بالله.

ومن المؤسف جدًّا أننا نرى كثيرًا من الأمثلة المؤلمة لهذا في عصرنا. أجل، نرى ونحن نتقطع ألمًا ومرارةً أن البعضَ يتمّ شراؤهم ثم استغلالهم بمختلف الطرق وشتى الوسائل، في حين أن الإنسان ليس مخلوقًا يُشترى ويُباع بالمال، ولا ينبغي أن يكون كذلك، فقيمته وثمنه هو نيل الجنة، وذروته الفوز برضا الله والنظر إلى جماله، وما عدا ذلك فلا قيمةَ له. أجل، حتى وإن قُدّر أن يكون فتح إسطنبول بدًلا ومقابلًا للإنسان فيستحيل أن يكون هذا أيضًا ثمنًا يبيع الإنسان به نفسه، أي إنّه حتى وإن كانت إسطنبول ستُفتحُ إذا بيع الإنسان فعليه ألّا يرضى بهذا أيضًا، لأن عزة الإنسان وشرفه أسمى وأعلى بكثيرٍ من هذا كلِّه.

وإن لم نعترف أنّ البعضَ ممن في هذه الدائرة القدسية قد وصل إلى صفاء الروح بهذا القدر لكان هذا جحدًا ونكرانًا للحقيقة، غير أنه يجب علينا أن نسعى من أجلِ إيصال الجميع إلى هذه الحالة الروحية، ونُبَيّنَ للناس قيمة الكسب من عمل اليد، وحماية السمعة، وقيمة العيش في عزّةٍ وكرامة؛ لأن اختيار سيدنا رسول الله ﷺ أن يكون عبدًا رسولًا يُظهرُ أنّه يُمكنُ دائمًا تمثيلُ منهج الخدمة -التي تعتبر امتدادًا لمنهج ومهمة الرسالة- وأداؤه بنفس الحالة الروحية.

لقد رأيت في الفترة التالية عقب رحيل فضيلة الأستاذ بديع الزمان إلى دار البقاء معظمَ الطلاب الذين كانوا يُجالسونه، وقد كان في عموم

تركيا آنذاك بضعةُ بيوتٍ للخدمةِ تسودها البساطة، ولا طعامَ فيها سوى الحساءِ اليتيمِ الخالي من الدسم، وكان يُكتفى بقطعة خبز وجُبنٍ إلى جوار كوب من الشاي إدامًا، غير أنهم كانوا يعيشون شوقًا ونشوةً حقيقيةً في خدمة الحقّ؛ فشبُّوا وانتشوا كالجَوَادِ عشقًا للخدمة، ومن ثَمَّ يمكن القول إنَّهم هم من اضطلعوا بالخدمة الأساسية، وهيّؤوا لكم الأرضية الحالية؛ فحرثوا الأرض، وبذروا الحبوب، ثم تعهدوها بالرعاية والعناية، فكان العملُ في موسم الحصاد من نصيبكم أنتم.

وقد يَثقُلُ على البعض العَيشُ في عفةٍ واستغناء بهذا القدر، إلا أن مهاجري الغاية المثالية الذين عشقوا فكرة علوية سامية يجب عليهم أن يسعوا ويجتهدوا دائمًا لبلوغ هذا الأفق.

وينبغي ألا ننسى أبدًا أنّ استمرارَ هذه الغاية السامية مرهونٌ ببقاء هذه الأخلاق والخصال الحميدة فحسب، لأنكم إن عشتم حياة مبهرجةً طنّانة اهتزت -لا قدر الله- ثقتهم بكم اهتزازًا يجعلهم يتخلّون عنكم، وحينها تتوقف -لا قدر الله- الأنشطة المنتشرة في بقعة جغرافيّةٍ مترامية الأطراف من العالم. أجل، إنّ مثل هذه الخدمات تُقدَّم للإنسانية جمعاء؛ ولو لم يكن هناك تضحياتٌ جمّة وغفيرةٌ من متطوّعين لا معدودين لما كان من الوارد استمرارُ هذه الأنشطة والفعاليات، وقد يسألُ البعضُ في يومنا الحاضر أسئلة تشكيكيّةً واتّهامية؛ إما غَيرَةً منه أو حَسدًا رغم علمه جيدًا حقيقة الأمر: "من أين يأتي ماء هذا الطاحون؟"، والمؤكد أنّ دواليبَ هذا الطاحون لا تدور بالماء أو بالرياح، بل بالمروءة والبسالة والتضحية التي أبداها إنسان الأناضول من قبلُ في حرب الاستقلال على نحو حيَّر العقولَ والأذهان؛ وعليه فينبغي النأيُ عن ارتكاب أيِّ خطإٍ -حتى ولو

كان صغيـرًا تافهًا- يشـتت أذهـان هؤلاء الداعمين الكرمـاء ويدفعهم إلى إسـاءة الظـن، فهـذا -إنْ حَدثَ- وبـالٌ لا قِبلَ لنا بتحمله، والله مُحاسـبٌ عليه.

لا شك أنَّ أيَّ رجلٍ من رجال الأعمال والتجار يخوض غمار الحياة التجارية سـيعمل ويربح، فليبارك الله تعالى لهم في تجارتهم، وعليهم أن يواصلوا العمل والربح، إلا أنّ الأرواح التي نذرت نفسها للحقّ المهاجرةَ إلى غايةٍ سـامية المضطرّةَ إلى أنْ تعيش حياةً بسـيطة بالنظر إلى وضعها، عليهـا أن تفضِّـل حياة زاهدة متواضعة حتى آخر أنفاسـها، وتسـتغني عن الدنيا وتهب أحاسيسـها ومشـاعرها وأذهانها وقلوبها بل وأنفسـها بشكل كاملٍ لخدمة الإيمان والقرآن الكريم.

التدين الحقيقي واكتساب الهوية السليمة

سؤال: ما الذي يجب على المؤمن أن يراعيه إذا ما تعرّض لمعاملةٍ فظّة أو كلمةٍ نابية، كيلا يصيب هويته أيّ تصدّعٍ أو انكسارٍ؟

الجواب: الهوية في اصطلاحنا تعني استمراريّة أداء الأعمال والعبادات الإسلاميّة وفقًا لشعور الإحسان؛ أي أنْ نعبد الله كأننا نراه، فإن لم نكن نراه فإنه يرانا، وأن يكون هذا الشعور بمرور الزمن جزءًا لا يتجزّأُ من طبيعتنا، وهذا ما يمكن أن نسميه بـ"الهوية الإسلامية"، فهويةُ المؤمن تعني إذًا أن يوثّق صلتَه بربه ﷻ، وأن يبدي كمال التقدير والتوقير لمفخرة الإنسانية سيدنا محمد ﷺ بما يليق بمنزلته ﷺ، وأن يؤدّي ما يقع على عاتقه من وظائف فردية أو أسرية أو اجتماعية على الوجه الأمثل، وأن يسعى جاهدًا لتكون حياتُه كلّها على هذا المنوال، إذًا فالهويّة عندنا هي انتماء إلى الإحسان.

التدريب بالنوافل

واكتساب مثل هذه الهوية مرهونٌ بما يُبْذَلُ من جهدٍ جهيدٍ وسعيٍ حثيث، غير أن المحافظةَ عليها طوال حياته أمرٌ جدّ عسير، وهذا يقتضي من المؤمن ألا ينزل عن صهوة جواده أبدًا، بل ينشدَ دائمًا مثل هذه

الصعاب، فها هو النبي ﷺ يذكرُ أن سورة "هود" قد شيبته، فيقول: "**شَيَّبَتْنِي هُـودٌ وَأَخَوَاتُهَـا**"(٤٩)، و"هـودٌ" هذه هـي التي تحتوي على قـول الله تعالى: ﴿**فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ**﴾ (سورة هُودٍ: ١١/١١٢).

ومـن ثـم فعلـى المؤمن الحقيقـيّ أن يتَّخذَ من الدنـوّ إلى ذلك الأفق الذي عاشَـه سـيّد السـادات صلوات ربي وسـلامه عليه -قدر استطاعته- غايةً عُليا وهدفًا منشـودًا، فلو درّب نفسَـه على أداء العبادات جاعِلًا هذه المسألةَ جزءًا لا يتجزَّأ من طبيعتِه؛ فسيخفِّف قدرًا ما من العبء الذي تنوء به إرادتُه، ويتمكّن من أداء باقي التكاليف بشكلٍ أكثر يسرًا وراحة.

وإنّ النوافـل لتـؤدي هـذه المهمّة، فمثـلًا قد يثقل علـى النفسِ صيامُ شـهرٍ متتابـع في أيام الصيف الطويلة الحارّة، ولكنَّ صاحب الشـريعة ﷺ -كمـا هـو معلوم لدى الجميـع- قد أوصانا بصيام ثلاثة أيام من كل شـهر ويومي الإثنين والخميس من كل أسـبوع(٥٠)، فمَنْ يتعوّد على صوم النافلة فـي الأيـام المعتدلة يسـهل عليه مقاومة الجوع والعطـش في أيام الصيف الطويلة الحارة، ويمكنه أن يؤدّي بعون الله فريضةَ الصوم بشكل أيسر.

ويسري هذا الأمر على الزكاة أيضًا، فقد فرض الإسلامُ الزكاةَ -بربـع العُشـر أو نصف العشـر أو العشـر أو الخُمس- في مال المسـلم حسـب نوعه، فلو لـم يمرِّن الإنسـانُ نفسَـه على إيتاء الصدقات تطوّعًا -وإن بقدرٍ يسـير- شـقَّ عليه أداء الزكاة التي افترضها الإسـلام، ولكن لو عوّد نفسَـه علـى التصـدّق -ولو بالقليل- رويدًا رويدًا إلـى أن يجعل هذا الأمر جزءًا من طبيعته، فلن يستصعِبَ دفـع الزكاة التي أمره بها ربُّه.

(٤٩) **سنن الترمذي**، تفسير القرآن، ٥٦؛ **مصنف عبد الرزاق**، ٣/٣٦٨.

(٥٠) انظر: **صحيح البخاري**، الصوم، ٥٦، أحاديث الأنبياء، ٣٧؛ **صحيح مسلم**، الصيام، ١٨١.

وعلى نفس المنوال إنْ تحيّن الفرد أداء صلاة النافلة في أيسر الأوقات وأنسبها بالنسبة له، وجعل أداءَها جزءًا من طبيعته فسيتيسر عليه فيما بعد أداء صلاة الصبح والفروض الأخرى في الأوقات التي تشقّ على النفس عادةً، كما سيتمكن من اجتياز المعوّقات التي اصطنعَتْها نفسُه وهواه، يقول رسول الله ﷺ في حديثه الشريف: "**إِنَّ اللهَ ﷻ جَعَلَ لِكُلِّ نَبِيٍّ شَهْوَةً، وَإِنَّ شَهْوَتِي فِي قِيَامِ هَذَا اللَّيْلِ**"(٥١).

فالنبي ﷺ يسلّط الضوءَ هنا على فكرة العبادة التي غدت جزءًا لا يتجزّأ من الطبيعة الإنسانية ولا تقبلُ الانفصام عنها، وكأنه ﷺ يريد أن يقول: "إنني أتلذّذ بعبادة ربّي كما يتلذّذ أحدُكم بقضاءِ شهواته".

وهكذا فعلى كلّ مسلمٍ أن يحثَّ الخطى جاهدًا ليبلغَ هذا الأفق، ومع العِلمِ أنه ليس بمقدورِ الجميعِ بلوغ هذه الذروة الشامخة، إلا أنّ سلوك هذا الطريق وتغيّي هذه الغاية هو بحدِّ ذاته لَمِنْ أعظم الفضائل والمزايا؛ إذ إن كلّ جهد مبذول في هذا السبيل ليُكتَبُ لصاحبه عبادةً، ويرتقي به درجةً.

ولكم أن تأخذوا بهذه الفكرة نفسِها في الأمور السلبية التي لا بدّ من تجنّبها وتحاشيها، فمثلًا إذا ما تعرض الإنسانُ للأمور المنكرة التي تخدعه بها نفسُه ويفتِنه بها هواه قد يصعب عليه حينئذٍ أن يؤدّي إرادته حقها، ولكن إن اتخذ الإنسانُ لنفسه منهجًا في الحياة، فأوصَدَ الأبوابَ أمام شتّى أنواع المحرمات صغيرِها وكبيرِها، وجعل ذلك بُعدًا من أبعاد طبيعته وفطرته فإنّ الله المتفضّلَ المعين سيُمكّنه من التغلّب على أيّ كارثةٍ تدهوه، حتى وإن تعرض للمنكرات التي تسحر العقول وتكدّر الأبصار، وسيَسْتَلُّهُ ممّا يحيقُ به دون أن يتلوّث أو يتلطّخ بالأرجاس.

(٥١) الطبراني: **المعجم الكبير**، ١٢/٨٤.

الاستقامة في الأفعال والتصرّفات

وكل ما ذكرناه يسري أيضًا على مسألة علاقة المؤمن بالآخرين. أجل، على المؤمن أن يتوخى أمور الدين في معاملته وعلاقاته مع الخالق أو المخلوق، وأن يجعل هذا الأمر جزءًا من طبيعته، ونقول بمزيد من التفصيل: لو لم يستطع الإنسان أن يجعل من الأخلاق الحميدة -كاحتضان الناس بحبٍّ بغضِّ النظر عن انتماءاتهم، وإغداقِ البشاشة عليهم، وإكرامهم والإحسان إليهم، وإغاثة الملهوف منهم- جزءًا من طبيعته فلربما يتصرّفُ عفويًّا بفظاظةٍ وغِلْظة إذا ما تعرّض يومًا لمعاملةٍ قبيحةٍ لم يكن يتوقّعها، وسيجدُ صعوبةً بالغةً في التقيُّدِ بأسلوبٍ إيمانيٍّ أثناء الردّ على ما لقيه من إهانة، وقد يقع في الخطإ والزلل؛ لأنه لم يعوّد نفسه على مواجهة الإهانات بمثل هذا الأسلوب، ومثل هذه الانحرافات في السلوك والتصرفات قد تخلّ بثقة الناس في ذلك الشخص واعتمادهم عليه، ومن ثم فإن كنا نرغب في جعلِ أنفسنا محلَّ ثقةٍ لمن حولنا فعلينا أن نجعل من العبادات وتجنُّبِ المحرمات وحسن المعاملة بعدًا من أبعاد طبيعتنا.

ورغم كل شيءٍ فقد تصيب هويّةَ الإنسان أحيانًا بعضُ التصدُّعات والانكسارات وفقًا لوقع الحادثة وشدّتها، وقد ينجمُ هذا الانكسار في الهوية أحيانًا عن غيرة الإنسان الدينية، وأحيانًا عن الافتراءات والإهانات التي يوجّهها البعض لذلك الإنسان والتي تفتقر إلى الإنصاف، وأحيانًا أخرى من إثارة نزعة هذا الإنسان وحساسيته، وإزاء هذا الموقف قد يتعكّر تلقائيًّا مزاج المؤمن، وقد تقع الكثير من المشاحنات والمنازعات، فتنكسر القلوب وتوغر الصدور، لكن علينا ألا ننسى أن القيام بردّ فعلٍ

لا يتّسق مع طبيعتنا سَيُخِلُّ بثقة الناس فينا، ومن ثمّ يجب على المؤمن الحقيقي ألا يتخلى عن هويته إزاء أي تجاوز أو إهانة منحطّة، وإن كان لا بدّ أن يردّ فليردّ بأسلوبٍ يليق بالمؤمن الذي يمثّل أنموذجًا للأدب والأخلاق.

أبطال الصبر أرباب الهوية

الحقيقة أنَّ المؤمنين سُمح لهم في القرآن الكريم بمقتضى قوله تعالى: ﴿**وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ**﴾ (سورة النَّحْلِ: ١٢٦/١٦) الردُّ بالمثل على ما يتعرضون له من اعتداءات، ورُخّص لهم في ذلك، ومع هذا فإنَّ الحق تعالى يُخاطِبُ أرباب الهويّة الرفيعة في ختام الآية قائلًا: ﴿**وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ**﴾ (سورة النَّحْلِ: ١٢٦/١٦).

ذلك لأن الإنسان الذي يُصاب في حياته -ولو مرة واحدة- بالتصدُّعِ في هويّته يكون قد هزَّ ثقةَ مخاطبيه فيه، كما يكون قد فتح البابَ لأخطاء لاحقة، ومَن تتشقّقُ هويّته على هذا الشكل يكون عُرضةً للخطإِ التلقائيّ والزلل العفوي، لذا فمن الواجبِ حمايتها دائمًا وأبدًا، وألا نسمحَ بانتهاكها أو تصدّعها مهما تنوّعت الظروف والأحوال.

فعلى الأرواح الناذرة نفسَها لخدمة الإيمان والقرآن والمتعلقة بها قلبيًّا أنْ تحافظ على آفاق الحبِّ والتسامح في كل مكان، وألا تُغيّر منهجها ولا اتجاهَهَا حتى في مواجهة أدنى وأحقر الاعتداءات التي قد تتعرّض لها؛ ويُشيرُ إلى هذا "يونس أمره" بقوله:

قَابِل الضاربَ بالصَّفحِ

والسَّابَّ بالعفوِ

فينبغي ألّا يكونَ الزاهدُ جَزِعًا!

وأنتم أيضًا يمكنكم أن تستخدموا العبارة نفسها ولكن تغيروا شطرها الأخير ليكون هكذا: "فينبغي أَلَّا يكونَ طَالِبُ القرآن جَزِعًا!". أجل، ينبغي لهم ألّا يكسروا قلبًا وإن كُسرت قلوبهم، وألّا يُؤْلِموا وإن أولِمُوا؛ لأن الذي يتألَّمُ ويتأذَّى باعتبار النتيجة هو القلبُ، والقلب -حتى وإن لم يكن كذلك في الحقيقة- هو عرش الرحمن باعتبار ما فيه من معانٍ كامنة، وبتعبير آخر: فإن القلب يُعتبر بذرة أو نواة تُنبتُ شجرةً، والحقيقة أنه قد لا تُكتشفُ هذه القيمة الرفيعة -التي تعتبر نواةً بالنسبة للبعض- ما لم تبذر في أرضٍ خصبة، وما لم يتوفّر لها المناخ الملائم، وما لم تتعانق مع أشعة الشمس، لذا أربأُ بكم عن التصرّف غير اللائق تجاه هذا المخلوق العظيم الذي خلقه الله كمثالٍ مصغّرٍ لعرش الرحمن.

ويتبادر إلى الذهن حول هذه النقطة مباشرةً تساؤلٌ: "حسنًا، هل يصمت المؤمن أمام الشرور والمساوئ، وكيف يتصدّى لها؟"، أولًا: من الواجب على المؤمن أن يعلم أنه إنما يتصدّى للتصرُّفات والسلوكيّات السيئة لعينها هي لا لِعينِ مرتكبيها، فلا بدّ أن يواجه الجهلَ والإلحادَ والنفاق والتمرّدَ مثلًا كي يزيلَ ما يقتلُ قيمةَ الإنسان المعنويّة من صفاتٍ وما يقهرُها من سماتٍ، وبتعبير آخر يجب على المؤمن أن يشعر في مواجهة ذوي الصفات السلبية بنفسِ القلق والاضطراب والحرصِ الذي يشعر به تجاه أولاده السائرين نحو جرف هارٍ، أو الذين ينزلقون نحو الهاوية، ويتَقطّعَ حزنًا وخوفًا عليهم، وعليه أن يسعى جاهدًا دون كلَلٍ أو مللٍ لإرشادهم إلى الطريق الصحيح بتوصياته وتحذيراته، ويصوّرُ لنا سيدنا رسول الله ﷺ هذا الوضع تصويرًا تمثيليًّا رائعًا فيقول: "**مَثَلِي وَمَثَلُكُمْ كَمَثَلِ رَجُلٍ أَوْقَدَ نَارًا، فَجَعَلَ الْجَنَادِبُ وَالْفَرَاشُ يَقَعْنَ فِيهَا، وَهُوَ يَذُبُّهُنَّ عَنْهَا، وَأَنَا آخِذٌ بِحُجَزِكُمْ عَنِ النَّارِ، وَأَنْتُمْ تَفَلَّتُونَ مِنْ يَدِي**"[٥٢].

(٥٢) صحيح البخاري، الأنبياء، ٤٠؛ صحيح مسلم، الفضائل، ١٧، ١٩.

أجـل، إنّ المؤمـن الحقيقـي رمزٌ للرحمة والشـفقة، والسـؤالُ يطرحُ نفسَـه بنفسِـه عليكم؛ هـل -باعتباركم ممّـن يمثّل الرحمة والشـفقة على وجـه البسـيطة- إذا رأيتم إنسـانًا يتّجه ويندفع هاويًا نحـو جهنم تقولون: "فلتذهب نفسـك إلى الجحيم! ما دمت تريـد الذهاب إليها، فعجّلْ إذًا؟"، أم أنكم تحاولون إثنَاءَهُ عن هذا الطريق السيئ الذي يسلكه فتفعلون مثلما فعل سـيدنا رسـول الله ﷺ، وتسْـعَون إلى إنقاذه من المناخ والبيئة التي هو فيها؟ إن الخَيَارَ الأوّل هو خيارُ مَن اسودّ ضميره وأظلمَ وجدانه، أما الثاني فإنـه صفة المؤمن الحق؛ لذا فالتصدّي للأوصاف السـيئة كما أنه غايةٌ في الأهمّيّة والنفعِ بالنسـبة للإنسـانيّة فهو كذلك في غاية الأهمّية لمن ينشـدُ رضوان الله تعالى.

نسـأل الله تعالـى أن يجعلنا جميعًا من أولئـك الملتزمين بالدين حقًّا، الذين تَشَـرّبوا الإسـلام في قلوبهم صدقًا، وجعلوه ديدنهم، واستمدوا منه هويّتهم، حتى في مواجهة أكثر الحوادث سلبية وسوءًا.

المخاطر الثلاثة

سؤال: ذكرتم فيما سبق أنّ مَنْ يسعون في خدمة الإنسانية على موعدٍ مع ثلاثة مخاطر: إثارة مشاعر الغبطة لدى إخوانهم الذين يُشاركونهم الدربَ نفسَه، وإيقاظُ الكره والحقد لدى المؤمنين الآخرين بسبب الأنانيّة الجماعية، وتحريك مشاعر العداء لدى الخصوم بالتباهي بالأعمال التي تعِد بمستقبل مشرق، فما الأمور التي لا بدّ من مراعاتِها حتى نأمن هذه المخاطر الثلاثة؟

الجواب: رغم أن الغبطة مباحةٌ شرعًا ولا بأس بها إلا أنّ هذا ليس على إطلاقه، بل هو منوطٌ بأسُسٍ ومعاييرَ معيّنة؛ فمثلًا: قد يرى شخصٌ في أخيه مزيةً جميلةً فيغبطه عليها، ويتمنى أن يحظى بالمزيّة نفسها، فلا حرجَ في ذلك بدايةً، لكنّه ومع مرور الوقت ربما ينتقد ذلك الشخصُ القَدَرَ بشكلٍ ضمنيٍّ فيقول في نفسه: "لماذا لا أكون أنا أيضًا محظيًّا بهذه المزيّة"، وما تفتأ مشاعر الغيرة والحسد حتى تتيقّظ لديه تجاه مَن يغبطه، فإن وقع ذلك فهذا يعني خروجَ الغابط من دائرة المباح، وحوَمانَه حول دائرة الشبهات والمحذورات، وكما أن هذه النوعية من الغبطة محذورة

فكذلك القيام بتصرفاتٍ تحرّك مشاعر الغبطة لدى الآخرين محذورٌ أيضًا، فقد أوصانا رسول الله ﷺ باتقاء الشبهات في حديثه الشريف الذي يقول فيه: "**الحَلَالُ بَيِّنٌ، وَالحَرَامُ بَيِّنٌ، وَبَيْنَهُمَا مُشَبَّهَاتٌ لَا يَعْلَمُهَا كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ، فَمَنِ اتَّقَى المُشَبَّهَاتِ اسْتَبْرَأَ لِدِينِهِ وَعِرْضِهِ، وَمَنْ وَقَعَ فِي الشُّبُهَاتِ: كَرَاعٍ يَرْعَى حَوْلَ الحِمَى، يُوشِكُ أَنْ يُوَاقِعَهُ، أَلَا وَإِنَّ لِكُلِّ مَلِكٍ حِمًى، أَلَا إِنَّ حِمَى اللهِ فِي أَرْضِهِ مَحَارِمُهُ**"(٥٣).

وهكذا فإن شعور الغبطة الذي من شأنه أن يتحوّل إلى حسدٍ؛ مَثَلُه كَمَثَلِ الوقوف على خطٍّ بين الحلال والحرام، فإذا ما انحرف الإنسانُ قليلًا هَوَى في دائرة الحسد والغيرة؛ ولذا كان هذا النوعُ من الغبطة وما يثيرها من تصرّفات وسلوكيات من الأمور التي يجب على الإنسان أن يتوقّاها، ولقد نبّهنا الأستاذ النورسي رحمه الله إلى هذا الأمر وحذَّرَنا في رسالته "الإخلاص" فقال: "لا تنتقدوا إخوانكم العاملين في هذه الخدمة القرآنيّة، ولا تُثيروا نوازع الغبطةِ بالتفاخر والاستعلاء، لأنه كما لا غبطةَ في جسمِ الإنسان بين اليدين، ولا انتقادَ بين العينين، ولا يعترِضُ اللسان على الأذن، ولا يرى القلبُ عيبَ الروحِ، بل يكمّل كلٌّ منهم نقصَ الآخر ويستر تقصيره ويسعى لحاجته... فكذلك نحنُ جميعًا أجزاء وأعضاء في شخصيّةٍ معنويّةٍ"(٥٤).

التنافس: التسابق في الخير

والتنافس -الذي يشبه الغبطة من ناحيةٍ ما- هو عملٌ إيجابي لا حرج فيه؛ ويعني: التسابق نحو النفيس في سبيل الحقّ والحقيقة، وبذل الجهد والنية من أجل عدم التخلّف عن ركب الإخوة الذين يجاهدون ويكابدون

(٥٣) **صحيح البخاري**، الإيمان، ٣٩؛ **صحيح مسلم**، المساقاة، ١٠٧.

(٥٤) انظر: سعيد النورسي: **اللمعات**، اللمعة الحادية والعشرون، دستوركم الثاني، ص ٢٢١-٢٢٢.

في سبيل إعلاء كلمة الله، ولقد دعا القرآن الكريم المؤمنين إلى مثل هذا التنافس في الأعمال الأخروية بقوله: ﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾ (سورة الْمُطَفِّفِينَ: ٨٣/٢٦).

ففي المسابقات الدنيوية ينجح شخصٌ ويخسر آخرون، وقد يولّد هذا الوضع شيئًا من الاستياء والامتعاض لديهم، أما القلب المؤمن الموقن بالآخرة فإنه ينظر إلى التنافسِ الذي يُبتغى به مرضاة الله تعالى بالمنظارِ القائلِ: "إن إخواني الذين يبذلون جهدهم من أجل إعلاء اسم الله تعالى في كل أنحاء العالم سيُهرعون بمشيئة الله تعالى إلى حوض سيدنا رسول الله ﷺ، ويشربون من يده الشريفة شربةً هنيئةً لا يظمؤون بعدها أبدًا، وهذا أمرٌ يدعوني إلى أن أشارك في هذا السباق حتى لا أتخلف عنهم"، ويمكن اعتبار هذه المنافسة الشريفة نتيجةً إيجابيةً للغبطة.

وينبغي في مثل هذا التنافس في الحقّ أن يتحلّى الناذِرون أنفُسَهم للخدمة في سبيل الله بروح التضحية فيما أحرزوه من مكاسب وإن كانوا لا يتشوّفون إلى أيّ أغراضٍ دنيوية كالتقدير والتصفيق والمنصب، وأن يُؤْثِرُوا الآخرين على أنفسهم، وأن تتَّسِعَ صدورُهم لإمكانيّة كسبِ الآخرين هذا السباق، ولا يعزُبُ عن علمِكم المعيارُ الذي وضعه فضيلة الأستاذ النُّورسي لطلب المنصب وهو ضرورة ترجيح التَّبَعِيَّةِ على المَتبوعيَّةِ لِمَا تحمله المَتبوعيَّةُ من مسؤوليّاتٍ وتُنذر به من أخطار[٥٥]؛ لأن الريادة والإمامة توقِظان وتثيران مشاعر نفسانية مختلفة، فينبغي للإنسان أن يكون على وعي كبير وحذرٍ بالغ في هذا الأمر، لذا وإن كنتم أكثر الناسِ أهلًا لمنصبٍ ما فعليكم تقديمُ الآخرين على أنفسكم وترجيحُ التبعية على المتبوعيّة.

(٥٥) انظر: بديع الزمان سعيد النورسي: **اللمعات**، اللمعة العشرون، السبب الرابع، ص ٢١١.

روح الفتوة والمروءة الممتدة إلى الآخرة

دَعْ عنك التشوّف إلى التصفيق والتقدير الدنيويّ، فلا بد للمؤمن من رحابةِ صدرٍ يكشفُ بها فتوَّتَه ومروءَته ويؤثِر أخاه على نفسه حتى في مسائل الانتفاع بالنعم الأخروية في الدار الآخرة، يُروى أن العلماء والأغنياء الصالحين إذا ما وصلوا إلى باب الجنة رغب كلٌّ منهم أن يتقدّم أخوه عنه، ولعلّه يوجَدُ في مثل هذه التضحية والمروءة من اللذَّةِ والمتعة ما يُحاكي الجنّةَ ونعيمها. أجل، ربما هناك ذوقٌ روحانيٌّ لدنّي يرجُحُ الإمامة عندما ينسلُّ الإنسانُ إلى الخلف كالجماعة التي تصطفُّ وراء الإمام، ويُؤْثِرُ غيره على نفسه.

علينا ألا نضيّق من دائرة خُلق الإيثار. أجل، إننا إن قَصَرْنا الإيثار على الأكل والشرب واللبس، فهذا يعني أننا ضيّقنا واسِعًا، وحجّمنا دائرةَ التضحيةِ الرحبةَ وأزهقنا روحها، بيد أنّ على الأرواح التي نذرت نفسَها في سبيل الحق أن يكون لها موقفٌ ثابت وشجاع؛ يؤهّلها أن تقول: "إنني لا أرغب حتى في الجنة، وإن رأيتُ إيمانَ أمّتِنا في خيرٍ وسلامٍ فإنّني أرضى أن أُحرق في لهيب جهنم؛ إذ بينما يحترق جسدي يرفُلُ قلبي في سعادة وسرور"[٥٦]، وأن تربط خَلاصَها بخَلاصِ الآخَرين، وأن تعمل على استغلال هذه الحياة القصيرة في سبيل الحياة من أجل الآخرين، فإذا ما تقابلَتْ أمام باب الجنة مع ألفٍ ممن كانت وسيلة لهدايتهم قالت بشجاعة: اللهم إني لا أدري هل أدَّيتُ بحقٍّ شكرَ النعم التي أسبغتَها عليّ، وهل كنتُ مخلصًا في الأعمال التي قمتُ بها، اللهم أدخِل إخواني الجنة من قبلي"؛ بمعنى أن على الإنسان أن يمحو نفسه تمامًا في هذه الدنيا وفي الآخرة، وأن يلفت الأنظار إلى غيره على الدوام.

(٥٦) بديع الزمان سعيد النورسي: **السيرة الذاتية**، ص ٤٩٢.

الأنانية الجماعية

أما الأنانيـة الجماعيـة فتتغـذّى علـى الأنانيّـة الفرديّة والنفـس، فقد لا تكفـي الأنانيـة الفردية لبعض الناس الذين يتصارعُـون من أجل التعبير عن أنفسـهم، فينتمون إلـى جماعة معينة، يركنون إليهـا ويعتمدون عليها، رغبـةً فـي إظهار أنفسـهم بقوةٍ، واسـتغلال قـوة هذه الجماعـة أو الحركة فـي الدعاية لأنفسـهم، فيؤكِّـدون مرَّةً أُخرى على أنانيّتهـم، ويحاولون أن يُظهِروا أنفسَهم بسلوكيات وأفعال مختلفة؛ وبذلك يغدون أسرى لأنفسهم وشيطانهم بهذه النرجسيّة والأنانية الجماعيّة الأقوى من أنانيتهم الفردية.

ومهمـا حـاول بعضهم إخفاءَ نواياهُ الحقيقيـة في غلافٍ من التواضع والمحو إلّا أنّ فطرةَ الإنسـانِ تستشـعِرُ -بقدرٍ ما- ماهيةَ هؤلاء الأنانيّين؛ لـذا فـإنّ الأنانيـةَ تُفقد الإنسـانَ اعتبـاره وقـدره، وتمنحُ الآخريـن فرصةَ الاستخفاف به واعتزاله.

وهكـذا فـإن الذين يتحركون -في كلّ الدوائر من أدناها إلى أقصاها- وفقًـا لأنانيتهـم الجماعيـة يثيـرون الغبطـة أو الحسـد فـي نفـوس أتبـاع الجماعـات والحـركات الأخرى، ومـع الأسـف فـإنّ أمثِلةً كثيـرة يمكننا أن نراها في أيامنا الحالية.

لا سيما إنْ همّ أتباع حركةٍ معينة وصلت إلى بعض النجاحات وجعلوا أنفسـهم علـى رأس الحركة التـي ينتمون إليها، ونسـبوا إلى أنفسـهم كلَّ الجماليات، ورغبوا في أن يُشار إليهم بالبنان على الدوام، وغضّوا الطرف عـن خدمات الآخرين، فإن هذا سـيؤدي إلى تشـكيل جبهـةٍ معادية لتلك الجماعة أو الحركة التي ينتسبون إليها؛ لأن هناك مسلمين صادقين عقلاء متحمّسـين في كل شـريحةٍ من شـرائح المجتمع وفي شـتى الجماعات

والحركات، غير أنه لم يكتب لهم أن يقوموا بعُشر معشار الخدمات التي قام بها الآخرون رغم نزاعهم وسعيهم الحثيث في سبيل الحق والحقيقة منذ أمدٍ بعيد؛ ولذا يشعر هؤلاء الناس بشيء من الاستياء إذا ما أخذ أتباعُ حركةٍ معينة في الحديث عن أنفسهم وعن النجاحات الكثيرة التي حققوها؛ ومن ثمّ فعلى أتباع هذه الحركة التي أحرزتْ هذه النجاحات أن يكونوا على وعي وحذرٍ بالغ حتى يَئِدُوا المشاعر السلبية التي قد تنشأ لدى الآخرين الذين يسعون في مختلف سبل الخدمة؛ فإذا ما تحدّثوا عن خدماتهم نسبوها إلى الدوائر الواسعة بقدر الإمكان.

فمثلًا: قد يأتيكم بعض المنصفين العارفين بالجميل من أتباع الحركات الأخرى ويثنون على ما قمتم به من خدمات، فعليكم حينذاك أن تقولوا لهم: "في الواقع إن كلَّ هذه الجماليات كانت من أمانيكم وغاياتكم المثلى، كنتم تُدنْدنون بها، وتسطّرون ملاحمها طوالَ سنوات، وبذلتم جهدًا كبيرًا في هذا السبيل، فكنتم أنتم أوَّلَ مَن شرع في تقديم هذه الخدمات، ولكن الله تعالى سخّر لهذه المرحلة بعضَ إخوانكم فحقّقوا هذه الغاية المثالية التي بدأَتْ بجهدكم وعزمكم".

والحقيقة أنَّ كل إنسان مُنصِفٍ ذي ضميرٍ يُقرُّ بأنَّ لكل جماعة وحركة جهودًا حقيقيةً مهمةً في انبعاث المجتمع من جديد؛ فترى بعضَهم وقد زانُوا أرضَ الوطن -من أقصاها إلى أقصاها- بِدُورِ ومراكز تعليم القرآن الكريم؛ إذ إنّهم في ذلك الوقت الذي شحّ فيه تعليمُ القرآن جابوا البلاد قريةً قريةً، وقصبةً قصبة، وسعوا في شتّى الأسقاعِ إلى تعليم الناس كتابَ ربّهم ﷻ، والبعضُ رعى الشبابَ واعتنى بهم عبر افتتاحه مدارس في كل مكان قدرَ استطاعته، أما البعضُ الآخر فقد افتتح المعاهد الإسلامية،

وكليات الإلهيات، والمراكز التعليمية، والمدن الطلابية فأسهموا بذلك في الوفاء بمسؤوليّاتهم تجاه الشعب والأمة، إذًا فإن كان ثمةَ انبعاثٌ اليوم بقدر معين، فإنَّه تحقّق بفضل تكاتُفِ الجهودِ المبذولةِ من كلّ الجماعات والحركات، ما ذكرنا منها وما لم نذكر.

وأظن أنكم حين تتناولون المسألة بهذا الأسلوب آنفِ الذِّكْرِ فإنه لن يُخيَّلَ لأيِّ مُنصفٍ أنَّه حُكم عليه بالعدم، أو أنّه هُضِمَ حقّه، أو أنّه لم يُؤبَهْ به؛ وبهذا فإنه لن يرتكب ذنوبًا من قبيل إساءة الظنّ والحسد والغيرة.

الوهم والمخاوف التي تُحَفِّزُ مشاعرَ العداء

ينبغي للأرواحِ الناذِرَة نفسَها للخدمة في سبيل الله ببصيرةٍ وحكمة أن تتحلّى بروحِ الشجاعة والمروءة التي تنسِفُ الهمومَ والمخاوفَ نسفًا، وليس ذلك تجاه بيئتها الصديقةِ فحسب، بل وتجاه مَنْ أتوا بتصرّفاتٍ وحركاتٍ عدائية ضدها لعجزهم عن مشاركتهم المشاعرَ والأفكارَ ذاتها، يقول "حافظ الشيرازي" حول هذا الموضوع: "نَيلُ الراحة والسلامة في كلا العالمين توضّحه كلمتان: معاشرة الأصدقاء بالمروءة والإنصاف، ومعاملة الأعداء بالصفح والصفاء"، فإن كُنَّا مؤمنِينَ وندينُ بأنّ الشفقةَ مبدأٌ من مبادئنا الأساسيّة فإنَّه يَتحتَّم علينا أن نتصرّفَ تجاهَ الجميعِ برحمةٍ ولينٍ، إضافةً إلى أنه يجب عليكم -من أجل استئصالِ أوهام مَن يتخوَّف ويقلقُ من المستقبل- أنْ تُبيّنوا بشتّى الوسائل أنكم لا تنشدون أي غرضٍ دنيويّ في المستقبل وأنكم لا تَبتَغونَ شيئًا آخر سوى الرضا الإلهي، حتى إنَّه ينبغي أن يُردَّد ذكرُ تلك الحقائق ويُكرَّرَ بلغةٍ واضحةٍ وصوتٍ جَهْوَريٍّ تسمعه الدنيا بكلِّ عوالمها.

دَعْكُم من التشـوّف إلى حكمِ بلدةٍ ما أو دولة ما، فإننا لا نطمح حتى إلى زعامةِ قريةٍ، وكلُّ هَمِّنا وغايتُنا الوحيدةُ هي: أنْ يُسمعَ اسمُ الله واسمُ النبي ﷺ في كلّ أرجاء المعمورة، وأن تنهلَ الإنسـانيّة التي خُلقت مكرَّمةً مـن مناهـل الفضائل التي جاء بها سـيدنا محمد ﷺ، وتُبلِّـغَ القلوبُ اسـمَ الله الجليـل؛ فيرفـرف فيها كالراية، وإننا نطـرد من أذهاننا كل الأفكار التي تخالـف هذا، ونطرحها إلى أبعد ما يكون، بل وإن أقبلت علينا الدنيا بكل مفاتنها فإننا نَـركُلُ السلطنة الدنيوية بأطراف أقدامنا، لأنّنا نسعى إلى اقتفاء أثر سـيد السـادات محمـدٍ ﷺ خطوةً خطوةً، ونتأسّـى به قـولًا وعملًا، إذ رفض الدنيا التي تمثلت له، يقول ﷺ: "**هَذِهِ الدُّنْيَا مُثِّلَتْ لِي فَقُلْتُ لَهَا إِلَيْكِ عَنِّي!**"(٥٧)، وذلك لأننا نطلب رضا الله تعالى الأعظم والأكبر من محاسـن هـذه الدنيـا الجذابة الكذّابـة، والفانيةِ بكلّ ما فيها مِـنْ مفاتنَ، والواقـعُ أن عـدم صُـدورِ أو وجودِ أدنى إشـارة أو علامة منا تسـتدعي قلقَ أو تخوُّفَ بعـضِ الطوائف والشـرائح في ثقافاتٍ وفي مناطـق جغرافية مختلفة جدًّا ليؤيدُ ويؤكّدُ -بكل وضوحٍ- فكرتَنا وقناعتنا هذه.

ومـع أن هـذه هي الحقيقةُ إلّا أنّهُ يجـبُ التأكيدُ على هذه الأفكار في كلّ مناسـبةٍ وموقفٍ، وإلا فإنْ التزَمْنا الصمتَ ولم نَقُل أيَّ شـيء في هذا الشـأن؛ فلربما يتبَنّى بعضُ المخلصين الذين يُحسـنون النيّة قناعاتٍ وآراءً خاطئة من عند أنفسهم إذا ما نظروا إلى تطوّر الخدمات التعليمية وأنشطة الحوار؛ فيُخيّمُ عليهم القلقُ والمخاوف... فإذا كان للمقرّبين منكم -الذين يقفون عن يمينكم وشـمالكم أثناء الصلاة- أن ينغلقوا على مجموعةٍ من الأفـكارِ الخاطئـة حيالكم؛ فلكم أن تتصوّروا مـدى القلق الذي يمكن أن يَشـعر به أولئك الذين يُعادونكـم ويجهلون عالمكم الداخلي ولا يعلمون

(٥٧) البيهقي: **شعب الإيمان**، ١١٣/١٣؛ الحاكم: **المستدرك**، ٣٤٤/٤.

أن غايتكم اليتيمة هي ابتغاء رضا الله تعالى، ومن هذه الناحية فإن الأرواح النـاذرَةَ نفسَـها للخدمـة في سـبيل الله -بدءًا من طفل السـابعةِ إلى شـيخ السـبعين أو حتـى من هو أكبـر- عليها أن تتذكّرَ دائمًـا وأبدًا أنها لا تضـع في حسبانها أيَّ شيء مستقبلي بشأن السلطنة الدنيوية ولا تطمح إليها ولا إلى ما يمكن أن تحقّقه من إمكانات، وينبغي لهم أنْ يَنْأَوا بأنفسهم عن كل قـولٍ وفعلٍ وتصرُّفٍ وسـلوكٍ قد يُثِيرُ لدى أهـلِ الدنيا -الذين يرون الدنيا كلَّ شـيءٍ ويتعلّقـون ويربطون حيواتهم بها فحسـب- الخـوفَ من فقدان الإمكانيات الدنيوية.

التيقّظُ والحَذَرُ

سؤال: ما الأمور التي يجب الحذرُ منها والتيقُّظُ لها في طريق الخدمة الإيمانية؟ وكيف ينبغي أن يكون هذا التيقُّظ؟

الجواب: التَّيَقُّظُ من اليقظة بمعنى الصحوة والإفاقة والتنبّه، ولفظُ "التيقّظ" فيه معنى التكلّف لأنه من صيغة "تَفَعُّل"؛ ولذا يُقصد به: أكملُ انتباهٍ وأبلغُ دقّةٍ وأعمقُ تعمُّقٍ وأعلى حساسيةٍ وأسمى درجات الحيطة والحذر، كما يمكننا أن نعرّفه بأنه: إيقاظُ جميع الملكات الشعوريّة والفكرية -فضلًا عن البصريّة- حيال استقراء الحوادث، وتشخيصها تشخيصًا سليمًا، وعدمُ الاقتصار على التأويلات والتقييمات التي يوحي بها رأيٌ واحدٌ أو شعورٌ واحدٌ، وفحصُ ومراجعةُ الرؤى والقرارات في كلّ مسألةٍ مرةً تلو أخرى... فالإنسان المتيقّظ هو الذي يرى نفسَه كطيّارٍ يُدرك أنّ أيّ خطإٍ أو خللٍ يصدر منه مهما كان صغيرًا يُمْكِنُ أن يوديَ به وبمن معه إلى السقوطِ والهلاك؛ يرى ذلك فيأخذُ بمجامع الحيطة والحذَرِ دائمًا حتى لا يتردّى أو يسقط.

التيقّظ في عهدٍ ساد فيه النفاق

إن التيقّظ بالنسبة للأرواح التي نذرَتْ نفسها لخدمة الإيمان والقرآن يحمل أهمّيّةً خاصة في هذا العصر الذي استحكمَ فيه النفاق، ومن ثَمّ فعلى تلك الأرواح بدايةً أن تحسنَ استقراءَ الزمن الذي تعيش فيه، وتعملَ على تحليل الظروف الراهنة تحليلًا سليمًا، وتتعرّفَ جيّدًا على خصومها الذين جُبلوا على العداوة، ولا يغرنّها قربهم منها فإنهم يستترون وراء ستار النفاق على هيئة دوائر متداخلة؛ ومهما فعلتْ الأرواح المتفانية وبذلت وسعَها حتى لا تَظهرَ كجبهةٍ مبارزة ومناهضة فإن هؤلاء الذين طارَ صوابُهم حسدًا وغيرةً قد يتحكّمون بتلك الأرواح، فيبثّون نيران مشاعرهم العدائيّة في شتى دوائر الحياة أعلاها وأدناها، بل إن هؤلاء الذين أَسَرَهُمُ الحقدُ والغِلُّ يتربصون بهم الدوائرَ.

أجل، ينبغي لهذه الأرواح أن تعيَ ما تحمِلُهُ على عاتقها من مهمّةٍ جِدّ حسّاسةٍ، وأن تتمتّع مع كل انطلاقة أو خطوةٍ تخطوها بشجاعةٍ باهرة لا تُقهَر، وعقيدةٍ راسخة لا تتزعزَع، وثباتٍ على الطريق المستقيم، وإلى جانب هذا كله؛ عليها أن تضع حسابًا للتخريبات التي قد تصدُرُ عن الجبهات المعادية نتيجةَ فَوَرَانِ غيظِها وتفجُّرِ حِمَمِ حقدِها وكُرْهِها، وإلا تسبّبت في أخطاء وإخفاقات تضرُّ بالحركة التابعة لها، لذا فإن اتّخاذ الحيطة والحذر والدقّة البالغة في هذا الأمر يُعدّ عمقًا وبعدًا من أبعاد التيقظ.

والواقع أن القلب المؤمن يحسب ويُفكّرُ لِغَدِهِ كما يَحْسِبُ ويُفكّرُ لِيَومِهِ، ولا يتقيّد بحاضره فحسب، ولا ينبغي له ذلك؛ لأنّ الحسابات اليومية أو المرحليّة لم ولن تقتلعَ أيّ مشكلةٍ من جذورها، فمنذ عدة عصور وتُطرح الحلول غير الجذرية لمشاكل العالم الإسلامي، وتوضع

السياسات اليومية المؤقتة للمشاكل العملاقة دون جدوى، ولذا فإن من يحسبون أن السياسات اليومية المؤقّتة قادرةٌ على حلّ المشاكل في بلادهم والعالم الإسلامي وجَعْلِه عنصرًا من عناصر التوازن الدولي، ومحطَّ أنظار العالم وموضعَ تقديرِهِ فقد خَدعوا وانخدَعوا.

أجل، إننا إذا ما نظرنا نظرةً موضوعية إلى ذاتنا كمجتمع لألفينا أَنْفُسَنا غيرَ قادرين على التحديد التام لعِلَل آلامنا الممتدة منذ عصور، ولم نستطِع تشخيصَ الداءِ تشخيصًا سليمًا، فضلًا عن وصف الدواء وصفًا حكيمًا.

لذا فعلى القلوب المؤمنة في زماننا أن تسير متيقّظة كالعيون الساهرة وليس كالذي يسير أثناء النوم، وأن تنظر بشموليّةٍ إلى الحوادث، وأن تُقلّبَ النظرَ كرّةً بعدَ أخرى في كلّ خطوةٍ تخطوها، وأن تراجع مرّةً أخرى كلَّ عملٍ تقوم به، وأن تعالجَ المشاكل كإنسانٍ تيقّظَت كلُّ ملكاتِهِ الشعوريّة والفكريّة بتمامها، والأحرى أنّ عليهم أخذَ الحَذَرِ عند نماءِ أيّ طقطقةٍ إلى مسامعهم وكأنهم جنود الوطنِ المرابطون على حدوده، وأن يحتاطوا في كلّ لحظةٍ تحسُّبًا لأيّ خطر، وأن يستعدّوا دائمًا لمكافحة السلبيات بما في أيديهم من حلولٍ متاحة.

التيقّظ حيالَ النجاحات

ومن جانب آخر: فإنّ ممّا منّ الله تعالى به على الذين يسعون لخدمة الإنسانية في يومنا هذا ابتغاء مرضاته أن جعلَهم مبلِّغين للحقّ والحقيقة في شتى ربوع العالم، فإن لم نحتَطْ لهذا الأمر فلعلّنا -معاذ الله- نقع في الغفلة ونَنْسُبُ إلى أَنْفُسِنا من النجاحات ما يجب عَزْوُهُ إلى الذات الإلهية، أجل، علينا أن نوفّيَ إرادتنا حقّها إلا أن الإرادة شرط عاديٌّ لتحقّق شيءٍ ليس إلا، والحقيقةُ أنّ الخالق هو، والصانع هو، والفاعل هو، والذي

يجعلُ الشتاءَ ربيعًا هو، والذي ساقنا إلى كل هذه الجماليات هو ﷻ؛ ولذا فلا يصحّ أن تدور بِخَلَدِنا أفكارٌ من قبيل: "نحن فَعلْنا، نحن صَنعنا"، بل يجب أن نعتبر كلّ جمالٍ نحصل عليه لطفًا وتفضّلًا منه ﷻ، وأن ننسب النعمة إلى صاحبها الحقيقي، أخذًا بمبدإ التحدّث بالنعمة، والحقّ أن مثلَ هذا التصرّف الحذِرِ كفيلٌ بتوالي مزيدٍ من النِّعَمِ الإلهيّة تترى؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ (سورة إِبْرَاهِيمَ: ١٤/٧).

فضلًا عن ذلك علينا أن نتجنّب بقدر المستطاع الغلوَّ والإطراءَ الزائدَ في نعْتِ أصدقائنا الذين يُشاركوننا الدرْبَ نفسه؛ لأننا قد نوقعهم في عشق المقامات التي يُحْسِنُ الناسُ فيها ظنهم، وبذلك ندقّ أعناق أصدقائنا بأيدينا دون وعي منّا، حيث إن استخدام عبارات المدح والثناء في حقّ مَن نُحسِنُ الظنّ بهم قد يثير شعور الغيرة لدى آخرين ممن يشاركونكم الطريق ويتقاربون معكم في المنهج، وقد يسوقهم ذلك إلى الحقد والحسد، فكلّما طافت ألسنتكم بعبارات المدح والثناء حولَ شخصٍ تحبُّونه أثَرتُمْ في الآخرين شعور الإنكار والجحود تجاهَهُ، وبذلك يكون جزاؤُه منكم الإساءَة له بدلًا من الإحسان إليه، لذا فالصدقَ الصدقَ، والحذرَ الحذَر مع بعضكم البعض، وإياكم ومَذْقَ الإطراءِ والإطنابَ في التقريظِ لمن تُحبُّون، وعلينا أن نسعى دائمًا لنكون صادقين أوفياء مع بعضنا، وبدلًا من أن ننعت فلانًا بالولاية وفلانًا بالقطبية ندعو الله قائلين: "اللّهم لا تحرمنا من الصدق والوفاء لإخواننا!".

والحاصل أنكم إن كنتم تحملون حبًّا جمًّا وشوقًا صادقًا لشخصيّةٍ معيّنةٍ فعليكم أن تُعَبّروا عن حبّكم وشوقكم بالعمل على تحقيق الغاية المثاليّة التي أرشدكم إليها في إطار الكتاب والسنة، أما الإطنابُ في إطرائه أمام هذا أو ذاك فمِن شأنه أن يُثِيرَ حقد وكره الآخرين له، وبذلك

تكونون قد أسأتم له وأنتم تُريدون الإحسان إليه، وهكذا فإن مراعاة الدقّة والحساسيّة في الحديث عن كبارنا الذين نُكِنّ لهم كل تقدير واحترام يُعدّ بعدًا آخر من أبعادِ التيقّظ على طريق الخدمة الإيمانية.

سؤال: ماذا يعني التيقّظُ بالنسبة للطامحين إلى السياحة في أفق القلب والروح؟

الجواب: قد يركن "السالكُ طريقَ الحقِّ" إلى الرجاء حيال ما يَرِدُه من وارداتٍ وهباتٍ أو ما ينهال عليه من تجلِّيات عامة تتحقّق في أحوال ومقامات معينة؛ فيدخل في نوعٍ من الشطح والتحرّر، فثمّة حاجةٌ ماسّة جدًّا إلى التمكين والتيقّظ في مثل هذه النوعية من الأحوال التي تمثّل ابتلاءً وامتحانًا بالنسبة "للسالك"، فالله ﷻ يمتحنكم بتدفُّقِ الإحسان والجماليّات، ويمُنّ عليكم بما يساوي الجوهرَ قيمةً، فإن فرحتم كالأطفال بهذه الهِباتِ والنعم ونسيتم في خضمّ ذلك صاحبَها فإنكم حينئذٍ ترسبون في الامتحان، لذا فالواجبُ على الأعين في مثل هذه الأحوال -التي تُمْطِرُ عليكم فيها الإحساناتُ وابلًا صيّبًا- أن ترى صاحب تلك النعم وتَرقُبَه ولا تحيد عنه، وأن تجيشَ القلوبُ بها من باب "شكر المنعم" فحسب، وعلى حدّ قول فضيلة الأستاذ سعيد النورسي فإنه ينبغي لنا عند شكر أيّ مُحسن إلينا ألا نتجاهل مَنْ أرسله. أجل، إن الإنسان العازم على السياحة في أفق القلب والروح يحتاج دومًا إلى التمكين والتيقّظ الحقيقي كي يستطيع الحفاظ على التوازن اللازم أمام الهِبَاتِ والوارداتِ التي يحظى بها.

"لستُ أنشدُ شيئًا سوى رضاك!"

إن الجانب المتعلِّق من هذه المسألة بالأرواح التي نذرت نفسها في يومنا الحاضر مختلفٌ قليلًا؛ لأنهم -وبحسب مقتضى مسلَكِهم- لا ينشدُون مثل هذه المقامات المعنويّة، وإنَّ الأستاذ النورسيّ بعد أن بيّن أن

الهدفَ الأسمى للإنسان هو الإيمان بالله، ثم معرفة الله التي تنشأ من الإيمان، ثم محبة الله التي تنبع من معرفته ﷻ؛ أضاف إلى ذلك "اللذة الروحية"(٥٨)، بيد أن ثمّةَ أمرًا دقيقًا يجب الانتباه إليه ههنا ألَا وهو: أن الثلاث الأُول ممّا ذُكر أعلاه "إراديٌّ" بمعنى أن على الإنسان أن يبتغيها بإرادته، وبتعبير آخر: فإنكم تُوَفُّون إرادتكم حقّها كشرطٍ عاديّ في الحصول على الإيمان بالله ومعرفة الله ومحبة الله، وتتوسّلون وتطلبون وتبحثون وتتجوّلون في عوالم الأوامر التكوينيّة، وتُراعون الأوامرَ التشريعيّة، وتذكرون الله وتتفكرون، وتبذلون قصارى جهدكم في ذلك.

أما بالنسبة لمسألة اللذة الروحية فإنها ليست "إراديّةً" بالمعنى نفسه، أي لا تُطلَب بالإرادة، وإنما قد يَهَبُ الله تعالى مثل هذا الفضلِ لمن يسلكون طريقَ الإيمان والمعرفة والمحبّة، إلّا أنكم إن طلبتموها بدايةً، وربطتم بها الإيمانَ بالله ومعرفةَ الله ومحبةَ الله فهذا يعني أنكم خفّضتم سقف مطالبكم وابتغيتم من النتائج ما هو ضئيلٌ وصغير، أمّا إن ربطتم عبوديّتكم برضاه وتوجّهه فحسب فهذا يعني أنكم ارتقيتم أفقًا تعجزُ الدنيا عن تقييمه أو وزنه، بل وتُستَقَلُّ وتَتَضَاءَلُ اللذة الروحية إلى جانبه، ومن هنا فإنه لا ينبغي الخلطُ بين "الإرادية واللاإرادية"، وعلينا أن نحثّ الخطى دائمًا خلفَ ما هو إراديّ وأن نُوَفّيَ الإرادةَ حقّها في هذا الموضوع، فإن كان الشيء غير الإراديّ قد مُنَّ به علينا وَهْبًا خارجَ إرادتنا ودون طلبٍ أو رغبةٍ منّا فلا بدّ لنا من مقابلة ذلك بالشكر والحمد، والتعبير عن شعورنا بالمنّة والامتنان، والتحدث بنعمِ ذي الجودِ والإحسان.

(٥٨) انظر: بديع الزمان سعيد النورسي: **المكتوبات**، المكتوب العشرون، المقدمة، ص ٢٧١.

إن الإلهام والكشف واستقراء ما في نفس الإنسان والإحساسَ بالحوادث قبل وقوعها والانفتاحَ في الرُّؤَى على عوالم مختلفة... كل هذه الأحوال والمقامات ليست أساسًا أو هدفًا يُبتغى؛ فنحنُ نسلكُ طريقَ الصحابة ﷺ، فهم الذين لم يلتفتوا إلى هذه النوعية من الخوارق التي قد تجد النفسُ الأمّارةُ إليها سبيلًا، ولم يُلْقُوا لها بالًا؛ وإنّهم إذ أجرى الله على يدِ بعضهم بعضَ الكرامات مثل الإحساس بالشيء قبل وقوعِهِ، وإجراء الحقّ على لسانهم؛ إلا أنهم لم ينشدوا الكشف والكرامات قطّ؛ فلم يتغيَّوا سوى غاية يتيمة؛ ألَا وهي الحصول على الرضا الإلهيّ؛ ولذا فإنه يجب علينا نحن كذلك أن نتحرّك في هذا الفلك، فإن حظينا نحن أيضًا ببعضٍ من الهبات والواردات دون أن نطلبها وجب علينا أن نقابلها بقولنا: "إلهي! نعمةٌ لم أكنْ أنا الحقيرُ أهلًا لها، فما سرُّ هذا اللطفِ والإحسان؟!"، وأن نخافَ كونَها نوعًا من "الاستدراج"، وأن ترتعِش فرائصُنا خوفًا ووجلًا، وربما ينبغي لنا أن نقول عقب ذلك: "ربي! كنتُ أريد أن أُحبّك أنت فحسب حبًّا ولِهًا، وإنّي لأطلبنَّ لقاءَك مثل المجذوب، فإن كنتَ منحتَني هذه الأمورَ لتبعثَ فيَّ الشوقَ والغيرةَ فلكَ الحمدُ والشكرُ والثناءُ الحسنُ ألفَ مرّةٍ ومرّة! غيرَ أنني لا أطلب شيئًا آخر سوى رضاك".

ابتغاءُ الكمال في الأعمال

سؤال: يقول الحقّ ﷻ: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلَامَ دِينًا﴾ (سورة الْمَائِدَةِ: ٣/٥)، **ففي هذه الآية ربطَ الحقُّ ﷻ رضاه بالأكملية والأتميّة، فما هي مناطات تحقيق مثلِ هذه الأكملية والأتميّة المرجوّة؟**

الجواب: إن الإسلام عبارةٌ عن حِزمةٍ من القِيَمِ التامّة الكاملة التي لا يشوبها نقصٌ ولا قصور، ومن شأنها أن تلبّي متطلبات كلِّ المجتمعات مهما تنوّعت وتعاقبت إلى قيام الساعة، ومن ثمّ فعلى أتباع هذا الدين الخاتم الذي بلغ الله به حدَّ الكمال والتمام أن ينشدوا الأكمليّة والأتمّيّة في كلِّ شيء؛ أي أن يتحرّوا الدقة والكمال في أداء وظائفهم ومسؤولياتهم؛ حتى يتسنّى لهم الحصولُ -بالمعنى التام الكامل- على خير النتائج وأفضل الجماليات التي وعدهم بها دينُهم، فهذا هو سبيلُ أفق الرضا الإلهيّ، والآية صريحة في هذا المعنى.

"كلُّ خطإٍ وإخفاقٍ بسببي أنا!"

وإنّ تحقُّقَ أفق الرضا هذا متوقّفٌ على شروطٍ؛ أولها: أن يكون لدى الإنسان نيةٌ صافية وعزيمةٌ عالية موجهتان لاستغلال جميع الإمكانيات والقدرات التي وهبها الله له استغلالًا تامًّا على الوجه الأمثل والأكمل؛ فبعض الناس يمتلك نداوةَ الصوت، وبعضهم يمتلك مهارة القيادة والإدارة، وبعضهم يُجيدُ الكتابة والتأليفَ أو الكلام الجميل... لذا فعلى كلِّ شخصٍ أيًّا كانت قدراته ومهاراته أن يستغلّها إلى أقصى حدٍّ حتى يتسنّى له التعبير عن الحقّ والحقيقة، فإن لاحت في الأفق بعضُ الأخطاء والعيوب فعليه أن يفتّش عن عيب نفسه لا عن عيب غيره، وأن ينسبهما إلى نفسه مجتهدًا في البحث عن سبلٍ لتلافيهما.

ويجب على من وهبَ نفسه لخدمة الإيمان والقرآن -بغضِّ النظرِ عن الوظيفة التي يقوم بها في شتى مجالات الحياة- أن يعتبر نفسَه مسؤولًا عن عدم بلوغ هذه الوظيفة درجةَ الكمالِ والتمام والإتقان، وأن ينسب إلى نفسه كلَّ مشكلة تحدث.

والحق أن العبدَ لو قال في نفسه: "لم أستطع أن أؤدّي بحقٍّ المسؤوليّةَ الملقاة على عاتقي، لقد قصّرتُ في هذه الوظيفة حتى باتت لا تؤتي ثمارَها باطّراد على الوجه الأمثل، وإنّ ما اقترفتُهُ من أخطاءٍ هو السبب في ذلك"، فهذا القول يُعَدّ توبةً ضِمنيّة، بل إنابةً أو أوبةً حسبَ اتساعِ قلبه وعمقِ مداركه، ولا شكّ أن الله تعالى يستجيب بلُطفه وكرمه دعاءَ مثلِ هذا القلب المهموم، وسَيُنعم عليه -إن شاء- بمزيدٍ من فضله وعنايته حتى يتدارك ما وقع فيه من أخطاء.

ولكن إن نظرَ الإنسانُ بِعينِ الكمالِ إلى كلّ أعماله، واعتقد أن أفعالَه معصومةٌ عن أيِّ قصورٍ أو خللٍ، وأنَّ خططَه ومشـروعاتِه بلغت من الدقةِ والكمالِ درجةً يكاد أن يكتشـف بها حتى السـموات، ثم عزا كلَّ الأخطاء إلى أنَّ مَنْ حولَه لا يصغون لكلامه ولا يفقهونه ولا يطيعونه؛ فإنّ هذا هو عيـنُ الهذيان الفرعوني القائل: ﴿**أَنَا رَبُّكُمُ الأَعلى**﴾ (سـورة النَّازِعَاتِ: ٢٤/٧٩)، إلا أن التعبيرَ عنه جاء بأسلوبٍ مختلِف.

نعم، فلا بدّ من التناسـب الطرديّ بين ما يقوم به الإنسـان من أعمال وبين محاسبة النفس عما يصدر منها من زلّات وهفواتٍ، ولا بدّ أن تتعمّق المحاسـبة أكثر فأكثر كلّما ازدادت أعباءُ الوظيفة؛ بمعنى أنه كلّما ازدادت الدوائرُ المتداخلة التي يعمل الإنسـانُ فـي إطارها كلّما كان عليه أن يعزو لنفســه شـتّى الأخطاء والإخفاقات التي تقـعُ في أيّ دائرة منها؛ فينبغي له أن يُفتّشَ عن الأسـباب في طيّات نفســه، وأن يحمّلها مسؤوليّة ذلك كلّه، لأنّها لم تستطـع أن توثِّقَ صِلتَها بالله ﷻ، ولأنّها لم تستشعر الإسلام بكلّ جوانحه، ولم تسـتوعبِ الدسـاتير التي وضعها سـيّد الأنام ﷺ، ولم تُقيِّم الظروف التي تعيشُ فيها، ولم تتعرّف جيدًا على الخصوم.

كلُّ جمالٍ منه، وكلُّ خطإٍ وقصورٍ منّا

والحـقّ أن القـرآن الكريم قد وضـع دسـتورًا واضحًا فـي هذا الأمر، والآيـة التاليـة تُغني عـن كثيرٍ من الكلام، يقول تعالى: ﴿**وَمَـا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ**﴾ (سورة الشُّورَى: ٣٠/٤٢).

وهنـا يُبيّـنُ الحقّ تعالى أن ما يقـعُ من أخطاء وثغراتٍ ناجمٌ عما رنتْ إليه أعينكم، وسمعتْ به آذانُكم، وعالجته عقولُكم، وتشدّقت به أفواهُكم، وأمسكتْ به أيديكم، وخطَتْ إليه أرجلُكم، وعبّرتْ عنه مشاعرُكم... إلى غير ذلك من الأمور التي تتنافى والغايةَ من الخلق، ويعفو الله عن كثير.

ويقول الرسول ﷺ: "**كُلُّ ابْنِ آدَمَ خَطَّاءٌ، وَخَيْرُ الخَطَّائِينَ التَّوَّابُونَ**"(٥٩)، مشيرًا إلى أن الإنسانَ بفطرته مهيأٌ للخطإ وعُرضةٌ له، لكن المهم هو أن يعيَ خطأه فيعمل على تداركه، فنجد حتى الخلفاء الراشدين يلومون أنفسهم بعبارات مثل: "ليتني فعلتُ هذا، وددتُ أنّي لم أفعل هذا...". أجل، لقد كان هؤلاء الخلفاء العظام يحاسبون أنفسهم، ولا يستنكفون عن كشف بعض الأخطاء التي اعترتْ أعمالَهم -عِلمًا أن أخطاءهم وهم المقربون حسناتٌ بالنسبة لغيرهم-.

استقراء الحوادث بشكل صحيح

ينبغي للإنسان أن يعتقد بأنّ المحن والمصائب التي تُلمُّ به إنما هي من عند نفسه، حتى وإن لم تكن مرتبطة من جهة ظهورها بإرادته وحتى إن لم يَتعمّدها أصلًا؛ فمثلًا عليه ألا يعتبر الشوكة التي يُشاكُها في قدمه أمرًا عرضًا أو صدفةً إن جاز التعبير، بل عليه أن يعتقد أنها نتيجة عيوبه وأخطائه الشخصيّة، وللتوضيحِ والتمثيلِ أَسُوقُ الحادثة الآتية فأقول: "إن لكم صديقًا يحقن نفسه بالإنسولين مرتين أو ثلاثًا يوميًّا، فإنه إنْ سقطت من يده حافظةُ إبرة الحقنة فعلّلَ ورَبَطَ ذلك بأنه "لم يبدأ باسمِ الله تعالى" قائلًا: "إلهي! لو أنني بدأتُ باسمك لَمَا سَقَطَتْ هذه من يدي"، وكذلك أيضًا لو أصابت الإبرة عصبًا أو شعيرةً دمويّةً في بدنه أثناء الحقن فسال منه الدمُ عَزَا الأمرَ إلى انحرافاته وعدم استقامته في الفكر وعجزِه عن الصلة بالله تعالى والارتباط به؛ هذا هو التصرّف والسلوك الواجب علينا اتخاذهُ وانتهاجه تجاه الابتلاءات والمصائب، فالإنسان إنْ لم يؤمن بأنّ ما يصدر من نقص أو خلل أو عيب نابعٌ من نفسه ولم يسائِلْها عن ذلك؛

(٥٩) سنن الترمذي، القيامة، ٤٩؛ سنن ابن ماجه، الزهد، ٣٠.

عجـز -مدى حياته- عن التخلُّصِ مطلقًا من سـوء الظنّ واتّهام الآخرين، بل إنه يظنّ دائمًا أنّ من حوله من الناس هم مَنْ يُحَوّلُ تصرّفاته وسلوكيّاته الإيجابية إلى سلبية ويُعرّضُ أعماله للخطر، ونظرًا لعجزه عن رؤية عيوبه وإدراكِها فهو عن تدارُكِها وتلافيها أعجزُ.

هذا وإنّ الإنسـان الذي يُدرك أخطاءه ويعِيها يفكّر في الأمر مليًّا كلّما واجهتـه حادثـة سـلبيّة، ويبدأ في البحـث والتنقيبِ عن سُـبُلٍ بديلة تكفلُ سـلامتَه من الوقوع في الخطإِ نفسِـه مجدّدًا. أجل، إن الإنسان الذي يَعتبر أنّ الفشلَ والخطأَ نابعٌ من ذاته يتحرّك لاحقًا في إطار المنطق والعقل كي لا يقـع ثانيةً في المشـكلة ذاتها، ويسـعى لاتخاذ جميـع التدابير اللازمة، فمثـلًا: إنّ الإداريَّ الـذي يتولّى إدارةَ وتوجيـه مجموعةٍ من الناس، إذا ما نشبَتْ خلافاتٌ بين أفرادِ مجموعته فإنّه سيأخذُ الدروسَ ويستقي العِبَر من ذلك، ويدرس جميع الاحتمالات حتى يمنعَ تكرُّرَ المنغّصات نفسِها مرةً أخـرى، ويُنتجُ حلولًا متعدّدةً تحسُّـبًا لأيّ طـارئٍ محتمَل؛ أي إنّ الخططَ والمشـاريعَ التـي يضعها ويُقرُّها سـتحتوي من البداية علـى حلول بديلة متعدّدة ومختلفة لمواجهة المشكلات المحتمَلَة.

الرجوع إلى العقل المشترك

هنـاك مبـدأٌ مهمٌّ يكفُـل تحقيقَ الأعمـال كاملةً وتامّةً كمـا خُطِّطَ لها، ويحمي الإنسانَ من الوقوع في الخطإِ والزلل، ألا وهو "الرجوع إلى العقل المشـترك"، وقد بيّنَ سـلطان الكَلِمِ ﷺ أنه "**مَا خَابَ مَنِ اسْـتَخَارَ، وَلَا نَدِمَ مَنِ اسْتَشَـارَ**"[٦٠]، انظروا: إن سـيدَنا رسـولَ الله ﷺ رغمَ أنـه مؤيّدٌ بالوحي ومرتبـطٌ بما وراء السـماوات، فإنـه يُخضِـعُ كلّ أمر للمشـورة والرأي؛ إذ

(٦٠) الطبراني: **المعجم الأوسط**، ٣٦٥/٦؛ **المعجم الصغير**، ١٧٥/٢؛ القضاعي: **مسند الشهاب**، ٧/٢.

كان يستشير أصحابه ممّن علّمهم هو ﷺ ماهيّة الدين والحقّ والحقيقة والمشورة. أجل، كان يُنحّي رفعته وتفوُّقَه المطلقَ جانبًا، ويشاور أصحابه بشأن المشكلات والنوازل بصفته واحدًا منهم، لقد كان سيّد السادات ﷺ يُفعِّل هذا رغم أنّه معصومٌ من الخطإ؛ إذًا فإن أفضل الطرق لتقليل احتمالية الوقوع في الخطإِ من أمثالنا من البشر -الأكثر عرضة للخطإ والزلل- هو إحالة المسائل والقضايا والنوازل إلى نظر العقل المشترك.

وإنّ الفرد والمجتمع اليوم ليعيشُ في مواجهة مباشرة مع سلسلة من المشكلات، فإن لم تُعْمِلوا آليّة الاستشارة التي تستطيع أن تحُلّ أعتى المشكلات المستعصية وتُفَعِّلُوها، فإنكم ستقعون تحت وطأة سلسلة من الأخطاء، ثم يُداخلكم إحساسٌ بالذنب، فتبحثون حولكم عمن ارتكب هذا الذنب، وفي النهاية لا يبقى قلب حولكم إلّا وقد حطّمتموه، ولا إنسان إلّا وقد أغضبتموه، ورغم أنّ الذنب والقبحَ من عند أنفسكم فإنكم لا تفتؤون تتّهمون مَنْ حولكم، وتُزعْزِعون ثقتهم بكم؛ فتُبعِدونهم عنكم وتُنَفِّرُونهم منكم، وكما قال الشاعر:

لا تدوم الدولة والملك لأحد

ولا الفضة والذهب ولا العيش الرغَد

أما الفن والمهارة فإصلاحُ قلبٍ خربٍ

هكذا علَّمَنا الأحدُ الفردُ الصمد

لو بقي الذهب والفضة لأحد ونَفَعَاهُ لكان قارون أولى بذلك، ولكنه خُسفت به الأرض مع خزائنهِ، وليس هذا فحسب، بل إنّ الناسَ سيظلّون يخسفون به الأرضَ معنويًّا كلّما قرؤوا قول الله تعالى: ﴿**فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنْتَصِرِينَ**﴾

وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ اللهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلَا أَنْ مَنَّ اللهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾ (سورة القَصَصِ: ٢٨/٨١-٨٢)، ومن هنا فإن الفن والمهارة والحذقَ الحقيقي في إصلاح القلوب لا في تحطيمها، وكما يقول "يونس أمره":

جئنا لنُشَيّد القلوب ونبنِيها لا لنهدمها أو نُفنيها

أجل، إن وظيفتنا هي إصلاح القلوب وعلاجها لا هدمها وتخريبها، لذا فعلى الإنسان ألا يَنسِبَ إلى الآخرين ما ارتكبه هو من أخطاء، وألّا يتّهمهم بما قارَفَهُ من زلّات؛ فهو بذلك يحطّم ويهدم قلوبًا كان ينبغي له أن يُشيّدها ويبنيها.

النفس المطمئنّة

سؤال: إن من جملة الصِّيَغِ التي أوصانا النبيّ ﷺ أن ندعو بها قوله: "*اللهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ نَفْسًا بِكَ مُطْمَئِنَّةً، تُؤْمِنُ بِلِقَائِكَ، وَتَرْضَى بِقَضَائِكَ، وَتَقْنَعُ بِعَطَائِكَ*"[٦١]، فما الذي يمكن أن نفهمَه من لفظة "النفس المطمئنة" الواردة في هذا الدعاء الشريف؟

الجواب: إنّ الحديث حول النفس المطمئنّة يتطلّب استطرادًا بعض الشيء، يقول النبي الأكرم ﷺ في الحديث الشريف: "**أَعْدَى عَدُوٍّ لَكَ نَفْسُكَ الَّتِي بَيْنَ جَنْبَيْكَ**"[٦٢].

وهنا يشيرُ النبي ﷺ إلى أن النفس هي ألدّ أعداء الإنسان؛ وعليه أن يتعهّدها بالمجاهدة والتزكية على محور الدقة والحذر، وكما هو معلوم لمّا رجع النبي ﷺ من جهاده مع المشركين قال: "**قَدِمْتُمْ مِنَ الْجِهَادِ الأَصْغَرِ إِلَى الْجِهَادِ الأَكْبَرِ**"، قَالُوا: وَمَا الْجِهَادُ الأَكْبَرُ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ:

---

(٦١) الطبراني: **المعجم الكبير**، ٩٩/٨.

(٦٢) الديلمي: **الفردوس بمأثور الخطاب**، ٤٠٨/٣.

"**مُجَاهَـدَةُ الْعَبْـدِ هَـوَاهُ**"(٦٣)؛ لأنّ مجاهدةَ الإنســان لعدوٍّ خفـيٍّ بين جنباته يتحيّـن الفرصة للهجوم عليه لهـو أصعبُ كثيرًا من جهاد العدوّ الذي يراه عيانًـا بيانًا أمـام عينيه، ومهما بلغت الصعوبات المادّيّـة التي تتخلّل جهاد الأعـداء من تضـاربٍ واقتتالٍ فثمّـة احتماليّةٌ للظفر بالغنائم أو ما شـابهها من مكتسَـبات آجلةٍ بوقوع النصر، غير أنّ ما يجنيه الإنســان من مجاهدته لنفسه وغلبته عليها وقهرها لا يدركه غالبًا في الوقت الحاضر، وإنما يفوز به في الآخرة، والحال أن الإنسان بطبيعته يطمـع في الثواب الآنيّ العاجل كما قال ربّنا ﷻ: ﴿**كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ ۞ وَتَذَرُونَ الآخِرَةَ**﴾ (سـورة القِيامَةِ: ٧٥/٢٠-٢١).

أجـل، إن الإنســان بطبيعتـه يريد أن يحصل على نتيجة سـعيه وجهده علـى الفـور، وأن ينال أجر عمله على وجه السـرعة، وعلى ذلك فالجهاد من أجل إعلاء كلمة الله وإن كان كبيرًا بحدّ ذاته إلا أنه يظلّ صغيرًا مقارنة بالجهـاد الأكبـر، وإنّ المجاهـدةَ التـي نتحدّثُ عنها تكـون لأُولى مراتب النفـس وهـي "النفس الأمارة بالسـوء": ﴿**وَمَا أُبَرِّئُ نَفْـسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ**﴾ (سورة يُوسُفَ: ١٢/٥٣).

النفس اللَّوّامة

كمـا هـو معلومٌ فإن النفـسَ التي هي ألدّ أعداء الإنســان وإن كان من شـأنها أن تأمر بالسـوء إلا أنّها مهيّأةٌ أيضًا للتبدّل والترقّي، ولو أنّنا أحسـنّا تربيتهـا وتزكيتهـا لتحوّلـت إلى مطيّةٍ تقرّب الإنسـانَ مـن الله وتجرّه نحو الفـلاح، ومثالُ تبدُّلِ ورقـيِّ النفس قوله ﷻ: ﴿**وَلَا أُقْسِـمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ**﴾ (سورة القِيامَةِ: ٧٥/٢).

(٦٣) البيهقي: **الزهد الكبير**، ١٦٥/١.

فالنفس هنا هي تلك التي خطت الخطوة الأولى وحقّقت الانطلاقة الأولى في مثل هذا التبدّل والترقّي، وهي التي تلوم صاحبَها على ما أصابه من خطإٍ أو ارتكبه من معاصٍ، فتحاسبه وتجعله يبحث عن سبلٍ للخلاص ممّا تـرّدى به مـن دركات اللوثيات، أو عن أسبابٍ أخـرى للكفاح حتى لا يتكرّر سقوطه فـي نفس الأخطاء والمعاصي مرّة أخرى، وتسوقه إلى التوبة والاستغفار، وإنّ تخلُّصَ الإنسانِ من أسارة نفسه الأمارة، وانتقالَه إلـى مرتبة النفس اللوامة لـه أهميةٌ بالغة فـي تزكية النفس وترقّيها؛ لأن هـذه الخطـوة هي نقطة انطلاقٍ أُولى على سلّم مراتب النفس الأخرى، فلا يتحقق ارتقاء الإنسـان تدريجيًّا إلى النفس المُلْهَمة، ومنها إلى النفس المطمئنـة، وإلـى النفس الراضية، فالنفس المرضية، وصولًا إلى النفس الصافيـة أو الزكيّة إلا بالانتقال أوّلًا من النفس الأمارة إلى النفس اللوامة، وكما أن الزاوية الصغيرة في مركز الدائرة تشـكّل زاوية كبيرة في محيطها فكذلك هذه الانطلاقة وإن كانت صغيرة في المركز إلا أنّ لها أهميةً كبيرة بالنسبة للنفس، كمـا أنها صعبةٌ بقـدر أهميتها؛ لأنه لا بد مـن تغيّرٍ معين حتى تتحقّق مثل هذه الانطلاقة؛ وبتعبيرٍ آخر لا بدَّ من محوِ القديم ووداع الماضي والإعراض عن الإلف والعادة، وسلوك طُرُقٍ جديدة.

وهكـذا فـإن النفس التـي تلوم صاحبها على ما اقترفـه من أخطاء وما ارتكبه من معاصٍ، وتتوجّه دائمًا إلى الله بقولها ﴿**رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ**﴾ (سورة الأَعْرَافِ: ٧/٢٣)، وتكشف عن إرادتها وعزمها على عدم التردي في هذه الذنوب مرةً أخرى؛ إن استمرت علـى مكافحتهـا ومجاهدتهـا فإنها ترتقي إلـى مرتبة النفـس المُلْهَمة التي تخفق وتحلّق في سماء أفق القلب والروح.

النفس المُلْهَمة

والنفس الملهمة هي التي قطعت كلّ السبل أمام أنواع الشرور متوجّهةً إلى ربها ﷻ في حركاتها وسكناتها، وتتجلّى فيها المواهب الإلهيّة بقدر ما فيها من الصفاء والنقاء والطهارة، وإن الله ليُلهِمُها الحسنى والطيّبات وما يُفضي إلى رضوانه ﷻ، وهو القائل: ﴿**وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ**﴾ (سورة العَنْكَبوتِ: ٦٩/٢٩)، ﴿**وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ۞ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا**﴾ (سورة الشَّمْسِ: ٩١/٧-٨).

النفس المطمئنّة

والنفس المطمئنّة هي التي بلغت أوجَ الكمالات في أفق الإيمان والعرفان، وأغلقت الأبواب وأوصدَتْها دون كلِّ الأشياء ما عدا رضا الله تعالى ومرضاته، فلم يكن لها أيّ تشوُّفٍ آخر، يقول جل وعلا: ﴿**يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ۞ ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً ۞ فَادْخُلِي فِي عِبَادِي ۞ وَادْخُلِي جَنَّتِي**﴾ (سورة الفَجْرِ: ٨٩/٢٧-٣٠).

مثل هذه النفس تعيش دائمًا في توجّهٍ إلى الله، وتستغلّ كلَّ دقيقةٍ أو ثانيةٍ من عمرها في سبيل الفوز برضا الله، وترضى دائمًا بقضاء الله تعالى وقدره؛ إذ إنّ إحساس الإنسان بالرضا في نفسه عن الإجراءات الإلهية لهو مؤشِّرٌ على رضا الله تعالى عنه أيضًا؛ وعلى ذلك يرى بعضُ المحقّقين أن النفس الراضية والنفس المرضية بمثابة جناحين مفتوحين للنفس المطمئنة، فمثل هذا الشخص الذي يرضى الله عنه ويرضى عن الله لا يُفرّقُ بين الجفاء إن كان من جلاله والوفاء إن كان من جماله، فكلاهما صفاء بالنسبة له، فضلًا عن ذلك فإن هذا الإنسان على اعتبار أنه من أبطال "هل من مزيد؟" يحاول ويسعى إلى أن يزيد معرفته دائمًا وأن يكون قريبًا من ربه بناءً على قربه ﷻ منه، وذلك بتخطّي المسافات التي تبعده عنه.

النفس الراضية

نلاحظ أنّ سيدنا رسول الله ﷺ طلب في دعائه المذكور آنفًا نَفْسًا مطمئنّةً أوّلًا، ثم طلب لها أوصافًا يمكننا أن نسمِّيَها أعماقَ تلك النفس أو أجنحَتَها التي تُحلِّقُ بها في الآفاق الربانية.

وبعدَ أن طلب النبيُّ ﷺ من ربه "نفسًا مطمئنّةً" أعقبَ ذلك مباشرةً بِطَلَبِ أن تكون هذه النفسُ "مؤمنةً بلقاء الله المحتوم عاجلًا أم آجلًا" بقوله: "تُؤْمِنُ بِلِقَائِكَ"؛ لأن إيمانَها بأن الطريق الذي تسيرُ فيه سيُوصلُها إلى الذات الأبدية لا محالة، وتحرُّقَها رغبةً في لقاء الله وشوقًا إليه، وانشغالَها بذلك سيُلقي في أعماق الإنسان طمأنينةً راسخة لا تتزعزع.

ويرغبُ النبيُّ الأكرم ﷺ بقوله: "وَتَرْضَى بِقَضَائِكَ" أن تملكَ النفسُ المطمئنّة صفةَ الرضا بقضاء الله تعالى، ومع أنَّ بعض العلماء عَرَّفَ القضاءَ بأنه: تحديد الحقّ تعالى الأشياءَ وفقًا لـ"التعيُّنات"؛ فإن معظمَ علماء أصول الدين يرون أنّ القضاء هو: إنفاذُ ما قُدِّر وكُتب في لوح المحو والإثبات إذا ما حان وقته.

والحوادث التي يتعرّض لها الإنسان طوال حياته قد تكون حسنة، وقد تكون سيّئةً بالنظر إلى ظاهرها، إلّا أنّ الإنسان يستطيع بِنِيّتِه أن يُحوِّلَ كلَّ ما قَدَّره الله تعالى له إلى خير كامل؛ فإن استقبلَ -مثلًا- المحنَ والمصائبَ بالصبرِ والرضا، وقرن كلّ نعمةٍ ونجاحٍ بالحمدِ والشكرِ فقد نجح في توجيه هذا كله إلى ما يعود بالنفع عليه، لكن إن كان يتشكّى ويسبّ القدرَ وعابه كلما أصابه "جفاءٌ من جلاله تعالى"، وأنكر الجميل وجحد كلما أصابه "وفاءٌ من جماله تعالى"، وإن زعمَ أنه أُوتي ما أُوتِيَ على علمٍ عنده؛ صار هذا شرًّا وضرًّا بالنسبة له، أي إن كونَ النعمة

أو النقمة خيرًا أو شرًّا بالنسبة للإنسان أمرٌ مرتبط ومرهونٌ بموقفه تجاهها، والحاصل أنَّ رضا الإنسان عن كلِّ ما قدَّره الله ﷻ وقَضَاه بحقّه أمرٌ في غاية الأهمّيّة.

النفس المرضيّة

وأخيرًا يطلب سيدُنا رسول الله ﷺ من الله تعالى بقوله: "وَتَقْنَعُ بِعَطَائِكَ" القناعةَ والقبولَ بكلّ شيءٍ قدّرَه له، ومَنَّ بِهِ عليه، وثمّةَ موضعٌ يجدرُ بالإنسان ألا يقنع عنده، بل عليه أن يحرص عليه ويستزيد منه، ألا وهو الإيمانُ بالله تعالى وطلبُ رضاه سبحانه؛ ويلزمه أن يتصرّف بشغفٍ وهوسٍ وحرصٍ شديدٍ طلبًا لرضا الله تعالى، وألا يقنع أو يتوقّف عن طلب المزيد من ذلك، وبتعبير آخر؛ فإنْ كان ثمّة موضعٌ الطمعُ فيه والحرصُ محضُ عبادةٍ فهو محبةُ الله ورسوله. أجل، ينبغي للإنسان ألّا يكتفي أبدًا بما يتحصّل عليه وهو يسير في درب الرضا الإلهيّ، وعليه دومًا أن يستزيد من طلب رضاه تعالى قائلًا: "هل من مزيد، هل من مزيد؟" إلّا أن الأساس فيما يتعلّق بالأمور الخاصّة بالدنيا والبدن والجسمانية هو القناعة بِقضاء الحقّ تعالى وقَدَرِهِ، وهذه صفةٌ أُخرى من صفات الإنسان الكامل الذي أبحرَ نحوَ عالمِ "النفس المطمئنّة".

يطلب سيدنا رسول الله ﷺ من الحق تعالى هذه الأمور المهمة كلَّها في دعائه هذا صباح مساء، ولا ريب أنه يطلب هذا كلَّه ارتباطًا بأفقه الفسيح وطلباته الخاصة السامية النبيلة، فإنْ قيّمنا طلباته هذه من زاوية ضحالتنا وأهدافنا البسيطة؛ فقد ارتكبنا حماقةً وأسأنا الأدب معه ﷺ وصِرنَا وكأننا نحاول إنزاله إلى مستوانا الوضيع نحن، إلّا أنّه ينبغي لنا أن نستفيد مما

طلبه سيدُنا رسول الله ﷺ من أمورٍ في دعائه، ونتّخذه دليلًا وهاديًا لنا، وفي دعائه هذا يُعلي رسولُ الله ﷺ الهمّة إلى أقصى درجاتها؛ فيُعلِّمُنا بذلك أن نطلبَ الذروةَ دائمًا والمعالي أبدًا، ومن ثمّ فينبغي لنا ألا تَضْعُفَ همَمُنا أو تَفْتُر أبدًا، بل علينا كذلك أن نشحذ همَمَنا وإرادتنا دائمًا، فعلوّ الهمّة من الإيمان، ونسعى ونجتهد طلبًا لرضا الله ﷻ بنفسٍ مطمئنةٍ مؤمنة حتى آخر نفس من أنفاسنا.

النفس الزكيّة أو الصافية

وهذه هي ذروة سنام الأمر وغايته، وهي مرتبة المقرّبين، قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا﴾ (سورة الشَّمْسِ: ٩/٩١)، وإن السالك حينما يتدرّج على سلّم مراتب النفس مرورًا بالمطمئنة وغيرها ويصل إلى هذه المرتبة العالية فإنه يُحسّ بخفقان أجنحة الملائكة من حوله حتى لكأنه يتجوّل في الآفاق الملائكيّة، ولن نتعدّى الحقيقة إن قلنا:

إن الإنسان حينما يبلغ هذه القمّة يغدو مخلوقًا أعلى من الملائكة.

روح الإرشاد والثبات على الحق

سؤال: يقول فضيلة الأستاذ بديع الزمان سعيد النورسي: "إن ما في المصدر من قدسيّةٍ هي التي تحضّ جمهورَ الأمة والعوام على الطاعة وتسوقهم إلى امتثال الأوامر أكثر من قوّة البرهان"[٦٤]، فما معنى هذا الكلام؟

الجواب: يُقصد بجمهور الأمة والعوام هنا مَن لا درايةَ لهم بالعلوم الإسلامية، المقلِّدون في حياتهم الدينية، المتعذّر عليهم النفوذ إلى روح الدين، فمثل هؤلاء الناس يجهلون غالبًا الأدلة العقلية والمنطقية والفلسفية، أو لا قدرةَ لهم على معرفتها؛ فالاستنباطاتُ العلميّةُ يصعبُ عليهم سبرُها، والعلومُ الوضعيّةُ يعانونَ في فهمِ مُعطياتِها، ومن ثمّ فلا جدوى من مخاطبتهم بالأدلة العقليّة والفلسفية، وهذا ما يُحتّم علينا إذا أردنا أن نحدّثهم عن أيّ حكمٍ شرعيٍّ فرضًا كان أم حرامًا، مباحًا كان أم مندوبًا، أن نقول لهم: "إن القرآن الكريم قد حكم بهذا في هذه المسألة، أو إن السنة الصحيحة تُقَرِّر هذا..."، فهذا الأسلوب هو الأكثرُ فاعليةً وإلزامًا بالنسبة لهم؛ لأن القرآن والسنة مصدران قدسيّان متينان في نظرهم -وهما بالفعل كذلك- لا بدّ من الاعتماد عليهما والامتثال لهما.

---

(٦٤) بديع الزمان سعيد النورسي: **الكلمات**، اللوامع، ص ٨٢٦؛ **المكتوبات**، نوى الحقائق، ص ٥٧٢.

لذا يجب علينا في الحديث إلى العوام أن نبتعدَ عن التحليلات الفقهية والقواعد الكلّية، وأن نُعطي الأولويّة للآيات القرآنية وأقوال النبيّ ﷺ وأفعاله؛ وبتعبيرٍ آخر: علينا أن نربطَ المسائل التي نرغب في الحديث عنها بحياة النبي ﷺ بأن نقول مثلًا: "كان سيد السادات عليه ألفُ ألفِ صلاةٍ وسلامٍ يتعامل هكذا، ويجلس هكذا، ويقوم هكذا، ويأكل هكذا، ويشرب هكذا... إلخ"، فهذا الأسلوب من شأنه أن يكون أكثر إقناعًا وتوجيهًا.

نعم، إن المصدر الأساسَ هو الكتاب والسنة، ومع ذلك فقد نالت بعضُ الشخصيّات العظيمة ثقةَ الناس واحترامَهم؛ نظرًا لأن حياتهم كانت تتمحور حول الكتاب والسنة، ولا تحيد عنهما قيد أنملة، فصارت تُعتبر -بمعنى ما- مصدرًا نسبيًّا بالنسبة لمخاطبيها.

ثباتُ العلماء على الحقّ

يُروى أن الإمام أبا حنيفة النعمان عليه رحمة الله جلس بين يديه آلاف الطلّاب وكان بعضُهم من أمثال الأئمة أبي يوسف ومحمد وزُفر، كما كان يغشى حلقتَه الدراسيّةَ أيضًا العوام والعديدُ من الناس رغم أنهم كانوا لا يستوعبون تمامًا كلّ ما يُقال لهم، حيث كان من العسير عليهم فهمُ القضايا العلمية التي يُحدِّثُهم الإمام بها، ومناطاتها، ومبادئ أصول الفقه الخاصة بها، ومنهجية الاجتهاد، ولكنّ قُربَ هذا الإمام من ربّه وتبعيّته لنبيه ﷺ وثباته على طريق الحقّ قد أحدث تأثيرًا أقوى من آلاف الأدلة في قلوب هؤلاء الناس.

وكذلك كان الإمام الشافعي والإمام مالك والإمام أحمد بن حنبل ﷺ جميعًا؛ لم يتخلّ هؤلاء الأئمة قطُّ عن مواقفهم الثابتة على طريق الحقّ، فحافظوا على مستوى الشموخِ في مواقفهم إلى أن انتقلوا

إلـى الرفيـق الأعلى. أجـل، قُيّد الإمام الشـافعي ﷺ بالسلاسـل بأمرٍ من الحـكام المسـلمين وأُتـي بـه إلى بغـداد من أجـل اسـتجوابه، ولكن لما رأى مَـن حولـه غزيرَ علمِه وعمقَ معرفَتِهِ أعرضـوا عن أذاهم له، وأكبروه وعظّموه، كما زُجّ بالإمام أحمد بن حنبل ﷺ في السجن وضُرب بالسياط وتعـرّض للإيـذاء الشـديد، ومـع ذلك لم يُغيّـر موقفَه قـطّ، وإذا ما نظرنا لاحقًـا إلـى الإمـام الغزالي ﷺ لألفيناه رجلًا راسـخًا لا يحيـد عن الحقّ قيد أنملة، يسـتهلك كلّ طاقاته ليبعثَ روح التجديد في أعماق الأمة عبرَ شـروحٍ تتناول القضايا الدينية بشـكل جديد ومنظارٍ فريـد... وإنّ جمهور الأمّـة والعوام لما شـاهدوا هؤلاء العلماء وشـهِدوا مواقفهـم الثابتة على الحقّ اتخذوهم مرشدين لهم جديرين بالاقتداء والاتّباع.

الثبات على الاستقامة في الدعوة إلى الحقّ

ولقد سـارَ بديـع الزمان سـعيد النورسي ﷺ على نفس الطريق وذاتِ المنهـج؛ فحـاول أن يكـون صـوتَ عصرِهِ وصداه، وسـعى إلـى أن يقيمَ صـرح الإيمـان مجدَّدًا بما جاء بـه من أدلةٍ عقلية ومنطقيـة وعلمية يواجه بها الضلالات الناجمة عن العلوم والفلسـفة، واجتهد في عرض الإسـلامِ عرضًـا يتوافـق مع العقول وينسـجم مـع الأرواح والمشـاعر، ولو نقَّبتم ومحَّصتم فيما صاغه من أفكار لتوصلتم إلى الكثير من الدرر واللآلئ في أعماقها، كما أنكم إذا ما ألقيتم نظرةً على كتابه "الملاحق" لتَعَرَّفْتُم على ما وضعه من دسـاتير تعصم أتباعها من الزيـغ والانحراف وتُنير الطريق أمام من يبغي خدمة الإيمان والقرآن، وإنه ﷺ وإن لم يُدبّج مؤلفًا من مؤلّفاته التـي تحـار دونها العقول إلا أنّ موقفه الثابـت الذي حافظ عليه في حياته التـي تخطّت عتبـةَ الثمانين عامًا كان يروي غُلّـة الكثيرين. أجل، كان ﷺ يعبّر عن هذه الحقائق التي لا تسعها المجلدات بثباته وشموخه.

وقياسًا على الواقع فإن عوامّ المؤمنين قد وثقوا منذ أمدٍ بعيدٍ بهؤلاء الفضلاء الذين بلغوا هذا المستوى من التوجه إلى الله، واطمأنّوا إلى كلامهم وأفعالهم فاتبعوهم واقتدوا بهم، غير عابئين بالاستدلالات العقلية والقياسات المنطقية، متّخذين من مواقف هؤلاء موقفًا لهم، ومن وجهتهم وجهةً لأنفسهم.

الانبعاث في أفق القلب والروح

ظهرت حركات الانبعاث والتجديد في أزمنةٍ مختلفة على أَضْرُب متفاوتة، بيد أن نجاح عمليّة التجديد في المجتمع كان محصورًا بمن اتجهوا إلى عالمهم الداخلي، واستغرقوا في محاسبتهم لأنفسهم، وعاشوا وفقًا لأفق أرواحهم، وقضوا عمرهم في فلك الحياة القلبية والروحية، ولم يكن النجاح حليفًا لأولئك الذين أهملوا أفق القلب والروح، واكتفوا بعقلهم ومنطقهم فحسب، وأخذوا يحدّثون الناس بعلمٍ يفتقر إلى العمل.

لقد كان أبطال القلب والروح يربضون خلف حركات الانبعاث والتجديد، ويمكننا أن نمثّل لهذه الأنفاس الباعثة على الحياة بعددٍ لا حصر له من أرباب القلوب على اختلاف مشاربهم ومسالكهم؛ فهؤلاء العظام نذروا أنفسهم في سبيل الحقّ، دون تشوّفٍ أو تفكيرٍ إلى أيّ أجرٍ دنيويٍّ أو في أيّ ثمرةٍ تُجنى من العمل، بل ربّوا في المحيط الذي شكّلوه حولهم رجالَ قلبٍ وروحٍ أعظم ممن تُرَبُّونهم وتُعَلِّمُونهم في ألفِ مدرسة من مدارسكم.

ولا يُفهم من كلامي أنه لا بدّ من غَلق الباب دون العلم والحقائق العلمية، أو أن العلم والحقائق العلمية غير صالحَين بالنسبة لنا، فلا جرم

أن العلـم وسـبلَ تحصيله والحقائـق العلمية تُعدّ مقومـاتٍ مهمّةً لانبعاثنا من جديد، أما ما نتحدّث عنه هنا فهو ما تُحدثه قدسـيّةُ المصدر من تأثيرٍ بالـغ الأهمّيّـة؛ لأن هذا أمـرٌ يتخلّله الصدق والإخـلاص والقرب من الله والارتبـاط به والولاء لـه، وإنّ هذه العناصر لتحوي أسـرار التأثير العميق في نفسِ المخاطب.

التشاركية في الأعمال الأخروية

سؤال: تطرق الأستاذ بديع الزمان سعيد النورسي في مؤلفاته إلى أن إجمالي الثواب الناتج عن التشارك في الأعمال الأخروية سيُكتَبُ بتمامه في دفتر حسنات كلِّ فردٍ شارك في هذه الأعمال، فما الشروط التي ينبغي مراعاتها لنيل هذه البشرى وذاك الثواب؟

الجواب: تكلّمَ الأستاذ بديع الزمان ﵀ بشكلٍ جليٍّ واضح حول مسألة التشاركية في الأعمال الأخروية، وذكر أن كلّ فرد في الخدمة الإيمانية والقرآنية سيتشاركُ مع الآخرين فيما أحرزوه من ثواب[٦٥]، ولا أذكر أنني صادفتُ قبلَ الأستاذ النورسي أحدًا تناول هذه المسألة بهذا القدر من الوضوح والبيان، لا في كتب التصوّف ولا التفاسير ولا غيرها من المؤلّفات الإسلاميّة الأخرى، حتى وإن تطرّق بعض العلماء الأجلّاء من القدامى والمعاصرين إلى هذه المسألة إلا أنّ بيانات الأستاذ النورسي حولها تفرّدت بكونها غايةً في الجلاء والوضوح.

---

(٦٥) انظر: بديع الزمان سعيد النورسي: **اللمعات**، اللمعة الحادية والعشرون، الدستور الرابع، ص ٢٢٦.

إن ما يقوله بديع الزمان ﷺ ليتناسبُ تمامًا مع لطافةِ العالم الميتافيزيقي النوراني؛ لأن الأشياء النورانيةَ تنعكس بعينها، فلو افترضنا أن هناك مصباحًا في غرفة بها أربع مرايا موزعة على الجدران، فلا شكَّ أن ضوء هذا المصباح سينعكس بعينه على جميع المرايا في نفس اللحظة، وهكذا فإن الثواب الحاصل عن الاشتراك في الأعمال الأُخرويّة سيُكتب كاملًا بفضلٍ من الله وعنايته في دفتر أعمال كلّ مشاركٍ في هذه الأعمال.

وجهةُ نظرٍ تعتمد على القرآن والسنة

وبدهيٌّ أنّ الأستاذ النورسي استقى هذه الأفكار من المبادئ الأساسية للقرآن والسنة؛ لأننا إذا ما نظرنا إلى القرآن الكريم المعجزِ البيان والسنة النبوية الشريفة سنجدُ أنّ توفيق الله تعالى مرهونٌ بالوفاق والاتفاق، وأن الأعمال التي تخيّم عليها روحُ الوحدة والتضامن تُكافأُ بثوابٍ وبركةٍ من نوعٍ خاص، فمثلًا يقول ربنا ﷻ في كتابه:

﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللّٰهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللّٰهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللّٰهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ (سورة آلِ عِمْرَانَ: ٣/١٠٣).

ويقول تعالى في آيةٍ أخرى:

﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللّٰهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (سورة الأَنْفَالِ: ٨/٦٣).

وهكذا تشير هاتان الآيتان إلى أن النجاح والتوفيق اللذين يصبّان في مصلحة المجتمع يعتمدان على الوفاق والاتفاق بين المسلمين.

إن التشاركيّة في العمل وسيلةٌ لإحراز كثيرٍ من النجاحات العظيمة حتى في الأعمال الدنيوية، وإليكم هذين المثالين اللذين ضربهما الأستاذ النورسي رحمه الله:

المثال الأول: قام عشرة من صُنّاعِ إِبَرِ الخياطة بعملهم، كلٌّ على انفرادٍ، فكانت النتيجة ثلاثَ إبرٍ فقط لكلٍ منهم في اليوم الواحد، ثم اتفقوا على العمل حسب قاعدة "توحيد المساعي وتوزيع الأعمال" فأتى أحدُهم بالحديد والآخر بالنار وقام الثالث بثقبِ الإبرة، ثمّ أدخلها أحدهم إلى النار وبدأ الآخر يحدّها، وهكذا دواليك... فلم يذهب وقتُ أحدهم سدًى، حيث انصرف كلٌّ منهم إلى عملٍ معيّن فأنجزه بسرعة، لأنه عملٌ جزئيٌ بسيطٌ أوّلًا، ولاكتسابه الخبرةَ والمهارةَ فيه ثانيًا، وحينما وزّعوا حصيلةَ جهودهم رأوا أن نصيبَ كلٍّ منهم في يومٍ واحد ثلاثمائة إبرة بدلًا من ثلاث إِبَر.

والمثال الثاني: اشترك خمسةُ أشخاص في إشعال مصباحٍ زيتي، فوقع على أحدهم إحضارُ النفط، وعلى الآخر الفتيلة، وعلى الثالث زجاجة المصباح، وعلى الرابع المصباح نفسه وعلى الأخير علبة أعواد الثِّقاب... فلمّا أشعلوا المصباح أصبح كلٌّ منهم يتمتّع بمصباحٍ كامل، فلو كان لكلٍّ من أولئك المشتركين مرآة كبيرة معلّقة بحائط، لانعكس في مرآته مصباح كامل من دون تجزُّؤٍ أو نقصٍ[٦٦].

نعم، الاشتراكُ في الأعمال الدنيوية يُفضي هكذا إلى سهولة العمل وحصول البركة فيه، ومن يُدرك هذا يستطعْ أن يعيَ بطريق الأولى كيف أن البركة والفيوضات تحفّ الأمور الأخرويّة النورانيّة الشفّافة جرّاء ارتكازِها على مبدإ التشاركية.

---

(٦٦) بديع الزمان سعيد النورسي: المصدر السابق.

ومـن هنا نقول: إن إجماليَّ الثواب الناتج عن الخدمات الجليلة التي تحقّقت اليوم بفضلٍ من الله وعنايته في أنحاء العالم وفي كلّ مناحي الحياة ستنعكس وتُسَـجَّلُ بتمامها -بسـرّ التشـاركيّة في الأعمال الأخروية- في دفتر أعمال كلِّ فردٍ هَرْوَلَ وسـعى في هذا السـبيل؛ بمعنى أن كلَّ فردٍ في هذه الدائرة الواسـعة سيسـتفيد مِن سعي وجهد الملايين مثله، وعلى ذلك فإن تجاهلَ الثواب العام والتكالبَ على المصالح الفردية والرزوحَ تحت الأنانيـة وأغـلالِ الكبـر والغرورِ يعنـي الحرمانَ من هذا الثـواب الجزيل؛ لأن الإنسـان مهمـا كانـت قابليّاته وقدراتـه، حتى وإن كان على مسـتوى دهاء خمسـين من العباقرة فلن يمكنه وحـده أن يقوم بخدمةٍ دائمةٍ ونافعةٍ للإنسانية في هذا العالم، ولن يحوز أيضًا هذا الأجرَ الأخرويَّ الجزيل.

جوهر العمل: الإخلاص

وإننا إذا ما ألقينا نظرةً إجماليّةً على ما ذكره الأستاذ النورسي في هذا الصدد سـنرى أن ثمّة شروطًا خاصّةً لاستحقاق مثل هذا الثواب الجزيل، وهذا يدعونا إلى أن نسأل أنفسنا: ما الوضـع الذي ينبغي لنا أن نكون عليه في هذه الخدمات التي نحاول أن نرعاها ونلتفّ حولها؟ وكيف نسـير في هذا الطريق معًا؟ وكيف نتآلف ونتّحد معًا حتى نحظى بذلك الثواب؟

لقـد وضـع الأسـتاذ النورسـي مبـدأ "التشـاركيّة المبنيـة علـى سـرّ الإخـلاص" شـرطًا أوّليًا لإحـراز مثل هـذا الثواب، والإخـلاص هو: أن يكـون الأمـرُ الإلهـيّ هو الدافـعَ إلى العمـل لا غير، وألّا ينتظر الإنسـانُ لعمله ثمرةً سوى رضا الله ﷻ، ثم يترك جَنْيَ ثمار هذا العمل إلى الآخرة، ولـذا فـإن المُخْلِص الحقيقيّ فـي الأمور الأخرويّة لا يهمّه سـوى إنجاز الخدمات الخيرية، بغضّ النظر عمّن يقوم بها، سواء أقامَ بها هو أو غيرُه،

وبتعبير آخر: المهمّ هو أن نئنّ أنينَ الناي مع القلوب المهمومة التي تخفق معًا فتبعث النشوة في قلوب الناس، أو أن نشكّل جوقة نبلّغ بها الحقّ والحقيقة إليهم، ونوصّلهم إلى الحضرة الإلهية بأن نجعلهم يعيشون أشكالًا من "الوجد"، و"القلق"، و"الهيمان".

فإذا كان هذا هو المقصد والهدف، فعلى الإنسان أن يشعر بسعادةٍ عارمةٍ عند تَحَقُّقِ الغاية المنشودةِ بغضّ النظر عمّن حقّقها، بل عليه أن يسعدَ وكأنّه هو مَن حقّقها، ويضرب الأستاذ النورسي مثالًا في هذا السياق فيقول: "جاءني "الحافظ علي"، وقلت له: "إن خطّ الأخ "فلان" أجودُ من خطّك وأنه أكثرُ منك عملًا ونشاطًا"، وإذا بي أجد أن الحافظ علي يفتخر بإخلاصٍ وصدقٍ بتفوّق الآخر عليه، بل التَذَّ بذلك وانشرحَ؛ وذلك لأن الآخر قد تقدّم عليه في الخدمة في سبيل الله، ولقد راقبتُ قلبه وأمعنتُ فيه بدقّة، وعلِمتُ أنه ليس تصنّعًا قطّ، بل شعرتُ أنه شعورٌ خالصٌ"[٦٧]، فيا له من مثالٍ جميلٍ ومحفّزٍ على التشاركيّة في الأعمال بسرّ الإخلاص!

وبالشكلِ نفسِه يُشبّه الأستاذ بديع الزمان هذه المسألة بحَملِ كنز عظيم ثقيل والحفاظِ عليه، ويقول بضرورة أن يُسَرَّ حامِلُو هذا الكنز العظيم من اشتراك غيرهم من الأقوياء الساعين إلى مساعدتهم. أجل، ينبغي أن يأخذ كلّ واحدٍ منّا بطرفٍ من هذا الكنز فيساهم في حمله، دون أن يفكّر أبدًا من أيّ طرفٍ أمسكَ فحملَ، وما دام لكل مشتركٍ في حَمْلِ الكنز نصيبٌ منه فإنه ينبغي لكل فرد أن يفيَ بحقّ العمل الواقع على عاتقه فيما يتعلّق بهذا الكنز وألا يُخاصِمَ أو يُشاحِنَ أحدًا.

(٦٧) بديع الزمان سعيد النورسي: **الملاحق**، ملحق بارلا، ص ٥٤.

أما النجاحُ والوصول إلى سرّ الإخلاص هذا فلا يتحقّق إلا بالانسلالِ من صبغة النفس والأنانيّة، والاصطباغِ بروح الجماعة، ثم الافتخارِ بمزايا الأصحـاب؛ فالحقيقة أن مَن ارتبط قلبيًّا بالخدمة الإيمانية والقرآنية ينبغي له ألّا ينسى أبدًا أنّه ينشد مسؤوليّةً ووظيفةً مهمّةً جدًّا تفوق وتسمو فوق كلّ مظاهر الشهرة والألقاب والنياشين، بل إنّه لو قيل لِمَن هو على وعيٍ وإدراكٍ بالطريق الذي يسير فيه: "هنيئًا لك... أنتَ فعلتَ كذا وكذا"، لكان الجوابُ: "لا أتذّكر، ولا أظنّ ذلك، لقد اجتهد الأصدقاء وسعوا كثيرًا، وربّما أنني كنتُ موجودًا بينهم في تلك الأثناء"، وهذا هو سرّ الإخلاص ومقياس التشاركيّة الذي تحدّث عنه الأستاذ.

روح الأخوّة والتضامن

لقد لفتَ الأستاذُ الأنظارَ إلى "التساندِ المبنيّ على سرّ الأخوّة" باعتباره الشرط الثاني للاستفادة من التشاركيّة في الأعمال الأخرويّة؛ إذ إنّ التساند والتعاضد يتحقّق حيث توجدُ الأخوّة، ذلكَ أنّ سيدنا رسول الله ﷺ بينما كان يتحدّث عن رابطة الأخوة بين المسلمين لفت الانتباه إلى العلاقة التي بين أعضاء الجسد الواحد، فقال ﷺ: "**مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادِّهِمْ، وَتَرَاحُمِهِمْ، وَتَعَاطُفِهِمْ مَثَلُ الْجَسَدِ إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهَرِ وَالْحُمَّى**"[٦٨]؛ فالأعضاء تشعر بالسّهَرِ والحمّى إن أصاب أحَدَها ضررٌ أو ألمٌ وتستجيبُ له بأن تشاركه حالَه تلك، والأمر كذلك تمامًا بالنسبة للمؤمنين؛ إذ ينبغي لهم أن يُكَوِّنوا رابطةَ أخوّةٍ حقيقيّةٍ صادقةٍ فيما بينهم كتلك التي بين أعضاء الجسد الواحد؛ فإذا ما حدث أيُّ حادث في المجتمع الإسلاميّ تأثّرَ كلّ واحدٍ منهم بذلك وتألّم له.

(٦٨) صحيح البخاري، الأدب، ٢٧؛ صحيح مسلم، البر، ٦٦.

أجل، إن القلوب المؤمنة التي نذرت أنفسها للحقّ يجدر بها أن تتعاضدَ وتتساندَ مثل أحجار القبّة كي لا تتهاوى فتسقط، عليها أن تتكاتَفَ مع بعضها، وألا تسمح بتَعثُّرِ أيٍّ من رفاق الدرب طوال الرحلة التي يقومون بها، فإنْ توحَّدَ كلُّ رجال الخدمة في إطار هذا الفهم وصاروا جسدًا واحدًا، وعاشوا الحالة الروحيّة نفسَها، ووصلوا إلى الوحدة والتعاون الحقيقي فلسوف تفيض حسنات الملايين على دفتر كلِّ فردٍ منهم على نحوٍ مستقلٍّ دون أن ينقصَ من أجر أحدهم شيءٌ.

التحرّك والسعيُ وفقًا للعقل الجماعي

الشرط الثالث هو "توزيعُ المساعي المبنيُّ على سرّ الاتحاد"؛ أي اقتسام الأعمال والمسؤوليات والوظائف والمهام المطلوب إنجازها بروح الوحدة والاتحاد، وبعبارةٍ أخرى: اكتسابُ ملَكَةِ العمل والتحرُّك الجمعيّ، والحذرُ كلَّ الحذرِ من التحرُّك الفرديّ، ولأجل هذا ينبغي تقسيمُ الوظائف قبل الشروع في أيّ عملٍ، ويجب على كلّ شخصٍ أن يقوم بما يستطيع القيام به، ويفعل ما يُبدع هو في عمله وأدائه.

وبعد الوفاء بهذه الشروط الثلاثة إن اجتمع رجال الخدمة وتشاوروا فيما بينهم بأن أَودعوا أمرهم إلى العقل الجماعي فلن يسقطوا -بإذن الله وعنايته- في الأخطاء التي سقط فيها العقل الفرديّ؛ لأنّ وصول عشرة عقول مجتمعة إلى نتيجةٍ خاطئةٍ يمثّل احتمالًا نسبتُه واحد في المليون؛ فإن كان عدد العقول التي تشاورت وتناصحت "عشرين" فإن نسبة احتمال وقوعها في الخطإ سوف تقلّ بذلك القدر.

ومن هنا فإن القيام بالشؤون والأعمال ارتباطًا بالوعي الجمعي أمرٌ مهمٌّ جدًّا، ولا ينبغي لإنسان -حتى وإن كان يمتلك من التدابير العبقريّة

الخارقة ما ليس لأحدٍ- أن يتصرّف بمفرده فيما يتعلّق بالمصلحة العامة والمجتمع من قضايا، وإنني لا أعلم في تاريخ الإنسانية أَحدًا تحرّكَ بمفرده وقرّرَ بنفسه فاستطاع بعد ذلك أن يحقّق نجاحًا مستمرًّا وتوفيقًا دائمًا. أجل، لم تستمرّ نجاحات "سزار (*Sezar*)" ولا "نابليون (*Napolyon*)" ولا "هتلر (*Hitler*)" ولا "موسيليني (*Mussolini*)"، بل لم يبق منها أيُّ شيء، لقد لَمَعَت في البداية كالنار في الهشيم، ثم ما لبثت أن خَبَت وانطفأ وميضُها بعد فترة قصيرة، لتبقى آثارها كومةً من الأنقاض المؤسفة المحزنة، أما الروّاد الحقيقيّون الذين يلجؤون إلى الوعي الجمعي فقد وُفِّقُوا ونجحوا بقدر ما ربطوا القضايا والأمور بمبدإ المشورة؛ فأنشؤوا مستقبل المجتمع الذي ينتسبون إليه بفضلِ ما حقّقوه من خدمات.

والحاصل: أن طريق الوصول إلى مَا تَعِدُ به التشاركيةُ في الأعمال الأخروية دنيا وآخرة هو: النية الصادقة والإخلاص، والعقل المشترك والوعي الجمعيُّ مع روح الأخوة والتضامن.

الشورى المثـاليـة

سؤال: ما هي أصول وآداب الشورى في الإسلام؟

الجواب: لقد بيّن القرآن الكريم بشكلٍ صريحٍ وواضحٍ لا يحتاج إلى تفسيرٍ أو تأويل أن الشورى وصف ملازم لجميع المسلمين، وأمرَ القلوب المؤمنـة بتطبيق هذا المبـدإ الذي لا غنًى عنه في كلّ نواحي الحياة. فمثلًا يقول تعالى في سورة الشورى:

﴿وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ (سورة الشُّورَى: ٣٨/٤٢).

واقتـرانُ الشـورى بالصـلاة والإنفاق في هـذه الآية يدلّ علـى أهمّيّة الشـورى فـي المجتمع المؤمن وأنها عملٌ يعـادل العبادة، كما أن إطلاق اسـم "الشورى" على هذه السـورة لكونها تتضمّن نصًّا يتعلّق بها له مغزًى عميق.

وفي آية أخرى يأتي الأمر بالشورى صراحة، قال تعالى:

﴿فَبِمَـا رَحْمَةٍ مِـنَ اللّٰهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْـتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْـبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْـتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَـاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللّٰهِ إِنَّ اللّٰهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ (سورة آلِ عِمْرَانَ: ١٥٩/٣).

الشورى.. حتى في لحظات الغضب والانكسار

ولا يعـزب عـن علمكـم أن هذه الآية الكريمة قد شـرّفت بنزولها في أحلك اللحظات؛ إذ إن نزولها كان بعد تزعزُع مؤقّتٍ تعرّض له المسلمون خلال غزوة أُحُد وكان سيدنا رسول الله ﷺ قد استشار أصحابه فيما يتعلق بالخروج إلى الغزوة، ثم قرر الخروج نزولًا على رأي أصحابه، لكن بعض الصحابـة رضوان الله تعالى عليهم أجمعين قد وقعوا -عن غير قصدٍ- في مخالفـة أمر رسـول الله ﷺ خلال المعركة؛ لعدم اسـتيعابهم بعدُ الدقّةَ في امتثـال الأمر النبويّ اسـتيعابًا كاملًا، فتعرّضوا حينذاك لهـزّةٍ مؤقّتةٍ -أقول هـزّة حتـى أتجنّب التعبير بكلمة الهزيمة-، وجُرح رسـول الله ﷺ، وسـال الدم المبارك من وجهه الشريف، واستُشهد الكثير من الصحابة رضوان الله تعالـى عليهم أجمعين، وفي هـذا الموقف المتأزِّم تنزل هذه الآية الكريمة التي يستهلّها ربُّنا تبارك وتعالى بملاطفة حبيبه ﷺ فيقول:

﴿فَبِمَـا رَحْمَةٍ مِـنَ اللهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْـتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْـبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ (سورة آلِ عِمْرَانَ: ٣/١٥٩).

ويمكننـا أن نوضّح المعنى المراد من هـذه الآية الكريمة فنقول: أيّها الحبيـب المتأدّب بأدب ربّه، لسـتَ -قـطّ- فظًّا غليظًا حـادَّ الطباع، إذ لو كُنـتَ كذلـك لَمَا التفّ هؤلاء الناس حولك وما خرجوا معك إلى سـاحة المعركـة، ولَانفَضُّوا مِن حولـك، أيها الحبيب المتأدِّبُ بأدب ربِّه، إن كان قـد وقــع منهم خطأٌ في الاجتهاد **﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْـتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَـاوِرْهُمْ فِي الْأَمْـرِ﴾** أي لا تتـوانَ في أمر الشـورى فشـاوِر مَن حولك مـن الناس مرة أخرى.

أجل، لقد أحدَثَتْ هذه الهزّة النسبيّة اختلالًا واضطرابًا في كلّ شيءٍ، وانفطر القلب النبويّ فهو لا يخرج عن كونه بشـرًا، وفي هذه الأثناء التي جُرحت فيها مشاعر الكثيرين من الصحابة ﷺ تنزل هذه الآيةُ اللطيفة التي تأمر بالتشاور بالأمر من جديدٍ، والحال أن سيدنا رسول الله ﷺ لم يكن في حاجةٍ إلى التشـاور، فقد كان صلوات ربّي وسـلامه عليه -كما ذكر سيدنا أبو بكر الصديق ﷺ- دائمَ الاتّصال بالسـماء صباحَ مسـاء، وقد أطلعه ربُّه على ما سيقول وما سيُقدم عليه من خطوات وما سينجزه من أعمال، ولم تُعرقـل دعـوةَ النبـيّ ﷺ عقبـةٌ ما، فإذا مـا واجهتهُ عقبةٌ؛ مهّد الله له السـبل وأفسـح له الطرق وقال له: "سِـرْ، فالطريق طريقُك والزمان زمانُك"، لكن الرسـول الهـادي الأكمـل -ليس في زمانـه فقط بل فـي كلّ الأزمنة- كان يشـاور أصحابـه ليوجِّه أمتـه المكلّفة باتباعه قائلًا بلسـان الحـال: "كونوا كمـا تكونـون؛ رؤسـاء، أو ولاة، أو إدارييـن، ولكن لا تختزلـوا الأمر في وجهـة نظركم، واستشـيروا غيركم ولا تُخضعوا الأحـكام التي تصدرونها لأهوائكم الشخصية".

الشورى تضمن شراكة الجميع في الأمر

الشورى مسألةٌ مهمّةٌ جدًّا في الفعاليات والقرارات المتعلّقة بالجميـع، حتى يصبح الأمرُ أمرَ الجميـع، فإن أسـهم الإنسـان برأيه في أمرٍ ما، وإن كان رأيًا عاديًا اعتبر نفسَـه جزءًا من هذا الأمر، وحمل على عاتقه إنجازه وإن كان ثقيلًا، لكن إن لم يؤخَذ رأيُه واقتراحاته ولم يساهم بعقله وفكره في الأمر؛ فإنه سينأى بنفسه عن التدخُّل فيه وسينفض يديه عنه، فالواجب إذًا العمـلُ علـى أن يسـتوعب الناسُ أن القيام بالأمور المهمة يشـبه حَملَ كنزٍ كبير، والحرصُ على مشاركة الآخرين في الأمر حتى تتكاتف الأيادي

وتتضافـر الجهـود ويخفّ هذا العـبء الثقيل، ومن ثمّ فيمكننـا القول إذا أُهملَ مبدأُ الشـورى في الأسـرة سـاد التوتر والاضطراب في أرجاء هذه الأسـرة، وإن أُهمـل داخـلَ هيئـةٍ أو مجتمـعٍ لحقهما الضـرر الكبير، أما إن أهملـت على مسـتوى الدولـة أفضى ذلك إلى وقوع الكثيـر من التوتّر والاضطرابات والمشاكل على نفس المستوى.

أجـل، يقول الصـادق المصدوق ﷺ: "**ما نَدِمَ مَنِ اسْتَشَـارَ**"(٦٩)، ويُفهم مـن إطـلاق اللفظ هنا أنه لا بدّ من تطبيق هذا المبدإ في كلّ نواحي الحياة على أن تكون البداية من أصغر دائرة.

آداب المناقشة والمدارسة عند الشورى

وبعـد أن تطرّقنـا بإيجازٍ إلى ضـرورة وأهمّية الشـورى عمومًا؛ نعرّج الآن على شروط الشورى المثاليّة:

بدايةً أقول: إن اتّخذ الفرد قرارًا بينه وبين نفسه واعتبره من المسلّمات، ثم حاول نسج كلّ المسائل وفقًا لهذه المسلّمات فهذا يعني الجهلَ بروح الشورى، وحتى لا يتدخل الشخص بهواه في الأمر، ولا يحسبن هواه هو عين العقل والمنطق؛ ينبغي له أن يقيّم الآراء التي ترِدُ على خاطره -بشأن الأمور المناط التشاور حولها- بعقلٍ وحسٍّ وقلبٍ سليم، فضلًا عن حواسّه الباطنيّة، ويسـجّل ملاحظاته حيال ذلك، ويحـدّد إطار الموضوعات التي سيتمّ التشاور حولها، وبعد ذلك يطرح الموضوعَ على طاولة المشاورات، وليـس مـن الصواب توقُّـع حسـن القبـول دائمًا لأفكارنـا المطروحة عند التشاور حتى وإن كنّا نعتقد أصالةَ وَجَودَةَ هذه الأفكار والمقترحات، ومن ثمّ فإذا لم تلقَ مقترحاتُنا في مجلس الشورى حسنَ القبول؛ فعلينا أن نقول

(٦٩) الطبراني: **المعجم الصغير**، ١٧٥/٢.

لأنفسنا: "معنى ذلك أنني لم أستوعب المسألة تمامًا أو أنني أخطأت في فهمها"، ولا نعاند أو نصرّ على آرائنا.

أما عن الأصول التي يجب اتّباعها في الشورى؛ فهي المناقشة والمدارسة، وهما لا يعنيان قطعًا الجدال والخلاف، وقد حُرّرت في آداب المناقشة والمناظرة عدةُ مؤلفات، ووُضِعت لها مبادئ وضوابط حتى تتمحور حول الكتاب والسنة، والمناظرة تعني في الحقيقة: مقابلةَ النظائر في مسألة ما، فمثلًا عند التشاور في مسألةٍ خاصّةٍ بالاقتصاد نجد أن كلّ الآراء تشبه بعضها بعضًا لأن الموضوع يدور حول الاقتصاد، والهدف الحقيقي هنا هو تبلوُر الحقيقة وظهورها؛ لأن "بوارق الحقيقة تتجلّى من تصادم الأفكار"[٧٠]، أما الخلاف والجدال فلا يولّدان ومضات الحقيقة، بل التفرقةَ والانقسام؛ لأن الأصل في المناظرة هو الإنصاف واحترام رأي الآخر، أما الجدال فالشأن فيه الإصرار على الرأي ومحاولة إيقاع الخصم في موقفٍ حرجٍ.

وفي الواقع لا يُمنى المغلوب بأيّ خسارةٍ عند التشاور في أمرٍ ما؛ لأنه حينذاك يدرك خطأ رأيه، ويتعلّم شيئًا جديدًا لم يعرفه من قبل، أما الغالب فما فعله هو أن كرّر رأيه في المسألة فحسب، وربما يصيبه الكبر والغرور ويقول: "انظروا لقد كنتُ محقًّا في رأيي".

الشورى ليست وسيلةً لإرغام الآخرين على تقبّل أفكارنا

وإنّ أهم مقياسٍ في تقويم المسائل بضوابط الإنصاف والضمير خلال الشورى ذلك المقياس الذي يذكره القرآن الكريم عند الحديث عن ميزان الأعمال، يقول تعالى:

(٧٠) "**ضياء باشا** *(Ziya Paşa)*" (١٨٢٥-١٨٨٠م): شاعر تركي، كان من دعاة التجديد، له ديوانان "ظفرنامه" و"خرابات" في ثلاثة مجلدات.

﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۞ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ (سورة الزَّلْزَلَةِ: ٩٩/٧-٨).

بمعنى إن رجحتْ كِفّة الشر ولو بمقدار ذرّةٍ على كِفّة الخير فيما طُرِح من آراء حول أيّ مسألةٍ فعلينا أن ننحّي هذه الآراء جانبًا، والعكس صحيح فإن رجحت كفّة الخير ولو مثقال ذرّةٍ أيضًا على كفّة الشرّ فعلينا الأخذ بالرأي المطروح والتمسّك به، كما هو الشأن في ميزان الأعمال فما دام الحقّ ﷻ جعل رجحان الخير على الشر ميزانًا لعباده وحكم بذلك فعلينا نحن أيضًا أن نجعل هذا الأمر دستورًا لنا عند تشاورنا، وعلى ذلك فإن رجحتْ كفّة الخير لرأيٍ من الآراء المطروحة ولو مثقالَ ذرّة فلا عبرة حينذاك للأقدميّة واللقب والمنصب والشهرة والنفوذ؛ فإنّ اتّخاذ مثل هذه الصفات معيارًا رغم سطوع الحقيقة ووضوحِها واستغلالَ عناصر القمع والإجبار؛ يعني تدميرَ روح الشورى.

أجل، لا بدّ أن تخلو الشورى من عنصر القمع وفرض الأفكار، فأفضل الناس هو ذلك الشخص الذي يجلس في مجلس الشورى مع ذوي الأراء الأخرى وكلُّه آذانٌ صاغيةٌ فإذا انتهى أحدهم من عرض فكرته يقول له: "أنت محقٌّ في هذا الأمر، وأنا أؤيّد كلّ ما ذكرتَه، ولكن بجانب هذا فقد لاحتْ فكرة بخاطري، فما تقولون بشأنها؟"، وهذا هو الإنسان الشريف الذي يحافظ على شرف المشورة، أما مَن لم يعبأ بمسألة الإنصات إلى الطرف الآخر ويعتقد صحّةَ رأيه دائمًا فهو إنسان مسكينٌ غلبته نفسه فاتخذها إلهًا، ومثل هذا المسكين الذي أسْلَسَ قيادَه إلى نفسه وخضع لها، إن تحدّث فإنما يتحدّث لحساب نفسه في الحقيقة وإن ظنّ أنه يتكلّم باسم الدين والخدمة، ولا شك أنّ ما يطرحه من أفكارٍ سيُقابل على الدوام بردّ فعلٍ سلبيّ.

مـن أجل ذلك يجب على الإنسـان أثناء التشـاور أن يتجنّب الفظاظة والغلظـة فـي أقواله وأفعالـه وتصرُّفاتـه، وأن يهذّب أفـكاره حتى يضمن حسـن القبـول لها، فإن لم يتخلّ الإنسـان عن حدّتـه وغلظته ولم يعرض أفكاره بأسلوبٍ لطيفٍ ليّنٍ استاء الآخرون وامتعضوا.

الأولوية للحقّ لا للأقدميّة والمنصب

ثمّـةَ أنـاسٌ ضعـافُ النفـوسِ يحاولـون خلال الاستشـارة اسـتغلالَ أقدميّتهـم ونفوذهـم، وإرغامَ الآخريـن على تقبّل أفكارهـم، ومثل هؤلاء الناس يسـتغلّون صراحةً -وإن كان بلا قصدٍ- خدماتهم التي يبذلونها من أجل الدين؛ في سـبيل تكريس أقدميّتهـم وتعزيز مناصبهم، والحال أنه لا يحـقّ لأحدٍ أن يحجب اليمنَ والبركةَ التي تفيض بها الشـورى بمثل تلك التصرفات الأنانيّة النفعيّة.

وفـي هذا الصددِ نورِدُ الواقعة التالية: اجتمـع الإمام الحسـن البصري مـع بعض الصحابة ﷺ في مجلسٍ واحد، كان الذين يغشون هذا المجلس يوجّهون الأسئلة للصحابة ﷺ ويراجعونهم، والحقّ أن هذا هو الذي يجب أن يكون؛ لأن هؤلاء الصحابة الكرام ﷺ قد شهدوا مجلسَ رسول الله ﷺ واصطبغوا بجوِّ هذا المجلس المبارك، وأعتقد أن شـهود مجلس رسـول الله ﷺ ولـو لمرّةٍ واحدةٍ هو وسـيلةٌ لتنـزُّل الفيوضات والبركات بما يُعادل قراءة القرآن الكريم كاملًا عشر مرّات؛ لأن الحقّ تعالى كان يتجلّى في كلّ أفعاله ﷺ وتصرّفاته، وكلّما نظر أو استمـع أو تكلّم أو حرّك لسانه وشفتيه تبـدّت حقائـق إيمانه بـالله تعالى، ويعبّر الشـاعر الصوفي عـن هذا الحال بقوله: كُلَّمَا سَجَدَ تَجَلَّى اللهُ.

بمعنى أن من ينظر إلى سيدنا رسول الله ﷺ وهو ينمحي أمام ربّه تعالى في سجوده يشعر بوجود الله تعالى بل وكأنه أمامه ﷻ، ولا يعني ذلك أبدًا -معاذ الله- أن الذات الإلهيّة قد حلّت في الذات النبويّة، بل إنّ هذا تأكيدٌ على أن النبيّ ﷺ كان يعبّر عن ربّه في كلّ أفعاله وتصرّفاته، ولا جرم أن الصحابة الكرام ﷺ الذين يغشون مجلسه ﷺ كانوا يعيشون جوًّا متميزًا، فإذا تصوّرنا أن هؤلاء الصحابة كانوا يرتبطون به ﷺ قلبيًّا وظلوا طوال عمرهم حريصين على شهود مجلسه ﷺ عدّة مرّاتٍ في اليوم؛ لأدركنا قيمة الإنصات لكلام هؤلاء الصحابة والتشاور معهم، فضلًا عن ذلك كانت الحياةُ بكلِّ مجالاتها الاقتصاديّة والإداريّة والاجتماعية تتمحور حول الدين، وترتبط بنصوصه، ولذا كان الناس يلجؤون إلى قواعد الدين الراسخة الثابتة في مسألة حلّ المشكلات الحياتية، وهذا هو السبب في أن الناس في زمان الإمام الحسن البصريّ ﵀ كانوا يتردّدون على سادتنا الصحابة الذين نهلوا من منبع الدين وما زالوا على قيد الحياة للاستفادة منهم وتبادُلِ الرأي معهم.

وفي مجلسٍ كان يجمع بين أحد الصحابة ﵃ والإمام الحسن البصري طُرح سؤالٌ على هذا الصحابي، فأجابَ، فلما انتهى من الجواب جاء دور الحسن البصريّ ﵀ في الكلام، وكان يجلس في الخلف، فلما شرع هذا الشاب -الذي يتراوح عمره ما بين الخامسة والعشرين والثلاثين عامًا- في الكلام أخذتْ الصحابيَّ الدهشةُ والحيرة، فقال ذلك الصحابي المنصِف الذي يدور مع الحقّ أينما دار بما تعلّمه من أخلاقٍ على يدِ سيدِنا رسول الله ﷺ: "كيف تسألوننا وهذا الرجل بينكم؟".

نعم، كما شاهدنا في هذا المثال لم يستخدم الصحابي الكريم تبعيتَه لرسول الله ﷺ والمكانةَ والمنزلةَ التي تبوّأها بصحبته لرسول الله عليه أكمل التحايا عنصرًا للضغط والإجبار، ولكنه وجّه الأنظار إلى ذلك الشاب لما رأى لديه من حصافة رأيٍ وتأثيرٍ قويٍّ في الكلام، فضلًا عن أنه كان يعتقد أن كلام هذا الشابّ هو أكثر نفعًا، وفي رأيي أن هذا هو الأسلوب الذي لا بدّ من مراعاته في استيعاب روح الشورى.

ومع الأسف تلاشتْ مسألة إحقاق الحقّ بهذا المستوى في أيّامنا، فمَن يتمتّع بقدرٍ من المكانة والمنزلة يريد أن يُسمَع له دائمًا وأن تنخرس ألسنةُ الآخرين عند حديثه، فضلًا عن ذلك نجد أن بعض الأفراد الذين يشكّلون مجلس الشورى بدلًا من الاستماع إلى كلام الآخرين يمهّدون الردود للاعتراض على كلامه، وأحيانًا يعاندون بلا داعٍ، ويشعرون بضرورة أن يقولوا شيئًا للردّ على ما يقوله الطرف الآخر، وليس هذا فحسب بل ينسجون أحيانًا أفكارًا شيطانيّة لإفحام الطرف المقابل، ومن ثمّ لا يمكن في مثل هذا الجوّ الاستفادة ممّا يطرحونه من أفكارٍ في مجلس الشورى وإن كانت عين الحقيقة.

بيد أن "شأن الحقّ عالٍ وسامٍ لا يُضحّى به بأيّ شيءٍ كان"[(٧١)]، ومن ثمّ لا بدّ من توجيه جميع الأقوال والأفعال إلى طريق الحقّ، وهذا ما أكّد عليه بديع الزمان سعيد النورسي، فقد أوصى هذا الجبلُ الأشمُّ طلّابَه ألا يأخذوا الكلام الصادر عنه على عواهنه لمجرّد أنه تفوّه به، فهو نفسه قد يُخطئ وينسى، فيا ليت الجميعَ يتحلّى بهذه السعة من الأفق! ولا يغيبنّ عن أذهاننا ألبتةَ أن "**كُلّ ابْنِ آدَمَ خَطَّاءٌ**"[(٧٢)]؛ ولسنا نحن مؤيَّدين بالوحي كما الأنبياء عليهم السلام.

---

(٧١) بديع الزمان سعيد النورسي: **السيرة الذاتية**، ص ١١٧.

(٧٢) **سنن الترمذي**، صفة القيامة، ٤٩؛ **مسند الإمام أحمد**، ٣٤٤/٢٠.

يكفي أن تُعبّر الحقيقة عن نفسها

مـن جانبٍ آخـر ينبغي لنا ألا ننزعـج أو نتضايق إن ظهـرتْ الحقيقة على يد الغير أو بفضلِ كلامهم، فإن كان هناك فكرة مقبولة معقولة وغيرُك يستطيع أن يطرحها فليس من السلوك الإيمانيّ أن تقول في نفسك: "لِم لا أتكلم أنا وأحظى بتقديرِ وإعجاب الجميع بما أقدّمه من أفكارٍ جميلةٍ؟" ولكـن إن دعـتْ الضرورة إلى الحديـث عن موضوعٍ ما ولـم يتكلّم أحدٌ وكان عـدم الـكلام سيتسـبّب فـي ضياع الحـقّ أو أن يعيش البعض شـيئًا مـن الحرمـان فيجبُ علينا حينذاك أن نقوم نحـن بمهمّة الحديث في هذا الموضـوع إحقاقًـا للحـقّ وإعلاءً لشـأنِه، وعلينا في مثل هـذا الموقف أن نراعي جيّدًا الجوّ العام ومدى تقبّله لِما يُقال؛ حتى لا يتسبّبَ هذا الأمرُ في ردِّ فعلٍ سـلبيّ، والأولى هو الصمت عند استشـعار عدم الاحترام للكلام، بل إنّ هذا ما يقتضيه احترامُ الإنسان للفكرة التي سيقدّمها؛ لأن المخاطبين إن أبدوا ردَّ فعلٍ على ما يُقال منذ البداية فمِن الصعب للغاية تقبّلهم للكلام فيما بعد وإن كان حقًّا، بل إن هؤلاء المخاطبين قد يُحاولون بشتّى الطرق فيما بعد أن يختلقوا مسوّغات مختلفة فيما بينهم لعدم تطبيق هذه الفكرة.

إذًا علينـا أن نؤثـر الصمت على الكلام إلى أن نستشـعر باحترام الجوّ العـام للحقيقـة، فحينـذاك لا بد مـن الحديث حتـى يسـتفيد الجميعُ من الفكرة المطروحة.

وعلى مَن يشاركون في عملية التشاور أن تكون غايتهم إحقاق الحقّ، لا سـيّما إن كانـوا مـن ذوي الكلمة المسـموعة فعليهـم أن يتصرّفوا بدقّةٍ بالغـةٍ فـي هذا الأمر؛ لأن مـن المعروف أنّ هؤلاء إن تحدّثـوا في أيّ أمرٍ لاقوا احترامًا بالغًا من مخاطبيهم، ولكن قد يتخلّل كلامَهم بعضُ الأخطاء

أيضًا، من أجل ذلك يجب عليهم إحقاقًا للحقّ ألا يخجلوا من الرجوع عن أخطائهم إن أدركوا خطأ كلامهم، ويتقبّلوا هذا الأمر برحابة صدرٍ.

فضلًا عن ذلك فإن تكلّم مَن لا حقَّ له في الكلام مع وجود مَن هو أولى به فقد يتسبّب هذا في إغفال المفيد من الكلام، وإثارة بعض الشائعات التي لا محلّ لها.

فرَّ من الغيبة فرارَك من الأسد

ومن الأمور التي يجب مراعاتها في الشورى هو الحذر من الوقوع في الغيبة أثناء الاستشارة، وإلّا خسرنا في موضعٍ هو أدعى للكسب، ودنسنا ألسنتنا وآثرناها على قلوبنا، وأطفأنا نور حياتنا الروحيّة والمعنويّة في الوقت الذي كنا نظنّ فيه أننا نخدم في سبيل الحقّ، من أجل ذلك لا بدّ من مراعاة الدقّة البالغة لعدم الوقوع في الغيبة، فإن وقعنا فيها دون قصدٍ فلا بدّ من طلب السماح ممن اغتبناه، بل لا بد من تحديد إطار الموضوعات التي سنتحاور حولها حتى لا يُساق الناس إلى جهةٍ خاطئة، ولا ينفرج البابُ لسوء الظن، وتجنبًا لمثل هذه الأمور يجب على مَن يتكلّمون وإن كان كلامُهم هو محضَ الحقيقة أن يصمتوا عندما يتطلّب الأمر ذلك، عليهم أن يصمتوا أوّلًا، وإن تكلّموا فلا بدّ أن يسبق كلامَهم تفكيرٌ أعمق ويقولوا في أنفسهم: "كيف يمكننا أن نذكر هذه الحقيقة دون أن نجرح مشاعرَ أحد؟".

أجل، ينبغي أن يكون سكوتُ المؤمن تفكُّرًا، وكلامُه حِكمةً؛ بمعنى أنّ الإنسان إن وجد الحكمة في كلامه تكلّمَ وإلا سكَتَ، كما يقول الشاعر: "إن كنتَ محدِّثًا فحدّثنا عن الحبيب وإلا فاسكت"، فإن بدتْ أماراتٌ للحديث عن أمورٍ لا توصّل الناسَ إلى الله ولا تفسحُ المجال للوصول

إلى سـيدنا رسـول الله ﷺ فعلينا أن نسكتَ ونعضّ على هذا اللسان الشقي الذي أعطيناه من الأهمّية ما يزيد عن القلب، فإن لم يسـتطع الإنسـانُ أن يعضّ على لسانه مع أنّ الحال يقتضي ذلك فلن يسلم الآخرون من إيذاءِ هذا اللسانِ المتحرِّر من ضوابطه.

ويجـب علينـا ألا ننسـى أبـدًا أن الجروح التـي تسـببها الحِراب من الممكـن مداواتهـا أمـا الصـدور التـي جرحتها الكلمـاتُ فمِـن الصعب مداواتها وتعميرها.

ضَعْفُ العبودية وبروز الأنانيّة

سؤال: ذكرتم فيما مضى أن ضَعف العبودية سببٌ أساس في زيادة قوّة الأنانية وحبِّ الذات، فما ماهيّة العلاقة بين ضَعف العبوديّة وقوّة الأنانيّة؟

الجواب: العبودية كلمة مشتقة من الجذر "عَبَدَ"، ومعناها أن يؤدّي الإنسان مسؤولياته تجاه ربه، مستشعِرًا خضوعه التام بين يديه، والعِبادة أيضًا مشتقة من الجذر ذاته، غير أنّ بين الكلمتين بعض اختلافٍ في المعنى، فالعبادة بإيجاز هي: تحويل المعلومات النظرية الخاصة بالإيمان إلى واقع عملي في ظلّ نظامٍ ونسقٍ معينين، أما العبوديّة فهي: أن يمارس الإنسان حياته مستشعرًا حقيقة كونه عبدًا لله؛ بعبارة أخرى: العبوديّة هي أن يتعمّق الإنسان في الخضوع باستمرار ويعيش حياته في ظلّ الإحسان مستشعرًا مراقبة الله تعالى له، أما العبادة فهي أن يفي الإنسانُ بمسؤوليّات عبوديّته كما أمر ربه سبحانه وتعالى.

فمـا من عبـدٍ جعل همَّـه عبوديّته واستشـعرَ في ثنايا وجدانه شـعورًا عميقًا بعباداته فأدّاها ثمّ اسـتطاع من خلال الممارسة والتدريب أن يتعمّق في عبوديته، إلّا انسـلّ من أيّ عبوديةٍ أخرى، إن السـبيل الوحيد للتخلّص من العبودية لغير الله تعالى هو أن يكون الإنسـان عبدًا لله تعالى حقًّا، فمن لم يكن عبدًا لله تعالى فهو عبدٌ للأصنام والأيقونات والطواطم وأصحاب القوّة والنفوذ... إلخ.

والحـق أن الله ﷻ هـو الذات الأحديّة المسـتحقّة للعبـادة، فهو -كما يقول أهل التصوّف- المعبودُ المطلق والمقصود بالاستحقاق؛ وهذا يعني أن حقّـه علينا ووظيفتنا ومسـؤوليتنا نحوه أن نعبـده وأن يقترن حِراكُنا في كلِّ لحظـةٍ مـن حياتنـا بشـعور العبوديّة لـه ﷻ، وبعبارة أخـرى: إنه تعالى المقصودُ لأنه هو الله، والمحبوبُ لأنه هو الله، والمعبود لأنه هو الله، ولذا فإن عبودية غير الله من الأصنام والأيقونات والأساطير والطواطم وغيرها من المعبودات الناشـئة عن الضلال والانحـراف هي كفرٌ صريح وضلال بيّـن؛ لأن الله تعالـى هو المسـتحقّ والجديـر بالعبادة، فهـو المعبود الحقّ وحده دون سواه.

وهكذا فإن العبد إذا جعل همّه عبوديته فلا يفكر في الخضوع والتذلل والانحنـاء إلّا إلـى الله تعالـى، ولا يرى نفسـه أعلى أو أميـزَ من الآخرين مطلقًـا، ولا يجعـل لنفسـه منزلةً أو مكانـةً تعلو منزلةَ عبوديّتـه؛ لأنه على وعـي دائمًـا بأنه أمـام المعبود المطلق ﷻ مجـردُ عبدٍ تُقيّـدُ العبوديّةُ عنقَه بِقِيادِها وتُحكِم الوَثاقَ على قدمِه بأغلالها، ومثل هذا الإنسـان يعزو دائمًا كلَّ مـا حقّقـه من نجاحـاتٍ وما أصابه من جمالٍ إلـى الله ﷻ؛ وذلك لأنه أذابَ نفسَه وأنانيّته وذاتيّته في بوتقة العبوديّة، ربّما تغرّه نفسه فتدور رأسه

وتتكـدّر بصائـره لما أحرزه مـن نجاحاتٍ تفوق إمكانيّاته، ولكنّه سـرعان ما يقمـع كلَّ هذه المشـاعر السـلبيّة التي برزت في داخله بشـعور العبوديّة الكامن في أعماق روحه.

التناسب العكسي

وكمـا رأينا ثمّة تناسـبٌ عكسـيّ بيـن التعمّق في العبوديـة من جانبٍ وبيـن ازديـاد قـوّة الأنانية وحبّ الذات مـن جانبٍ آخر، بمعنـى أنه بقدر ما يتعمّق الإنسـان في عبوديّته بقدر ما يحتاط لنفسـه وأنانيته ويتمكن من السيطرة والتحكم في مشاعره السلبية التي تموج في داخله، وبالمقابل فإنّ الإنسان يُصبحُ أنانيًّا بل وحتّى نرجسيًّا بقدر ابتعادِهِ عن عبوديّته لربه؛ لأنه مـع الوقت ينسى نفسَه كلّما ابتعد عن وظيفة العبودية التي تذكّره بماهيته، فينسـب إلى نفسـه كلَّ ما أحرزه من نجاحاتٍ، بل إنه قد يتمنى أن تُنسـب إليه حتى الأعمال الجميلة التي قام بها الآخرون، ومن ثمّ يجتذبه التصفيق والتهليل إليه جذبَ الدوّامة.

أمـا مـن يقف خاضعًا معقـود اليدين أمام الحقّ تعالـى ويقضي حياته كلّهـا بهذا الشـعور فلا ينسـى نفسـه أبدًا، ويقـرن حركَتَه دائمًا بشـعورِ أنه مخلـوقٌ عاجـزٌ ضعيفٌ فـانٍ مغلـولُ القدمين طوقُ الـرقّ مضروبٌ حول عنقه، وهذا الشـعور بالعجز والفقر يُشـعل الرغبة إلى أفق "هل من مزيد؟" مـن العبـادة والعبودية، إن هذا الإنسـان مهما أدّى مـن العبادات أو صلّى آلافًـا من الركعات دائمًا ما ينطلق لسـانه بـ"اللهم مـا عبدناك حقّ عبادتك يا معبود، وما شـكرناك حقَّ شـكرك يا مشـكور، وما عرفناك حقّ معرفتك يا معروف، يا من أنت الظاهر فليس فوقك شيء، ولو عرفناك حق المعرفة لَذُبْنـا وتلاشـينا..."؛ لأن هـذا العبد يُـدرك أن ما يقوم به مـن عباداتٍ هي بمثابة لا شيء بالنسبة للنعم التي مَنّ الله عليه بها.

نِعمٌ لا تُعدّ تتطلّب شكرًا لا يُحدّ

إن من أعظم نعم الله على الإنسان أنه قد علا فوق مستوى الجمادات، ووُهبت له الحياة، فغدا كائنًا ذا شعور، ليس بحيوان أو نبات، وفوق كلّ ذلك عرف خالقَه تعالى، وأُتيحت له فرصة فتح أبواب الخلود بمفتاحٍ مفعمٍ بالأسرار كمفتاح الإيمان، فتلمّس السبيل لأن يكون جديرًا بالجنة، فهذه بلا شكّ نعمٌ عظيمةٌ لا مقابل لها في الدنيا؛ لأن مَن أَسبغ عليه كلَّ هذه النعم العظيمة هو الله تبارك وتعالى.

فلو أن الإنسان وعى هذه النعم، وتوجّه إلى ربّه، وتعمّق في العبودية، وصار بطلًا من أبطال "هل من مزيد؟"، وحاول دائمًا أن يزيد من معرفته ومحبّته وعشقه واشتياقه نجّاه الله -بفضله وكرمه- من دوّامة الأنانية وحبّ الذات، وكما يقول الشيخ "محمد لطفي أفندي" رحمه الله:

أَلَا يحبّ المولى مَن أحبّه؟

أَلَا يرضى عمَّن هرول لنيل مرضاته؟

لو وقفتَ له على الباب..

وفديتَه بالروح والنفس والأحباب

وعملتَ بأمره، أما يُجزل لك الأجر والثواب؟

والحق أن الله تعالى يُرشِدنا إلى ذاته ويشعرنا بوجوده عبرَ آلافٍ من الحوادث كل حين، وإننا لو حاولنا مقابل ذلك أن نتتبّع هذه الحوادث بدقّةٍ وتيقّظٍ وفكرٍ منظّمٍ منسّقٍ، وسعينا إلى أن نجمع صورَ هذه الحوادث كلّها على اختلافها حتى نفهم المعنى الذي تعبر عنه كلّيةً، وفتَّشنا عن السبل التي تتيح لنا السير إليه تعالى؛ فلن يتركنا سبحانه وتعالى في منتصف الطريق؛ لأننا ما عهدنا عليه تعالى أنه تخلّى عن أحدٍ سار إليه ألبتة.

إكسير العبودية في عصر الأنانية

لقـد توالـى التاريخ فازدهـرت فترات منـه وأظلمت أخـرى، فأحيانًا ما كانت الأرضُ تعصي السـماء، فتمسـك السـماءُ عنها ماءها، فتسـتحيل الأرض صحراء جرادء من أوّلها إلى آخرها، وأحيانًا أخرى كانت السماء تفيض بوابلٍ من الرحمة زخًّا زخًّا؛ فتنبت الأرضُ سـنابل بها سـبعُ حبات أحيانًا وسـبعمائة حبّة أحيانًا أخرى. أجل، أحيانًا ما كان النور يتغلّب على الظلام حتى يتقلّص الظلام تمامًا، ويهيمن جوّ الروحانيين والملائكة على جـوّ الشـياطين، وبتعبيرٍ آخر: يسـيطر عالمُ الملكوت على عالـمِ المُلْك، وخيـرُ مثـال علـى ذلك هو عصـر السـعادة النبـوي؛ إذ انعدمَ فيـه المناخ الملائم للشـياطين وانتشـارهم هنا وهناك، ولقد شهدت العصور اللاحقة حقوبًا زاهرةً تُشبه هذا العصر.

ولا يقـلّ فـي يومنـا هذا أيضًا عدد الذين يشـعرون ويُحسّـون في كلّ ذرّةٍ مـن أعماقهـم بالعبوديـة لله تعالى، ويعيشـون دومًا الإحسـاسَ بمعيته تعالـى بفضل مشـاعرهم العميقة التـي تتجاوز مجرّد الإحسـاس، ولو لم يكـن الأمر كذلـك لما ظلّت هذه الأرض تدورُ فـي فلكها؛ لأن الله تعالى ينظـر إليها بمنظور عباده الذين يؤدّون حـق عبوديتهم مخلصين له الدين، أما أمثالنا من المجرمين المذنبين المتخبّطين فإنه يعفو عنهم إكرامًا لذوي الروحانيـات العظيمة أولئـك؛ فيمدّ في عمر الكون لأجـل حرمتِهم لديه، ولا يجعل عاليَه سافلَه لأجل خاطرهم.

إن عصرنا عصر الأنانية، إلّا أنه بدأت فيه فترة جميلة من حيث العبادة والعبودية بعون الله تعالى؛ وفي الخبر: "**اِشْتَدِّي أَزْمَةُ تَنْفَرِجِي**"[٧٣]؛ إن آخر

(٧٣) القضاعي: **مسند الشهاب**، ١/٤٣٦؛ الديلمي: **الفردوس بمأثور الخطاب**، ١/٤٢٦.

نقطةٍ في الظلام تشير إلى بدء النور والضياء؛ إذ يتراءى سوادٌ حالكٌ في الأفق قبل الشفق إلا أنه آخر سواد الليل، وإن جاز التعبير: فإن هذا يعني انبثاق خصائص الليل للمرة الأخيرة. أجل، إن الظلمات تكتَنِفُ الأفقَ كلّه مرة أخرى بكلّ حنقها وغيظها، لكنّ لُواحَ الفجر الكاذب بَعدَ ذلك يُعتبر أصدقَ شاهدٍ على طلوع الفجر الصادق؛ لأنه لم يخطئ من قبلُ قط؛ فحيثما وُلد الفجر الكاذب وُلِدَ الفجرُ الصادق عقِبه بمدّة وجيزةٍ جدًّا.

والحاصل أنه بقدر ما يتعمّق الإنسان في العبادة والعبودية للحق تعالى -حتى وإن كان ذلك في عصر الأنانية- بقدر ما تتخلّى عنه الأنانية وتهجره، ويضيقُ مجالها شيئًا فشيئًا، تمامًا كما تضيق دائرة الظلام كلّما اتسعت دائرة النور؛ فالتضاد الذي بين الأنانية والعبوديّة هكذا بالضبط تمامًا؛ إذ يتطوّر أحدهما على حساب الآخر، وبقدر ما يتعمّق العبد في العبودية بقدر ما تضمحلّ فيه الأنانيّة، فيعزو ذلك الإنسانُ كلَّ شيء إلى القدرة الإلهية مع مرور الوقت، أما قيمة النجاحات التي يحقّقها فإنه يقدّرها بناءً على تحقّق رضاه تعالى وتوجُّهه سبحانه من عدمه، وفي النهاية تذوب وتتلاشى أنانيته وحبّه لذاته تمامًا ويفنى عن نفسه ويبقى بالله ﷻ، يذكره ويصدح به في كل مكانٍ يتجوّل فيه.

دعاءٌ جامعٌ لسيدنا رسول الله ﷺ

سؤال: بعد نزول أوائل سورة "المؤمنون" دعا سيدنا رسول الله ﷺ ربّه سبحانه قائلًا: "*اللَّهُمَّ زِدْنَا وَلَا تَنْقُصْنَا، وَأَكْرِمْنَا وَلَا تُهِنَّا، وَأَعْطِنَا وَلَا تَحْرِمْنَا، وَآثِرْنَا وَلَا تُؤْثِرْ عَلَيْنَا، وَأَرْضِنَا وَارْضَ عَنَّا*"[٧٤]، فما الرسائل التي يبثّها هذا الدعاء في رُوع القلوب المؤمنة في الوقت الحاليّ خاصّةً؟

الجواب: ننوّه بدايةً بأنّ **الله** سبحانه وتعالى قد خصّ نبيه ﷺ بنزول الوحي؛ ولذا فليس لأحدٍ أن يَصِلَ إلى شعور أو إدراك كُنْه هذه الحقائق الجليلة بقدر أُفقه هو ﷺ، لهذا السبب يجب أن نعلم بدايةً أنّ ما قيل في معنى ومحتوى هذا الدعاء قاصرٌ عن بيان العمق والبُعد الحقيقي له.

وكما جاء في السؤال لقد دعا النبي ﷺ بهذا الدعاء بعد نزول أوائل سورة "المؤمنون" التي يقول فيها الحقّ سبحانه وتعالى: ﴿**قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ۞ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ۞ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ۞ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ۞ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ۞ إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۞ فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ۞ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ۞ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ۞ أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ۞ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ**﴾ (سورة الْمُؤْمِنُونَ: ٢٣/١-١١).

---

(٧٤) سنن الترمذي، تفسير القرآن، ٢٤.

بعـد نزول هذه الآيات المباركات التـي تُعتبر هديّةً من الله تعالى لنبيّه وأمّته أدركَ سيدنا رسـول الله ﷺ عمقَ بشـرى الفلاحِ التي زفّها الله تعالى للمؤمنيـن الذيـن حـازوا علـى هـذه الخصال المذكـورة في الآيـة؛ فكان صلـوات ربي وسـلامه عليه يرفـع أكـفّ الضراعة إلى ربـه ﷻ في أوقاتٍ مختلفة، ويدعو بهذا الدعاء شعورًا بالامتنان والشكر لله ﷻ.

المطلب الأول: "اَللّهُمّ زِدْنَا وَلَا تَنْقُصْنَا"

كان أول ما استهلّ به النبيُّ ﷺ دعاءه هنا قوله: "**اَللَّهُمَّ زِدْنَا وَلَا تَنْقُصْنَا**"، وأوّلُ احتمالٍ يتبادر إلى الأذهان هنا: أن النبيَّ ﷺ سألَ ربَّه زيادة عدد الأمّة المحمّديّـة؛ لأن كثرةَ الأمة المحمديّة كانت على الدوام من أسـمى أمانيه ﷺ، ويدلّ على ذلك قول سيدنا رسول الله ﷺ في الحديث الذي رواه ابْنُ عَبَّـاسٍ رضي الله عنهما، قَـالَ: قَـالَ رَسُـولُ اللهِ ﷺ: "**عُرِضَتْ عَلَيَّ الأُمَـمُ، فَجَعَلَ النَّبِيُّ وَالنَّبِيَّـانِ يَمُـرُّونَ مَعَهُمُ الرَّهْطُ، وَالنَّبِيُّ لَيْسَ مَعَهُ أَحَدٌ، حَتَّى رُفِعَ لِي سَـوَادٌ عَظِيـمٌ، قُلْـتُ: مَا هَـذَا؟ أُمَّتِي هَذِهِ؟ قِيلَ: بَلْ هَذَا مُوسَـى وَقَوْمُهُ، قِيلَ: انْظُرْ إِلَـى الأُفُـقِ، فَإِذَا سَـوَادٌ يَمْلَأُ الأُفُقَ، ثُمَّ قِيلَ لِي: انْظُـرْ هَهُنَا وَهَهُنَا فِي آفَاقِ السَّمَاءِ، فَإِذَا سَوَادٌ قَدْ مَلَأَ الأُفُقَ، قِيلَ: هَذِهِ أُمَّتُكَ، وَيَدْخُلُ الجَنَّةَ مِنْ هَؤُلَاءِ سَـبْعُونَ أَلْفًا بِغَيْرِ حِسَـابٍ**"[٧٥]، فأَدخلَ هذا المنظرُ الحبورَ والسـرورَ على قلبِ سيدنا رسول الله ﷺ.

ومن خلال الأحاديث النبوية التي تشجّع وتحضّ على الزواج يمكننا أن نـدرك مـدى حرص النبـي ﷺ واجتهاده بل ومجاهدته في سـبيل إكثار عـدد أمتـه، فعلى سـبيل المثال يقـول ﷺ في حديـث شـريف: "**تَنَاكَحُوا، تَكْثُرُوا، فَإِنِّي أُبَاهِي بِكُمُ الْأُمَمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**"[٧٦].

---

(٧٥) صحيح البخاري، الطب، ١٧؛ صحيح مسلم، الإيمان، ٣٧٤.

(٧٦) مصنف عبد الرزاق، ١٧٣/٦.

والواقع أن مسألة الزواج -من حيث إنها مسألة فرديّة وأسريّة- قد تبدو بسيطةً بالنسبة للقضايا الدينيّة الكبيرة، وإن لها قيمةً نسبيّةً مقارنةً بهذه القضايا الكبيرة، ومع هذا أوصى النبي ﷺ أمّته بالزواج والتكاثر، وذكر أن هذه الكثرة ستكون موضع مباهاةٍ وافتخارٍ بالنسبة له صلوات الله وسلامه عليه، والمباهاة هنا تعني الشعورَ بالامتنان تجاه الألطاف الربّانيّة.

الكثرة العدديّة ليست هي الهدف الأساس

وقد يُراد من قوله ﷺ: "اَللَّهُمَّ زِدْنَا ولَا تَنْقُصْنَا" الكثرةَ والزيادةَ من حيث الكيفيّة لا من حيثُ الكَمّيّة فقط؛ لأن الكيفيّةَ هي التي تُكسب قيمةً للكمّية، فلا أهمّيّة للكثرة العدديّة وحدها دون الكيفيّة، فكم من فئةٍ كثيرةٍ لم تستطع أن تقوم بما قام به عشرة أو عشرون ألفًا من الصحابة ﷺ، لقد أحبط هؤلاء الأبطالُ الأوائلُ الأفذاذُ في الإسلام مؤامراتِ أكبرِ إمبرطوريّتين عملاقتين في ذلك الوقت -الساسانيّة والبيزنطية- وأخضعوهما لسلطانهم، وبذلك غيّروا مصير العالم.

ورغم أن عدد المسلمين اليوم يبلغ حوالي مليار ونصف المليار نسمة فليس بوسعنا أن نقول إن هؤلاء المسلمين قد أدّوا المهمة التي تتناسب مع هذه النسبة العدديّة الكبيرة؛ لأنهم اليوم ليسوا على المستوى الذي يريده القرآن الكريم، فهم في نزاعٍ وخلافٍ دائم، حتى إنهم أنهكوا بعضَهم بسبب عدم خروجهم من دائرة التصارع والتنازع الفاسدة.

أجل، لما لم يستطع المسلمون أن يحقّقوا الوفاقَ والاتّفاقَ فيما بينهم أخذ الخلاف والنزاع يُهدر طاقاتِهم، فلم يحظوا بالعناية الإلهيّة، ولم يتقدّموا ليتبوّؤوا مكانتهم في مصافّ التوازن الدولي، ولم تكف الكثرة العدديّة لأداء هذه المهمة العظيمة التي لا بدّ من القيام بها حتى تتبوّأ الأمة مكانها في التوازن الدولي.

والواقـع أننـا إذا ما نظرنا إلى التاريخ بهذه النظـرة لألفينا أمثلةً باهرةً علـى ذلك، فمثلًا كم من أنـاسٍ مخلصين هجروا أوطانَهم في فترةٍ ما من أجل غايةٍ سـامية، وصرفوا كلّ جهودهم لتحقيق غاياتهم، فحقّقوا أعمالًا عظيمـةً، وأحرزوا نجاحـاتٍ مباركةً مثمرة، ولكن لـمّـا أخذ هؤلاء الناس يتدنّـون في الروح والمعنى والفكر والشـعور والحياة القلبيّة والروحية لم يتمكّنـوا مـن الحفاظ علـى الموقـع الذي أحرزوه، بلـهَ التقدم والازدهار؛ رغم أنهم أكثر عددًا مقارنةً بالماضي.

أجل، لقد اسـتكانوا للدعة والخمول والكسـل، واستسـلموا للخوف وحـبّ المنصب، ونسـوا فكرة الهجرة من أجل إعـلاء كلمة الله، فلم تُغن عنهم كثرتُهم العدديّة؛ حيث فقدوا قوّتهم وتأثيرَهم ونفوذَهم، ولذا يمكن القول: إن النبي ﷺ عندما كان يتضرّع إلى ربّه قائلًا "زِدْنَا وَلَا تَنْقُصْنَا" كان يقصـد علوّ الدرجة والمكانة والقدر، وألّا يعترينا نقصٌ في هذه المسـألة، أي إنه كان يقصد زيادة الكيف إلى جانب الكمّ.

أعظم النعم أن تعرف النعمة على أنها نعمة

ثـم يقـول ﷺ في دعائـه: "**وَأَكْرِمْنَا وَلَا تُهِنَّا**"، وهنا نجده ﷺ يسـأل ربّه أن يكـون هو وأمتـه مظهرًا للإكرام الإلهيّ، لا الإمكانيـات المادية والقوّة والكشـف والكرامـة؛ وهذا يعني أن الإكرامَ الإلهـيّ هو لطفٌ كبيرٌ من الله تعالـى لا بـدّ من الحرص عليه، والإكرام من بـاب "إفْعال"، لذا فقد يكون المعنـى: اللهـم أكرمنا، وأشـعرنا على الـدوام بأن هذه الألطـاف هي من محض كرمك.

والحـقّ أن إدراكَ هـذا الإكرام الإلهيّ والشـعورَ به هو وسـيلةٌ لحفظ الإنسـان من الانزلاق والتردّي؛ لأن من هو على وعيٍ بهذا الإكرام يدرك

أن كلَّ الجماليّات التي يتمتّع بها إنما هي مِنه ﷻ، فلو نسب الإنسانُ هذه الجماليّات إلى قدراته ومواهبه الشخصيّة كما فعل "قارون" وقال: ﴿**إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي**﴾ (سورة القَصَص: ٢٨/٧٨)، فقد استصدر لنفسه دعوةً للذلّة والمهانة، ومن ثمّ يجب على الإنسان أن يرفع أكفّ الضراعة إلى ربّه، ويدعوه قائلًا: "اللهمّ لَا تُهِنّي ولَا تُذِلَّني بما اقترفَتْه يدايَ من ذنوبٍ وآثامٍ أو بما ابتليتني به".

اللهم لا تعاقبنا بالحرمان!

ثم يقول رسول الله ﷺ في دعائه: "**وَأَعْطِنَا وَلَا تَحْرِمْنَا**"؛ على الإنسان أن يسأل ربّه النعم الدنيويّة التي لا تُغويه ولا تضلّه، بل من الأهمّيّة بمكانٍ أن يسأل الحقَّ ﷻ كلّ ما يريد، يقول سيدنا رسول الله ﷺ: "**لِيَسْأَلْ أَحَدُكُمْ رَبَّهُ حَاجَتَهُ كُلَّهَا حَتَّى يَسْأَلَ شِسْعَ نَعْلِهِ** (أي أَحدَ سيوره) **إِذَا انْقَطَعَ**"[٧٧]، ومن ثم على الإنسان أن يسأل ربّه ﷻ ما شاء؛ عشًّا دافئًا يشبه روضةً من رياض الجنة، أو ولدًا صالحًا أو غير ذلك.

ومن هنا تَتَحدّد قيمة ما يطلبه الإنسان بمستوى أفقه ومنزلته وغايته المثلى، فلا جرم أنّ الأسرة المطمئنّة والأبناء الصالحين والإمكانيّات المادّيّة التي لا تُلجئه إلى مدّ يديه إلى أحدٍ من الخلق هي نعمٌ كبيرة يجب طلبُها من الله ﷻ، ولكن الذي يشغله الإحياء عن الحياة، والذي نذر نفسه لفكرة الإحياء، وفاضت عيناه بمشاعر الشفقة تجاه جميع الإنسانية؛ قد يغضّ الطرف عن هذه المتع الدنيويّة جميعها؛ لأن كلّ ما يملأ أفقَه هو: "اللهم إني لا أرغب أن أرى -وأنا على قيد الحياة- أيّ فتوحات أو نجاحات كنتُ سببًا فيها أو يُظنّ أنني سببٌ فيها، لكنني أرجوك يا ربي

(٧٧) سنن الترمذي، الدعوات، ١٥٥.

أن تمنّ عليّ بأن أرى من قبري بعد الممات انتشـارَ دين الإسـلام المبين فـي كلّ بقـاع الأرض، ورفرفةَ الـروح المحمّدية في كل الأرجـاء، وتردّدَ الأذان في كلّ أنحاء العالم، وخفقانَ القلوب باسمك جلّ جلالك في كلّ الآفاق".

ومـن ثـمّ يمكن أن نفهـم من قول النبـي ﷺ "وَأَعْطِنَـا وَلَا تَحْرِمْنَا" أن كلًّا يسأل ربّه على قدر هِمّته، فقد يطلب هذا خمسةَ قروش، ويطلب ذاك ملايين، وقد لا يكتفي آخر بهذا، ويطلب من الله تعالى السرمديّة والخلودَ، فعلى حين كان البعض يسأل ربّه بعضَ النعم الدنيويّة كان أصحاب الأفق الواسـع من أمثال الإمام الغزالي، والإمام الرباني السـرهندي، والأسـتاذ بديع الزمان سعيد النُّورسي رحمهم الله يسألون ويبتغون مرضاة الله سبحانه وتعالى، ويسألون فتـح طريق الجنة للإنسـانية جمعـاء. أجل، إن أمثالهـم يقومون ويقعدون قائلين: اللهم أزهق روحي خمسـين مرّةً في اليوم، ولكن أتوسّـل إليك أن تُنقذَ أمّة محمدٍ من هذا البؤس والشقاء، وأن تَنْتَشِلَها من هذا الترديّ الذي لم يُسبق لها أن انحدرت إليه منذُ خلقتَها.

وعلـى ذلك فـإن الذين يرفعون أكفَّ الضراعة إلـى الله تعالى بالدعاء يستدعون الأفكار التي ألهمتهم بها درجاتهم.

من أعظم الآفات دخولُ المسلمين تحت وصاية غيرهم

يقول سيدنا رسول الله ﷺ في دعائه أيضًا: "**وَآثِرْنَا وَلَا تُؤْثِرْ عَلَيْنَا**" وهذا يعني: "اللهم إن كان ثمّة ترجيحٌ واختيارٌ فاخترنا وآثِرنا!"، وبتعبيرٍ أشـمل نقول: إن رسول الله ﷺ يطلب من الحقّ تعالى ألّا يأذن للآخرين والأغيار بالسيادة على أمّته، ولا أن يسوسوها ويضعوها تحت وصايتهم وأمرهم.

ويمكـن أن تتعـدد صُـوَرُ إيثار الله تعالى غيرنا علينـا؛ فمثلًا إن لـم نؤدّ العبوديّـة حقّهـا، ولـم نـرعَ الأمانة حقّ رعايتهـا، ونَكَصْنا علـى أعقابنا في الدين فسـوف يُذهبُنَا الله تعالى ويأتي بقوم آخرين يسـتخلفهم بدلًا منّا في التوازنـات الدولية، ولهذا السـبب فإنه ينبغي لنا، بل يجب علينا أن نطلب مـن الله تعالى أن يُحَلّيَنا بأوصاف عباده المقبولين عنده، ونقول: "اللهم لا تسـتبدلنا بغيرنا! اللهم استعمِلْنا واسـتخدمنا نحن في كلّ ما تريد وتشاء!" لأنّ تَخَلِّي الله عنّا كالأشـياء الرثّة واستخلافَ غيرنا يعني تركنا إلى تَفَاهتنا وخِسَّتنا الذاتية.

نوعٌ آخر من الامتحان: المحاباة

وقـد لفـتَ سـيدُنا رسـول الله ﷺ انتباهَنـا إلـى حقيقـة أخـرى تتعلق بالموضـوع: "**إِنَّكُـمْ سَـتَلْقَوْنَ بَعْـدِي أَثَـرَةً، فَاصْبِـرُوا حَتَّـى تَلْقَوْنِـي عَلَى الحَوْضِ**"[٧٨].

وقد ظهرت هذه الحقيقة التي عبر عنها هذا الحديث بعد انتقاله ﷺ إلى أفـق روحـه، ولقد خصّ القرآنُ الكريمُ الصحابةَ الكرام السـابقين الأوّلين لهـذه الأمـة بالتقدير والإجلال لدرجة تكاد تحيرنا وتدهشـنا إلّا أن بعض اللاحقيـن مـن الناس لم يسـتطيعوا فهمَ ذلك، فقاموا بظُلْـمِ الرعيل الأوّل في الإسـلام من ذوي القَدر العظيم عند الله وعند رسـوله وجاروا عليهم؛ فالخـوارج مثـلًا عجزوا عن إدراك قيمة سـيدنا علي كـرّم الله وجهه الذي حظي بألقاب سـلطان الأولياء والحيدر الكرار وصهر النبي ﷺ، وبالشـكل نفسـه لم يتسـنَّ لكثيرين من الناس ممّن عاشـوا في عصر سـيدَينا الحسن والحسين أن يَقْدُروهما قَدرَهُما ويعترفوا بقيمتهما اللائقةِ بهما.

(٧٨) **صحيح البخاري**، المغازي، ٥٨؛ **صحيح مسلم**، الإمارة، ٤٨.

كمـا أن بعضَ الحـكّام الذين جاؤوا من بعدُ عجزوا عن الحفاظ على العدالة التي سادت في عهد الخلفاء الراشدين ولجؤوا إلى سبيل المحاباة؛ فكانوا -على سـبيل المثال- إذا ما أرادوا إرسـال أحدٍ حاكمًا أو واليًا على مـكان ما أو قاسـمًا للغنائم اختـاروه من بين أقاربهم، بينمـا لـم يُحابِ أيُّ واحدٍ من الخلفاءِ الراشدينَ قريبًا ولا نسيبًا، ولـم يَمِيزُوا القريبَ من البعيدِ، ولـم يُجاملـوا أحدًا أبدًا؛ لأن الأمةَ التي تُوسِّـد الأمانةَ لِغَيـرِ أَهلِها، وتَعهَدُ بمسـؤوليَّاتها إلـى الأقاربِ دون غيرهـم أمَّةٌ قد انتهى أمرُهـا، فكبِّر عليها أربعًا.

أجل، لقد أخبر سيدنا رسول الله ﷺ أن ستكون من بعده أثرةٌ ومحاباة، وأوصـى الأمـة أن تصبـر حتـى تلقـاه؛ لأن الصبـر نهايته السـلامة، ومثل هـذه التوصية رسـالة مهمّة جدًّا للمؤمنين فـي عصرنا لأن من بيدهم زمام الأمـور ومقاليدها اليوم ربما يظلمـون ويجورون على أصحاب الكفاءات عبـر وضـع عراقيـل مختلفة في سـبيلهم، فليظلمـوا وليعتـدوا؛ المهمُّ أن تُواصلـوا أنتـم مسـيركم وخدمتَكم في سـبيل الله تعالى فـي الاتجاه الذي تحسـبون أنه الحقّ. أجل، ينبغي للأرواح التي نذرت أنفسـها في سبيل الله تعالى أن تتعامل بفلسـفة الاسـتغناء في مواجهة هذه النوعية من المحاباة والمحسـوبيّات، وتنتظر تقديرَ الحقّ تعالى في هذا الشأن؛ لأنه تعالى فعل وقدّر كلّ الأشياء الجميلة حتى اليوم، وما فعله الله تعالى مسبقًا يُعدّ أصدق برهانٍ على ما سيفعله من بعد، وهذا يعني أنه سيقدر كلّ الأشياء الجميلة مسـتقبلًا كما قدّرها في السـابق؛ يكفي لذلك أن نكون صادقين مخلصين له ﷻ وألا نُقصّر في الارتباط به جلّ شأنه.

سنام العبودية: أفق الرضا

وفي نهاية الحديث يطلب سيدنا رسول الله ﷺ من الله أن يجعلَنا راضين وأن يرضى هو عنّا أيضًا بقوله: " **وَأَرْضِنا وَارْضَ عَنَّا**"، وهذان الأمران متلازِمان لا ينفصلان عن بعضهما؛ لأن الله تعالى إن كان راضيًا عن إنسانٍ ما أرضاه، وبالشكل نفسه فإن رضا العبد عمّا يقدّره ربّه يعني رضا ربّه عنه، ولأهل الله آراء مختلفةٌ فيما يتعلّق ببيان أيّهما سببٌ للآخر، أو مسبَّبٌ عنه؛ إذ يقول بعضهم إن إعطاء الإنسان إرادته حقَّها، وطلبَه سبيل الرضا يؤدّي إلى نيل الرضا الإلهيّ، وقد ربطوا هذا بحديث سيدنا رسول الله ﷺ: "**مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَعْلَمَ مَا مَنْزِلَتُهُ عِنْدَ اللهِ فَلْيَنْظُرْ مَا مَنْزِلَةُ اللهِ عِنْدَهُ**"[٧٩]، أي إن قيمتكم عند الذات الإلهية تكون موزونةً بحسب تقديركم الله تعالى وإجلالكم إيّاه؛ فإن كنتم تحبّونه أكثر من كلّ شيءٍ وتقدرونه وتجلّونه أكثر من الدنيا وما فيها فستجدون هذا التقدير والإجلال عند الله ولدى ساكني الملإ الأعلى، أما البعض الآخر من أهل الله فقد قالوا: إن الله إِنْ لم يرضَ لم يُرْضِ العبادَ عنه، وقد علّلوا ذلك بتقديم ذكرِ رضا الله تعالى أوّلًا في الآية الكريمة: ﴿**رَضِيَ اللّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ**﴾ (سورة التَّوْبِةِ: ٩/١٠٠)، بينما قسمٌ آخر من العلماء من بينهم الإمام القشيري قال: "إن الأمر بالنظر إلى بدايته هو كسبيٌّ مرتبطٌ بالإرادة والعمل، وأما باعتبار نهايته فهو عن تجلٍّ وحال".

وإذا نظرنا إلى المسألة وفقًا للعقيدة الماتريديّة فيجب على الإنسان -كشرطٍ عاديٍّ- كي يحظى برضا الله ﷻ أن يبذل جهدَه بشكل إراديٍّ في سبيل هذا الرضا، وهذا أيضًا مرتبطٌ بأن يتدبّر الإنسان في ذاته والوجود

---

(٧٩) **مسند البزار**، ٣٠٧/١٧؛ أبو نعيم: **حلية الأولياء**، ١٧٦/٦؛ البيهقي: **شعب الإيمان**، ١٠٩/١٠ (واللفظ للبيهقي).

من حوله، ويحلّل حقائق الحقيقة الإسـلامية ويفهمها على نحو صحيح. أجـل، إن الإنسـان حيـن يرضى عـن الله فإن الله ﷻ يتوجّـه إليه برضوانه، ورضوانُه هو الأكبر.

وختامًا: إن كلّ أمر من الأمور التي طلبها رسولنا الأكرم ﷺ في دعائه المبـارك هذا لـه تأثيراته المهمّة في حياة المؤمنيـن، ولذلك فإنه ينبغي لنا نحن أيضًا أن نطلبها دائمًا من الحقّ سبحانه وتعالى.

الجدارة والاستحقاق

سؤال: ذكرتم من قبل أن مَن لم يحقق الجدارة والمسؤولية اللتين تقتضيهما الخدمة الإيمانية فهو خليق بالإقصاء عن دائرة الخدمة كما اقتضت سنة الله... وعلى ذلك فما الأوصاف اللازمة حتى يكون الإنسانُ جديرًا بعمله، ولا يتعرّض لمثل هذه العاقبة الوخيمة؟

الجواب: الجدارة هي أن يكون الإنسان كفؤًا للوظيفة التي يتقلّدها، وأن يؤدّيها بحقّها، أما الاستحقاق فهو العاقبة الوخيمة التي تصيب الإنسان كنتيجة لما اقترفت يداه من شرورٍ وما قام به من أعمالٍ سلبيّة، ولكنني أريد أن ألفت الانتباه إلى أنّ المعول عليه بالنسبة للجميع هو فضل الله ورحمته وإن كان الإنسانُ يتمتّع باللياقة والجدارة بالفعل، ومن ثمّ فإن الأساس في النجاحات التي يُحرزها الذين يمتلكون القدرات والاستعدادات العالية هو فضلُ اللهِ ورحمتُه ﷻ وإن أثبتوا جدارتهم في الوظيفة التي أُنيطت بهم، ومع ذلك فإننا إذا ما نظرنا إلى المسألة من منظور ما تقتضيه سنةُ الله ﷻ لألفينا الجدارةَ وسيلةً لإحراز مكتسباتٍ مهمّة، والاستحقاقَ سببًا لانقطاع هذه المكتسبات.

شبكات وخلايا النفاق والاستحقاق

منذ فجر التاريخ وأهل الضلال وشبكات النفاق يحيكون المؤامرات ويدبّرون المكائد باطرادٍ على نحوٍ لا يمكن تصوّره؛ حتى تنتكس الخدمات الإيجابية النافعة التي تضطلع بها القلوب المؤمنة، وهذه المؤامرات وتلك المكائد تختلف ألوانُها وأنماطُها باختلاف الزمان والظروف والمكان، بل عندما أدركت شبكةُ النفاق عينها أن الأدوات التي كانوا يستخدمونها في وقتٍ سابقٍ لم تعد تُجدِي نفعًا في الوقت الراهن وأنها لن توصلهم إلى النتيجة المرجوّة عملوا على تطوير أدواتهم وأساليبهم مرّة أخرى، في محاولةٍ للحيلولة دون إقامةِ هذه الفعاليات الخيّرة التي تقوم بها الأرواح المؤمنة.

وهكذا فإن مسألة وصول شبكات النفاق إلى أغراضها الدنيئة أو عدم وصولها يتوقّف على ما إذا كان أربابُ الغايات السامية يؤدّون حقّ المقام الذي هُم فيه أو لا، وهل قاموا بالمسؤوليات التي وقعت على عاتقهم أو لا، وهل أثبتوا جدارتهم في هذا الأمر أو لا؟

فلو أنهم أدّوا وظائفهم بحقٍّ وحفظوا الأمانة التي عُهِدت إليهم، وصاروا عيونًا ساهرةً تجاه المخاطر التي قد تداهمهم من أي منفذٍ أو ثغرةٍ فلن يخيّب الله تعالى سعيَهم وسيُحبط مؤامراتِ أهل النفاق ضدّهم، ولكن إن ضعُفَتْ جدارَتُهم وذبُلت وبهتت فهذا يعني -معاذ الله- أنهم على وشك الانزلاق بنفس القدر إلى حافة استحقاق عاقبة التقصير الوخيمة، فإن وقع هذا الاستحقاق استردّ الله تعالى أمانته، وعهد بها للأمناء عليها، ومِن ثَمّ فإن أراد الذين ارتبطت قلوبهم بخدمة الإيمان والقرآن أن يَسْلموا

مـن المكائـد التي دُبّـرت لهم ويحافظوا على الموقـع الـذي أقامهم الله به فعليهم أن يؤدّوا حقَّ هذا الموقـع، وأن ينشدوا الجدارة واللياقة دائمًا.

السعي إلى التجديد شرطٌ مهمٌّ في اللياقة والجدارة

ويمكننـا أن نتعـرّف من خلال بعض الآيـات القرآنية على الأوصاف التي تُحقِّق الجدارة وأخرى توجب استحقاق عاقبة التقصير الوخيمة.

فعلى سبيل المثال يقول ربُّنا ﷻ: ﴿**إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ**﴾ (سورة فَاطِرٍ: ١٦/٣٥)، ويُفهم من اختيار كلمة "جديد" الواردة في الآية أن على الذين يسعون في سبيل الله أن يشعروا وكأنّ كلَّ شيءٍ أتاهم مائدةٌ سماويّة طازجة نزلتْ للتوّ من السماء أو أنه من بواكير ثمار الجنة الطازجة. أجل، لا بدّ وأن يغيبوا عن وعيهم وهم يتلون كتاب الله تعالى بسبب ما يشعرون به من لذةٍ ومتعةٍ لم يصادفوها من قبل، وكأن الآيات تتنزّل عليهم في التوّ واللحظـة، وعليهـم كذلك أن يُحسـنوا دراسـة العصر الذي يعيشـون فيه، وأن يقومـوا بخدمتهـم للإسـلام في ضوء التجديد الذي أتى به الإسـلام، بـل ينبغـي أن تنال حياتهم الروحيّة قسـطًا من هذا التجديـد، وألّا ينهزموا أمـام الإلـف والتعـوّد وإن جـرى الزمان ومـرت السـنون، وألا تؤثر فيهم عوامل الزمن فلا يذبلون أو يبهتون؛ لأن التجديد وصفٌ جوهريّ للجدارة واللياقة، فمن زالت عنه هذه الميزةُ استحقَّ التغيير.

عاقبة المرتدّين عن الخدمة

وثمّة آيةٌ أخرى تتعلّق بموضوعنا، لا بدّ من الوقوف عندها، يقول ربُّنا تبارك وتعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَـوْفَ يَأْتِي اللّٰهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللّٰهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذٰلِكَ فَضْلُ اللّٰهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَـاءُ وَاللّٰهُ وَاسِـعٌ عَلِيمٌ**﴾ (سـورة الْمَائِدَةِ: ٥/٥٤).

وفي هذه الآية يشير ربُّنا سبحانه إلى خطر "الارتداد"، والارتدادُ يعني انسلاخ الإنسان من الموقع المهمّ الذي هو فيه، والعودة مرّةً أخرى إلى المكان الذي جاء منه، ولذا يوصف هذا الشخص بأنه مرتدٌّ، وأول ما يتبادر إلى الذهن عند ذكر كلمة "مرتدّ" المرتد عقائديًّا، فمثل هذا الشخص يترك دين الإسلام، ويرجع القهقرى، ويتردّى في الكفر، وإلى جانب هذا فهناك أيضًا الارتدادُ عن خدمة الدين، فهؤلاء وإن كانوا ارتبطوا قلبيًّا بغايةٍ ساميةٍ لفترةٍ ما فإنهم بعد مدّةٍ تُعَرْقِلُهُمْ أشياء بسيطة كجناح البعوضة، ويفقدون شوقهم وعشقَهم للخدمة، وانفعالَهم القديم وحيويّتهم، وبعد ذلك يخرجون تمامًا من الدائرة التي كانوا ينعمون فيها، والواقع أن هؤلاء غالبًا أناسٌ مساكين اختلت عقولهم وتصحّرت قلوبهم، يرغبون في أن يسيرَ كلُّ شيءٍ وفقًا لأمزجتهم وأهوائهم، فإن لم تَجرِ الأمور حسب هواهم اختلقوا المشاكل وتسبّبوا في الخلاف والفراق، وفي النهاية يَرتدُّون عن الدائرة التي كانوا فيها.

بدايةً يحذّرهم الله ﷻ بلطمةٍ شفوقة، ولكن إن استمرّوا في نفخ نار الاختلاف والافتراق استحقّوا حينذاك لطمةَ النقمة وكأنّ ربّنا ﷻ يقول: "إن كنتم تفسدون في الأرض، فسوف آتِي بقومٍ غيركم يجعلون من الوحدة والتضامن أساسًا لهم، ويتحرّكون بروح الوفاق والاتّفاق"، وبذلك يُخلّي الله الساحة التي كانوا فيها لغيرهم، من أجل ذلك يجب على المؤمنين الذين عشقوا خدمة دين الإسلام المبين أن يساورهم القلقُ من مسألة الارتداد عن الخدمة، وأن يكون بمقدورهم التنازل عن العديد من حقوقهم الشخصية حتى لا يقعوا في مثل هذا الموقف، وهذا ابتغاء الجدارة وسبيل النجاة من استحقاق العاقبة الوخيمة.

حبّ اللَّه تعالى هو الأساس في الجدارة

ويشير ربُّنا ﷻ بقوله "فَسَوْفَ يَأْتِي اللهُ بِقَوْمٍ" إلى أن الله تعالى سيستبدل الذين لا يؤدّون حقّ الموقع الذي هم فيه بقومٍ آخرين، ولا يعزب عن علمكم أن حرف "سوف" في بداية الفعل يدل على المستقبل البعيد، وهذا يعني أن الحقّ تعالى لا يعجّل بعذاب المؤمنين بسبب ما يرتكبونه من منكرات، ولكن لما لإيمانهم من قدرٍ عند ربهم ﷻ فإنه سبحانه يمهلهم المرة بعد الأخرى، ولكن لو أنهم أصرّوا على هذه الأخطاء والمساوئ فسوف يذهب بهم الله ويأتي بقوم آخرين بدلًا منهم، وتنكيرُ كلمة "قَوْمٍ" يدلّ على أنهم جماعةٌ مجهولة الهوية، وأنهم يتمتّعون بهمّةٍ وقيمةٍ عاليةٍ.

أجل، إنّ لهؤلاء القوم علوًّا في الشأن لا سبيل إلى تخيّله أو تصوّره، ومع ذلك تضع لنا الآية الكريمة بعض القرائن التي تعيننا على معرفتهم، فتقول "يُحِبُّهُمْ"؛ أي إنه تعالى يتوجّه إليهم بما يناسب عظمته جلّ شأنه، ويتغمدهم بسعة رحمته وعُمقِ محبّته، ويُحسن إليهم بما تقتضيه هذه المحبة، وبعد ذلك يتحوّل هذا الحبّ الإلهي الموجّه إليهم إلى حبٍّ منهم له سبحانه في قلوبهم، وفعل "وَيُحِبُّونَهُ" يأتي من باب "إفْعال" الذي يدلّ في أحد معانيه على الكثرة، ولذلك يمكن أن يُقال: "إنهم يذوبون عشقًا في حبّ الله تعالى".

وعقب ذلك يقول تعالى "أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ"؛ أي إنهم يخفضون أجنحة التواضع للمؤمنين لدرجة تصل إلى الذلّ، ولكن تجنّبًا لسوء الفهم نقول إن هذا التواضع لا يعني الدونيّة أبدًا، لأنهم "أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِين"؛ بمعنى أنهم لا يتملّقون لمن ساخت أقدامهم في أوحال الجحود الناتج عن كبرهم وغرورهم وظلمهم وانحراف وجهة نظرهم، أو لتقليدهم

الأعمى لآبائهم، كما أنهم لا يخنعون ولا يخضعون ولا يتملّقون ولا يتزلّفون للمتمرّدين المتعنّتين مع الجماليّات التي حقّقها المؤمنون.

روح الجهاد في سبيل الله

ثم يذكر ربّنا ﷻ وصفًا آخر لهم فيقول: "يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ"؛ أي يكافحون في سبيل الله، وكيفيّة الجهاد ومحتواه واسع جدًّا، فالجهاد في أحد تعاريفه هو: إزالة العوائق النفسانيّة والجسمانيّة والحيوانية التي تحول دون الإيمان، وتقطع الصلة بين الله وعبده، والعمل على اتّصال القلوب ببارئها ﷻ، ووفقًا لهذا التعريف يجب مدّ يَدِ العون إلى الناس مع الأخذ في الاعتبار مستوى العلم والإدراك والفلسفة الحياتية في العصر الذي نعيش فيه، واستخدام الوسائل المناسبة لذلك، كما لا بدّ من إزالة العوائق بين الله والناس مثل الظلم والكبر والخطأ في وجهة النظر، والتقليد الأعمى للآباء.

وهناك صورة أخرى للجهاد وهي استمرارية القيام بوظيفة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتبليغ الحق والحقيقة سواء على منابر المساجد، أو في قاعات المؤتمرات والندوات أو منصة البرلمان أو المدارس، أو في أي مكانٍ يُتاحُ من خلاله تبليغُ الحقّ والحقيقة.

ولكن إن حدث ووقف المعتدون الذي يضمرون الحقد والعداوة لكم على أبوابكم وأغاروا على بلدكم وحاولوا أن يمسّوا عرضكم وشرفكم وأن يسحقوكم تحت أقدامهم كما حدث في أزمنة مختلفة فحينذاك تتغيّر صورة الجهاد، ففي هذه الحالة تنسلّ السيوف من أغمادها ويُعنى الجميع، ويُهرعون إلى الجبهة كما وقع كثيرًا في تاريخنا على مر العصور، ويؤدّون حقّ الكفاح المطلوب منهم.

ولا جرم أن هذا الكفاح القومي يتمّ بإذن الدولة وتحت إشرافها، وهذا أيضًا نوعٌ من أنواع الجهاد المادّيّ، ولكنني أنبّه هنا مرّةً أخرى على هذه الحقيقة التي أشرت إليها في مناسباتٍ عدة؛ وهي أنه ليس من الصحيح اختزال الجهاد في سبيل الله على أنه "محاربة الأعداء" فقط، فهذا ضربٌ من ضروب الجهاد وواحد من أوجهه الماديّة، وإن هناك أوجهًا متعدّدةً للجهاد والكفاح من أجل إيصال الحقّ والحقيقة إلى الناس، أو رفع الجور والظلم عنهم، والحال أنه يجب أن يكون ذلك العمل الذي قيّده الله تعالى بقوله "فِي سَبِيلِ اللهِ" خالصًا بأكمله لله تعالى، كما لا بدّ من إحقاق الحقّ مع مراعاة القواعد والمبادئ التي وضعها الرسول الأكرم ﷺ، فلا يكون الدافع هو المنفعة الشخصيّة أو مصلحة فئةٍ بعينها أو غَضَبُها.

خلاصة القول إن الله تعالى قد أشار بقوله "يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ" إلى الجهاد في سبيل الله بالمعنى العام، وجعله وصفًا مهمًّا للذين ينصرون دين الإسلام، وأساسًا مهمًّا للجدارة واللياقة.

وأخيرًا يقول الحق تعالى: "وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ"، وهو بذلك يشير إلى أن هؤلاء الذين يسعون من أجل إعلاء كلمة الله وكي ترفرف الروح المحمدية في كلِّ أرجاء الأرض لا يخشون من لوم الآخرين. أجل، قد يُوَجَّه اللوم إلى أرباب الغاية السامية من قِبَلِ أولئك الذين يعتبرون الحياة هي الدنيا التي يعيشونها، ويودّون الاستمتاع بها، فمثلًا يقولون لأرباب الخدمة على وجه النصيحة: لماذا تُنغّصون على أنفسكم حياتَكم رغم أن بإمكانكم الاستمتاع بدنياكم؟ ولماذا تثيرون أهل الدنيا والضلالة وتضطرّونهم إلى الإساءة إليكم؟

مع الأسف يظهر في كل عهدٍ مَن ينزعج ويتضجّر مِن نشر الاسم المحمديّ الجليل على صاحبِهِ أفضل الصلاة وأتم السلام، ولكن القلوبَ التي وهَبَتْ نفسَها لِخِدْمَةِ الإيمان والقرآن لا تأبَهُ -وهي تؤدِّي وظائفها- بهذا اللَّومِ الجائرِ من هؤلاء، ولا تخشى تهديداتهم، ولا تستنكف عن طريقها، بل تسير دائمًا في طريق الحقّ حذِرَةً كيما تتعثَّر بالعوائق التي تعترضها.

الاستخدام هو فضل وإحسان من اللّه تعالى

ثم يقول الله ﷻ في ختام الآية: "ذَلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ"؛ في إشارةٍ إلى أهمّيّة تلك الأوصاف جميعها، وأن الله تعالى يهبها من يشاء من عباده المصطفين وليس للناس أجمعين؛ بمعنى أن الله تعالى يقدّر الخدمة للمؤمنين الصادقين الذين وهبوا قلوبَهم له، وليس إلى أولئك الذين يرغبون في الحصول على الدرجات الدنيوية مثل الدكتوراه وما بعدها من أجل إحراز لقبٍ أو زيادة رصيدٍ مهنيّ ماديّ ليس إلا، تأمّلوا معي، كيف خرجت -في فترةٍ ما- من بين الجبال الوعرة ذاتٌ عظيمة(٨٠)؛ درس في المدرسة مدّةً وجيزةً تبلغ الستة أشهر أو السنة، ثم أخذ يلقّن الإنسانيّة دروسًا في تبليغ الدين والتديّن والقرآن، وفتح الباب للتجديد في الفكر، ولكن وهو يؤدّي هذه المهمة العظيمة لم يداخله الكبر والغرور قطّ، بل كان يعزو كلّ توفيقه إلى فضل الله وإحسانه، وهكذا فإن مفهوم قوله تعالى "ذَلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ" يعبّر عن وصفٍ آخر من أوصاف الجدارة واللياقة لا يمكن الاستغناء عنه، وهو عدم الاغترار مطلقًا، واعتبار أيّ وظيفةٍ مهمَا عظُمت فضلًا ورحمةً وإحسانًا من الله تعالى.

---

(٨٠) يقصد الأستاذ بديع الزمان سعيد النورسي.

روحُ التجديد والعناية الإلهيّة

سؤال: ما هي السّمات البارزة لمن يتوق إلى التجديد في الفكر والشعور الديني؟

الجواب: إننا لن نقدر على فتح صفحةٍ جديدةٍ دون انتزاع الـمُتَلَقَّيات والتصورات والأفكار المنحرفة الموجودة منذ سنين طويلة والتخلص منها، مثل إضناء الحياة الروحية في المناطق التي يعيش بها المسلمون وإذوائها بدرجة كبيرة، وتعطيل أجوائنا الدينية عن العمل، وتكميم ألسنة القلوب بتنسية الوجد والعشق تمامًا، واتجاه المثقفين المفكرين والدارسين إلى المادية الوضعية المتشدّدة وانحباسهم في قُمقُمِها، وإحلالِ التعصّب الأعمى محلَّ الصلابةِ والثباتِ على الحق، وطلبِ الآخرة والجنة على أنها دوامٌ واستمرار للسعادة الدنيوية المعتادة.

وليس المقصود من هذا القول أننا عاجزون عن انتزاع اللوثيّات التي حاصرت أرواحنا منذ بضعة قرون؛ بل بيانُ أنَّ بلوغَ برّ الأمان عسيرٌ غايةَ العُسرِ ما لم نتخلّص -كأمّة- من أسباب ودواعي انهيارنا وانحلالنا الحقيقيّة؛ مثل الطمع والكسل وطلب الشهرة وشهوة السلطة والأنانية والميل إلى الدنيا وغيرها من الأحاسيس والمشاعر التي لا يمكننا التخلّص منها إلا بإذن الله تعالى وعنايته، وما لم نتوجه إلى الحقّ بما يُعدّ

جوهر الإسلام وحقيقته من استغناءٍ وجسارةٍ وتواضعٍ واهتمامٍ بِهَمّ الآخر وروحانيّة وربانيةٍ، ونُنقِّ قلوبَنا بمشاعر الحق والصدق ونصبّها في قالبهما، لكن العُسرَ الشديدَ لا يعني المحال؛ فلا بد أن يتحقّق التجدّدُ والتغيّرُ المنشودُ ما دام هناك شجعان مُخلصون للجوهر والذات، مالكين لإرادة التجديد، قادرين على احتضان العصر واستيعابه.

ولو حتى طرفة عين

وكمثالٍ على ذلك: يمكننا النظر من هذا المنظور إلى حياة الإمام الغزالي الملقب بـ"حجّة الإسلام" ؛ فلقد بلغَ أفقًا رفيعًا عاليًا في العلم الظاهري أوّلًا، بل إنه وصل إلى جميع المصادر التي يمكن الوصول إليها بالنظر إلى عصره، واضطلع على ما عجّتْ به المكتباتُ في عصره من مؤلّفات؛ ثم خَلَّفَ أعمالًا مباركةً للأجيال اللاحقة، والواقع أن القرن الخامس الهجريّ الذي نشأ فيه الغزالي كان -من ناحية ما- عصرًا مباركًا وصلت فيه نهضتنا إلى القمّة، وهكذا فالإمام الغزالي الذي بلغ القمّة في العلوم الظاهرية لم يتقوقع بعدها في القوالِبِ الضيّقة لتلك العلوم؛ بل توجّه إلى الأفق الربّاني والروحانيّ الذي أكسبها قيمةً وعمقًا آخر؛ إذ يرى الغزالي أن ما يدوّنه العلماء من كلماتٍ وعباراتٍ في الكتب لا يتعدّى كونه نظريًّا إنْ لم يكن له بعدٌ معنويٌّ وميتافيزيقي، ويمكن الوصول إلى معرفة الحقيقة بتحويل النظريّ إلى عمليّ، وتطبيقه في الحياة تطبيقًا يُستشعر أثره في أفق القلب؛ ومن ثمّ فإنَّ من يحيون في فلك القلب والروح أقلُّ عُرْضَةً للانكسار والانهيار من غيرهم من أهل العلم.

وهكذا فإنه من المستحيل أن تتخلّى الرحمة الإلهيّة عن الإنسان الذي يرتقي إلى مدارج حياة القلب والروح وينسلخ من الرغبات والأهواء النفسيّة ويرى الفناءَ في نفسه والبقاءَ بالله، ولا أن تَكِلَه إلى نفسه في أفكاره

وآرائـه وأحاسيسـه. أجـل، إن الله تعالـى لا يَـكِلُ مثلَ هـؤلاء الناس إلى أنفسهم ولو طرفة عين، بل ولا يسمح بانزلاقهم في الخطإ.

وكما هو معلوم فقد علَّم رسـولُ الله ﷺ أمّته هذا الدعاء هدفًا تنشـده وترجوه:

"يَا حَيُّ يَا قَيُّومُ بِرَحْمَتِكَ أَسْتَغِيثُ أَصْلِحْ لِي شَأْنِي كُلَّهُ وَلَا تَكِلْنِي إِلَى نَفْسِي طَرْفَةَ عَيْنٍ"(٨١).

ورجـال الإصـلاح الذيـن جعلوا دعاءَ سـيد المرسـلين هـذا هدفَهم الأسـمى، وسـعوا وبذلوا ما في وسـعهم في ذلـك الاتجاه؛ سـاروا دائمًا تحت أطياف نور المعيّة الإلهيّة بإذن الله وعنايته.

لا يُضيّعُ اللّهُ مثقالَ ذرّةٍ من عمل

لذا يمكن القول إن الحقّ تعالى ألقى في صدور هؤلاء العظام -الذين تركـوا بصماتهـم علـى مـرّ العصـور- آراءَهم فـي الاجتهاد والاسـتنباط والتجديـد، وإن نظرتـم إلـى كتاب "النتائج" لإسـماعيل حقّـي البرصوي وجدتـم عباراتـه مـن قبيـل: "جاءنـي إلهـامٌ عنـد طلـوع الفجـر، وجـال بخاطري هكذا" ويُفهمُ من هذه العبارات أن الحقّ تعالى يُنير طرقَ هؤلاء الأشـخاص العِظـام، ويفتح لهم الطـرق، وبهذا يرون كل شـيءٍ صحيحًا ويفسّـرونه تفسـيرًا صحيحًا، ثـم يضطلعون بإنجاز الأعمـال اللازمة وفقًا لسِمات المجتمع وظروف الزمان والمهمّة المكلَّفِينَ بها.

ويقول الحقّ تعالى في سـورة الزلزلـة: ﴿**فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۞ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ**﴾ (سورة الزَّلْزَلَةِ: ٩٩/٧-٨).

---

(٨١) النسائي: **السنن الكبرى**، ٦/١٤٧؛ **مسند البزار**، ١٣/٤٩.

وفَهْـمُ معنـى هـذه الآيـة الكريمة على نحو: "أن الإنسـان سـينال في الآخرة فحسـب جزاء ما عمله في هذه الدنيا من خيرٍ أو شـرّ" فهمٌ ناقصٌ، وأرى أنه يجب النظر إلى الموضوع هكذا: إن الإنسان سيُجازى في الدنيا أيضًـا -ولـو بقدرٍ بسـيطٍ- على ما فَعَلَـهُ من أوجه الخير أو مـا ارتكبَه من صنوفِ الشـرّ، وبما أن أوجه الخير الصغيرة سـتلقَى -حتى وإن كانت كلّ واحـدةٍ منهـا تـزنُ ذرّة- جزاءَهـا في الدنيا فـإن ما يُبذَلُ من خيـرٍ وبرٍّ وإن كان يـزن الكرةَ الأرضيّة ثقلًا في سـبيل غايةٍ مثاليةٍ سـيتحقّق جزاؤه يقينًا، ويتجلى كثيرًا في صورةٍ من صور العناية الإلهيّة.

ومـن هـذه الناحيـة فإنه لا يُتصـوّرُ أن يتخلّى الله تعالـى عن رجلٍ من رجـال الإحياء الذيـن جعلوا هَمّهم أمّتهم، ونذروا أنفسـهم لإحياء الناس وضحّـوا بِمتَعِهِـم الشـخصيّة ولم يفكروا بأيّ شـكلٍ من الأشـكال لا في منصـبٍ ولا فـي غَـدٍ! ومَنْ يـدري فقد يُوجِّـه الله تعالى الإنسـانَ صراحةً أحيانًا، وقد يُلقي بداخله رغبةً خفيةً في الشيء دون أن يُدرك الإنسان ذلك أحيانًـا أخرى، ومهما تعرّض مثل هذا البطل من أبطال الانبعاث لمتاهات وطرق متعرّجة، ومهما مرَّ طريقه بأودية سـاحقةٍ شـاقّة؛ فلن يضل أبدًا، بل سيُواصل المسير في الطريق الصحيح دائمًا بإذن الله وعنايته.

وهـذا النـوع مـن أبطـال الحقيقـة الذيـن فتـح الله لهـم آفاقًـا خاصّة يـرون أحيانًـا كلَّ شـيءٍ منذ البدايـة واضحًا عيانًا بيانًـا؛ لدرجة أنهم ما إن يواجهوا مشـكلةً أو حادثةً حتى يقولوا بكلّ راحةٍ ويُسـرٍ: ﴿**فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ**﴾ (سورة يُونُس: ١٠/٣٢).

فيُرْشِدون إلى الصواب ويَنطِقون بالحقيقة، وحين يواجهون في بعض الأحيـان الأخـرى حادثةً غامضةً ومبهمةً يقولون: "اللهم رضاك فحسـب،

اللهمّ وفقنا إلى اختيار ما يُرضيك كي يهتدي إليك هؤلاء الناس" ويلجؤون إلى الله تعالى بصدقٍ وإخلاصٍ وجدٍّ، ونتيجة لذلك يرون الحقّ وينطقون بالحقيقة، ويُوجّهون الناس إلى الطريق المستقيم.

لن يعودَ أحدٌ خاويَ الوفاض بعد الوقوف على بابه

إن كنتم تُعبرون في دعائكم عن صدقكم وإخلاصكم دائمًا قائلين: "اللهم إني ألوذ ببابك في مواجهة المصائب والابتلاءات التي لا أقوى عليها ولا أستطيع تحمّلها، اللهمّ لا حول ولا قوة إلا بك، اللهم إني ألوذ ببابك دون سواك فنجّني من الأخطاء والذنوب ووطأتها الثقيلة، وأعِنّي على الحياة، لا حول ولا قوة إلا بك، اللهم لا تكِلني إلى نفسي ولا إلى أحدٍ سواك طرفة عين في كلّ قولٍ أو فعلٍ أقوم به في سبيل إرشاد الناس وهدايتهم، اللهم لا تحرمني أبدًا تجلّيات هدايتك وإرشادك، اللهم اهدني إلى الطريق المستقيم دائمًا، واجعلني مخلصًا صادقًا في كلّ تصرّفاتي وأفعالي، اللهم لا تحرمني عنايَتَك ورعايتك حتى تؤثر أقوالي وأفعالي في الناس، اللهم إنّني أعلم أن أهل الضلال سيعترضون طريقي بينما أجادل وأسعى في سبيل الإرشاد والتبليغ، وسوف يهاجمونني ويعتدون عليّ متذرّعين بأمور تافهة، اللهم إنني ألوذ بِك وألجأُ إلى عنايتِك وحمايتِك وكنفِك دون سواك، فوفقني اللهمّ إلى التصدّي لهم دون انحناءٍ ولا تذلّل ولا انكسار ولا تنازل ولا تراجع، وأكرمني بالذلّ والانحناء بين يديك دون غيرك، اللهمّ إني ألوذ ببابك، ولا حول ولا قوة إلّا بك، اللهمّ إنني أعترف بعجزي عن تنقية قلبي، وبتقصيري في مراعاة حقوقك كما ينبغي، لذا فإنّني ألوذ ببابك مجدّدًا وأسألك أن تُنقّي قلبي كما يُنقّى الثوبُ الأبيض من الدَّنَسِ فتُعيده كحاله أوّل ما خلقته، ولا حول ولا قوّة إلا بك"؛ فإن

الحق تعالى لن يردّكم صفر اليدين ولن يُضيّع دعاءكم وتضرّعكم هذا دون نظيرٍ ولا مقابل، ولن يكِلَكم إلى أنفُسِكم طرفةَ عينٍ في اجتهاداتكم واستنباطاتكم واختياراتكم.

أجل، إن كنتم تعيشون حياتكم بهذا النهجِ وتلوذون ببابه صباحَ مساء؛ فتعرضون عليه حاجاتكم الواحدةَ تلوَ الأخرى وتُلِحُّونَ في الطلب فإن الله ﷻ الذي يسمعُ ذلك ويعلمه ويراه سيُجيبكم لا محالة، ولن يَرُدّكم خائبين، وكما ذُكِرَ كثيرًا في أوراد أهل الحقّ وأوليائه المؤثرة والعميقة التي تحرق القلوب وتُجيّش مشاعرها؛ فليس ثمّة أحدٌ حتى الآن ممّن طرقوا بابَه عادَ خاويَ الوفاض، وهناك الكثير ممّن تخبّطوا في أخطائهم وذنوبهم فلمّا لاذوا ببابه ولجؤوا إلى عفوِه ومغفرتِه وجنابه، غشيَتْهُم رحمتُه ولَفَّهم إحسانُه ولطفُه وعنايتُه رغم ما اقترفوه في السابق من ذنوب وآثام.

والحاصلُ: أن الحقّ تعالى من شأنه ألّا يتخلّى عن طالبي التعمير والإصلاح والتجديد وإن لم يحظوا بمراتب الفناء في الله والبقاء بالله ومع الله، وعجزوا عن الوصول إلى الذات الإلهية عبر المرور بمراتب علم اليقين فعين اليقين فحق اليقين، ولا يمتلكون رصيدًا حقيقيًّا في هذا السبيل سوى أنهم مخلصون وصادقون لأقصى درجة، ودائمًا ما يبتهلون إلى الله تعالى ويضرعون إليه ويلوذون ببابه بصدقٍ تامٍّ ويتوجّهون إليه سبحانه متضرعين قائلين: "اللهم الإيمانَ الكامل، اللهم الإسلامَ الأتمَّ، اللهم الإخلاصَ التامَّ، اللهم الصدقَ"؛ فقد شملهم الله بحفظه عبر حمايته ورعايته ونُصْرَتِهِ إيّاهم.

التوازن في النهي عن المنكر

سؤال: ذكرتم من قبل أن مِن أهمّ خصال الأرواح المتفانية غضّ الطرف عن قبائح الغير التي لا تعود بالضرر على المجتمع، ولكن عند النظر إلى مسألة النهي عن المنكر سنجد أنها تمثِّل أساسًا مهمًّا في الإسلام، وبناءً على ذلك فما حدود غضّ الطرف عن الآثام، وما هي ضوابط العفو عن السيئات؟

الجواب: لا بدّ لنا أن نفرّق هنا بين الذنوب أو الأخطاء الفرديّة وبين الجرائم والمنكرات التي تُعدّ انتهاكًا لحقوق المجتمع؛ لأن الموقف الذي يجب اتّخاذه يختلف باختلاف وضع كلٍّ منهما، فالأساس في الذنوب والأخطاء الفردية غضّ الطرف عنها وسترُها، والتعامل بالعفو والسماح بقدر الإمكان مع هؤلاء المسرفين على أنفسهم، ولكن إن كان هذا المنكر موجهًا لشخصٍ آخر أو يعود بالضرر على حقوق الناس فلا بدّ حينئذٍ من محاولة تغيير هذا المنكر باليد، فإن انعدمت الاستطاعة فباللسان، فإن انعدمت أيضًا فإننا -على الأقل- نتّخذُ موقفًا قلبيًّا رافضًا لهذا المنكر.

سبيل العفو والصفح في الحقوق الفردية

ولا داعي هنا إلى سرد الذنوب التي تخص الفرد؛ لأن تصوير الباطل واستدعاء أنماطه يُكدّر العقول النقيّة، ولذا يكون ضررُه أكبرَ من نفعه، ولكن يمكننا أن نُدرِج الأقوال والأفعال التي نهى عنها الإسلامُ عامة في عبارة واحدة، فلو أن الإنسان لا يشكّل نموذجًا سيئًا للآخرين، ولم يستخِفّ بأوامر الدين، ولم يستهِن بالقيم الدينية، أو ينتهك حقًّا للأمة؛ فحينذاك يمكن أن نعفو ونصفح عنه.

إن القرآن شدّد في مواضع متفرّقة على أهمّيّة العفو عن الناس ومعاملتهم بالحسنى وإن أساؤوا إلينا، فمثلًا يقول ربّنا تبارك وتعالى: **﴿وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾** (سورة آلِ عِمْرَانَ: ٣/١٣٤).

فقد عدّت الآية الكريمة كظمَ الغيظ والعفوَ عن الناس والإحسانَ إليهم من خصائص المتقين التي يمتازون بها، ولذا يقع على عاتق المؤمنين بدايةً أن يتعاملوا مع الذنوب والأخطاء الفردية بشكلٍ يتناسب مع هذه الدساتير القرآنية، وأن يغضوا الطرف عنها ساترين إياها بقدر الإمكان.

وإن الموقف الذي ينبغي للمؤمن اتّخاذه إزاء بعض التصرّفات والسلوكيّات التي يقوم بها الجاهلون هو الإعراض عنهم وتجنّبهم؛ لأن الله تعالى قد وضّح للمؤمنين في عددٍ من آياته كيفيّة المعاملة مع هؤلاء، وقال لهم آمرًا: **﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾** (سورة الأَعْرَافِ: ٧/١٩٩)، وقال: **﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾** (سورة الفُرْقَانِ: ٢٥/٦٣)، وقال: **﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ﴾** (سورة الْمُؤْمِنُونَ: ٢٣/٣).

تجنّب نشر الذنب عند النهي عن المنكر

ومع هذا فإن أصرّ الإنسانُ على ذنوبه وأخطائه، واستهان بها، وشكّل مثالًا سيّئًا للآخرين بقبائحه أو اعتدى على حقوق المجتمع فيجب عندئذٍ الحيلولة دون وقوع هذا المنكر بشكلٍ مناسب، وقد أبان رسولنا ﷺ عن منهج الإسلام في تغيير المنكر بقوله: "**مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ، وَذَلِكَ أَضْعَفُ الْإِيمَانِ**"[٨٢].

وعلى ذلك فإنّ أوّل مهمّةٍ تقع على عاتق الإنسان تجاه أخيه الذي وقع في مستنقع الخطيئة؛ أن يأخذ بيده ويصلَ به إلى برّ الأمان، فإن لم نقدر على ذلك فعلينا أن نستعين بمَن هو أقدر على ذلك، ولكن عند القيام بهذا العمل لا بد لنا أن نكون على درجةٍ عاليةٍ من الدقّة والانتباه فنحذرَ من إفشاء الذنوب والخطايا ونشرها، أو أن نتحوّل إلى دلّالين مروِّجين للأخطاء والآثام، فالحذرَ الحذرَ من الوقوع في ذلك؛ حتى لا نبعث الخجل في نفس مخاطبنا؛ فيمشي ذليلًا خانعًا بين أفراد المجتمع؛ لأن المقصد الأساس هو إنقاذ هذا الإنسان من مستنقع الشرّ الذي تردّى فيه، ليس إلّا.

وتأتي النصيحة عند تعذّر تغيير المنكر باليد، ولكن المهم هنا هو أسلوب إسداء النصيحة؛ فمثلًا: لا بدّ من أن نراعي جميع البدائل عند إسدائها، وأن نحذَر الوسيلة والأسلوب الذي يفضي إلى قيام المخاطب بردّ فعلٍ سلبي، من أجل ذلك فعلى مَن يودّ إنقاذ أخيه من مستنقع الشرور والآثام أن يحتاط لكلامه، فلا ينطق بكلمةٍ إلّا بعد أن يُعمِل فيها تفكيره جيدًا، فإن كان كلامُه سيُثير لدى المخاطب ردَّ فعلٍ سلبيٍّ فعليه

(٨٢) صحيح مسلم، الإيمان، ٧٨.

أن يستعين بشخصٍ يحظى كلامه بالقبول والاحترام عند المخاطب ليقوم بهذه النصيحة بدلًا منه.

بل قد يتطلّب الأمر في بعض الأمور الحرجة أن ينسحب الشخصُ الناصحُ من الساحة تمامًا، ويُحاوِل إصلاح أخطاء مخاطبه بطريقٍ غير مباشر؛ كأن يكتب له خطابًا مختصرًا يسوده أسلوب الحِلْم واللين، لا لغايةٍ سوى أن يتحوّل المخاطب من حاله السيئ الذي رآه عليه إلى الحسن المنشود، ثم يرمي بالخطاب من تحت الباب أو يرسله بالبريد... وهكذا فإن تَحَاشَيتم إبراز الأخطاء في وجه مخاطبكم حتى لا يقع في حرجٍ أو خجلٍ تكونوا بذلك قد صُنتم كرامته وحفظتم له قدره.

فالهدف الرئيس هنا: هو أن نجعل المخاطب يُعرض عن ارتكاب المنكر، ولذا لا بدّ وأن نضع لكلِّ خطوةٍ نخطوها حسابها، وأن نُعرِض عن تأنيب مخاطبنا بأيّ قول؛ فالمهارة لا تعني ذكرَ الذنب على أنه ذنب، أو جعلَ المذنب في وضعٍ حرِجٍ، بل المهارة هي إيجاد السبيل الناجع والأمثل الذي مِن شأنه أن يجنّب الإنسانَ الذنبَ.

الإرشاد والإنذار بابتسامة حزينة

ذكر رسول الله ﷺ أن الفحشاء والمنكر إن لم يتيسّر تغييرهما باللسان فبالقلب، حيث قال: "فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ"، وقد فهم علماء الحديث من هذه العبارة -نظرًا إلى معناها العام- ضرورة التصدّي للمنكر قلبيًّا، ومع هذا يمكن إيراد شروح وتحليلات مختلفة عن هذا؛ فمثلًا قد يُفهمُ من هذه الجملة ضرورةُ قطع العلاقة القلبيّة بمرتكبي هذه المنكرات؛ حتى إنكم إن التقيتم إنسانًا كهذا قد تصبحون -باشمئزازكم منه وتبسّمكم الحزين في وجهه وإعراضكم عنه- وسيلةً في توعيته وإقلاعه عن خطئه.

إنكم بفعلكم وموقفكم هذا لا تعارضون الشـخص، ولكن تعارضون فعلـه؛ فتبتهلـون إلـى الله قائليـن: "اللهـم خلّص أخـي ممّا تـردّى فيه من مصيبة، ونَفّره من ارتكاب هذه الذنوب والآثام" بل إنكم لا تكتفون بهذا؛ فتتضرّعون ألف مرّة ومرّة كي ينجو من تلك المصيبة قائلين: "اللَّهُمَ حَبِّبْ إِلَيْنَا الْإِيمَانَ وَزَيِّنْهُ فِي قُلُوبِنَا وَكَرِّهْ إِلَيْنَا الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ وَاجْعَلْنَا مِنَ الرَّاشِدِينَ"، وتعدّون هذا واجبًا من واجبات قانون الأخوة وحقوقها.

ذلك أن سـيدنا رسـول الله ﷺ قال: "**دَعْوَةُ الْمَرْءِ الْمُسْـلِمِ لِأَخِيهِ بِظَهْرِ الْغَيْبِ مُسْـتَجَابَةٌ، عِنْدَ رَأْسِـهِ مَلَكٌ مُوَكَّلٌ كُلَّمَا دَعَا لِأَخِيهِ بِخَيْرٍ قَالَ الْمَلَكُ الْمُوَكَّلُ بِهِ: آمِينَ وَلَكَ بِمِثْلٍ**"(٨٣).

وقـد حدثوني قديمًا عن انحراف أحدهـم، ومنذ ذلك اليوم لم يمض يـوم مـن أيامـي دون أن أذكره في دعائـي بين يدي الله، وقـد وقـع كذلك أحـد الإخـوة مـن ذوي الطويّة السـليمة في مشـكلة عَقَدِيّة؛ فكنـتُ أيضًا كلّمـا دعـوت الله تعالى ذكرت هذا الإنسـان في دعائي، وكنـت أعتبر أيّ إهمـالٍ منّي في هـذا الموضوع إخلالًا بحقّ الأخـوة وحقوقها، والله على مـا أقول شـهيد، ويمكن أن يُسـتدلّ على الدعـاء القلبيّ بهذا الشـكل من لفـظ الحديث، ولذلك فإن فهم لفـظ "فَبِقَلْبِهِ" الوارد في الحديث على أن المقصود منه البغضُ القلبي وقطـع العلاقة بالشخص والإعراض عنه فقط فهمٌ ناقصٌ؛ إذ المهمّ هنا هو معارضة المنكر والفعل المشين الذي يبغضه الله تعالى والتصدّي له، وفعلُ كل ما في الوسـع من أجل إزالته، وإنقاذُ من سقط في ذلك الخطإ من الإخوة.

(٨٣) صحيح مسلم، الذكر والدعاء، ٨٨.

حقّ العامّة من حقوق الله

إن المعارضة الجادة والحقيقية للفواحش والمنكرات التي قد تضر بالمجتمع بأي شكل من الأشكال -سواء أكان ذلك على نحوٍ واسعٍ أو ضيّقٍ- والعملَ على إزالتها والقضاء عليها يمثّل في الوقت نفسه ضرورة من ضروريّات احترام حقوق الله تعالى، كما أنها واجب ديني واجتماعي؛ إذ إنّ الإسلام -كما هو معلوم- يعتبر حقوق العامة من حقوق الله؛ أي إنَّ المساوئ والشرور التي تُفسد المجتمع داخليًا شأنها في ذلك شأن العُثّة(٨٤) -بالنسبة لما قد تلحقه من أضرار وتتسبّب فيه من نتائج سلبيّة- لإنها ليست كالذنوب التي تظلّ محدودةً بالفرد نفسه لا تتعدّاه، ولذلك فإنه يستحيل إغفال هذا النوع من الشرور والخطايا أو الصمتُ في مواجهتها؛ لذا يجب على المكلّفين بفرض قوّة القانون أن يسعوا جاهدين لمنع هذه الأخطاء والشرور، وينبغي للمؤمنين الرجوعُ إلى الجهات المختصّة بشكلٍ مناسب، وتشجيعُ المسؤولين في هذا الشأن، ومساعدتُهم أحيانًا باستخدام حقّ الشهادة إذا لزم الأمر؛ ونكرّر مجدّدًا أن المقصد من كلّ هذه الأمور ليس إحراج إنسانٍ أخطأ وهوى، وإنما المقصد هو اتّخاذ موقفٍ ضدّ الفواحش التي تنهشُ البنيةَ المجتمعيّة من الداخل، والسعيُ والاجتهادُ من أجل صيانة المجتمع وحمايته من تلك الفواحش.

ويمكننا أن نتذكر فيما يتعلق بهذا الموضوع ويمثل مبدأً مهمًّا بالنسبة لنا: الآيةَ الكريمة التي نزلت في معرض الذمّ بشأن مجموعة من بني إسرائيل؛ إذ يقول الله تعالى فيها: ﴿**لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ۞ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ**﴾ (سورة الْمَائِدَةِ: ٥/٧٨-٧٩).

(٨٤) **العُثّة**: حشرة طفيلية تلحس الجلود وتسبب الجرب الحكاك. **(الناشر)**

وإن أردنـا توضيـح معنى صيغة الفعل أكثر في قوله ﷻ: "لَا يَتَنَاهَوْنَ" فيُمكننا القول: إن الذين يُشيرُ إليهم موضوعُ هذه الآية لم يؤسِّسوا آليّةً ولا فكرةً مشـتركةً تحول دون ارتكاب المنكـرات؛ إذ لم يكونوا يرجعون إلى الوعي الجمعي في هذا الموضوع أو يراعونه، ولم يكن بينهم ثمّة تنسيق، ولهذا فقد لُعن هؤلاء الذين لا ينهون عن المنكر، بل ومُسخوا(٨٥).

إذًا ثمّة حاجةٌ لتأسـيس فكرةٍ مشـتركةٍ فيما يتعلّق بمهمّة الإنسان الذي يرى المنكر، وبما يجبُ على المسـؤولين أولي القوّة فعله في هذا الشأن، والمسؤوليات التي تقع على عاتق المجتمع عامة في مثل هذه المواضيع.

والحاصـل: أنه ينبغي للإنسـان أن يحاول جاهدًا فـي العفو والصفح عمّـا يُقـال بحقّه مـن كلماتٍ وأقاويل ليسـت لائقة ولا مناسـبة، وكما أن فـي المعدة والأمعاء إفـرازات وأحماضًا تهضم الأطعمة، فلا بدّ أن تكون في عالم المؤمنين القلبي والروحي أنظمةٌ تُذيب هذا النوع من المسـاوئ والمنكـرات وأوجـه الظلم والجـور وتقضي عليها، وبهـذه الطريقة ينبغي للإنسان أن يعفو ويصفـح -بكل سهولة- عن التصرّفات السيئة التي تُرتكب تجاهه، أمّا إنِ اسـتُهدفت مجموعةٌ أو جماعة معيّنة في شـخص إنسـان ما وأُسـيء إليها وإلى سـمعتها فهذا يعني أن المسـألة قد خرجت عن نطاق الفرد وتجاوزته إلى نطاق الجماعة، وليس من الصحيح ألّا ينتصر الإنسانُ لنفسه في مواجهة مثل هذا الظلم وألّا يدفعه عنها، بل ينبغي له العمل على دفـع هـذا الظلم بطرقٍ تتمثّل فـي توضيح الأمر وتصحيـح الفكر وتفنيد الأكاذيب، حتى إنه يلزم -إن استمر الظلم والتمرّد في الجور- اللجوءُ إلى غيـر ذلك من الطرق القانونيّة من أجل إسـكات المعتدين والحيلولة دون

(٨٥) يقول ﷻ: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ۞ فَلَمَّا عَتَوْا عَنْ مَا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ (سورة الأَعْرَافِ: ٧/١٦٥-١٦٦).

اضطهاداتهـم، وكذلك رفـع دعاوى قضائيـة تُطالب بالتعويض عمّا يلحق من ضررٍ بسبب تلك الافتراءات، ذلك أنّ بديـع الزمان بالرغم من تصريحه بأنـه صفـح عمن طوّفوا به السـجونَ، وحكموا عليه بالحبـس الانفراديّ، ونقلوه من محبسٍ إلى آخر ودَسُّـوا له السُّـمَ في الطعام بضـع عشـرة مرة؛ لـم يكن يصمـت قطّ حين يتعلّق الأمر بالخدمـة الإيمانية والقرآنيّة، فكان يُخـرس الظالميـن ويُفحمهم بصوتـه وخطاباته الجهوريّـة، وبهذه الطريقة يدافـع عـن الحقوق والقرآن والعامـة؛ كيف لا، وقـد كان قدوته في ذاك رسول الله عليه أكمل التحيات، تقول السيدة عائشة ﵂:

"مَا انْتَقَمَ رَسُـولُ اللهِ ﷺ لِنَفْسِـهِ فِي شَـيْءٍ قَطُّ، إِلَّا أَنْ تُنْتَهَكَ حُرْمَةُ اللهِ، فَيَنْتَقِمُ بِهَا لِلهِ"(٨٦).

---

(٨٦) **صحيح البخاري**، المناقب، ٢٣؛ **صحيح مسلم**، الفضائل، ٧٧.

أفق التضحية حتى بالأذواق والملذات الأخروية

سؤال: ما معنى قول الأستاذ النُورْسي ﵀: "لقد افتديت دنياي وآخرتي في سبيل إنقاذ إيمان المجتمع[٨٧]"؟

الجواب: لقد سبق هذه القامةَ الشامخةَ سيدُنا أبو بكر الصديق ﵁، والكثيرُ من أولياء الله مثل منصور الحلاج والإمام الرباني أحمد الفاروقي السرهندي وغيرُهم، وقالوا مثل هذا الكلام، ولقد عاش هؤلاء في قلقٍ واضطرابٍ كالملائكة الحفظة الذين يقفون على أبواب جهنم؛ حتى لا يتردّى أحدٌ في النار، وفَرَدُوا أذرعهم وشبَكوها كالمقصّ، وقالوا كما قال نجيب فاضل: "هنا زقاقٌ مسدود".

ضحى بدنياه أوّلًا!

ذكر بديع الزمان سعيد النورسي في مقولته أولًا أنه قد هجر الدنيا حتى يَسلم إيمانُ غيره، والحقيقة أنّ كلَّ مَنْ يُلقي نظرةً على حياة هذه القمّة الشامخة سيجد أن عمره من أوله إلى آخره يقرّر هذه المقولة؛ لأن نمط الحياة الذي اختاره لنفسه لا يمكن لإنسان عاديٍّ أن يتحمّله؛ فحياته حافلة بالنفي والسجن والاضطهاد والظلم، فلم يكتفوا بأن وضعوه في سجنٍ

(٨٧) بديع الزمان سعيد النورسي: **السيرة الذاتية**، ص ٤٩١.

انفـرادي، بـل أودعوه -ولتسـامحني هذه الروح الطاهرة- في مكانٍ يشـبه مكان قضاء الحاجة بالنسبة لهم، فضلًا عن ذلك فتحوا نوافذ هذا السجن على مصراعيها؛ حتى يتجرّعَ برودة الشـتاء القارس، ولـم يكتفوا بهذا أيضًا بل سـمّموه تسـع عشـرة مرة، دع عنك هذا الظلم والإيذاء الجسـدي في السجن، فقد أفردوا له عناصر أمنٍ يتتبّعونه ويُلاحقونه في الخارج.

بيد أن الأستاذ النورسي لو شاء لكان بمقدوره أن يُصبح صاحب جاه ومنصـبٍ، ويعيـش كغيره حياةً ملؤهـا الراحة والرفاهيـة والنعيم، والتنعم بلذائذ الدنيا؛ لأنه كان ذا عقلية سليمة؛ وضـع منذ اللحظة الأولى مشاريـع وخططًـا عظيمة؛ فأثـرت أحاديثه وكتاباته في جموع الناس، كتب في عهد المشـروطية كتابه المسـمى "السـنوحات"؛ والذي تحدّث فيه عن القلاقل والاضطرابات الواقعة في تلك الفترة، ووضـع في هذا المؤلَّف أيضًا كثيرًا من القواعد التي يمكن الإفادة منها في حلّ المشكلات، كما أبدع في كتابته لمؤلفه "المحاكمات" حتى أبهرَ علماء عصره، وطوّف بالأناضول، وأقنـع العشـائر التي تتحيّن الفرصة للتمرّد بالعدول عن فكرتها، وألقى خطابات في الميادين تهدِّئ من روع الفِرَق المتمرّدة، كان صاحب شـجاعة وجرأةٍ جعلتـه يصيح بأعلى صوته بعد أن حوكم في المحكمة العسـكرية: "تحيا جهنمُ للظالمين"؛ معلنًا أنه لن يُعرِض مطلقًا عن أفكاره ومشاعره.

فلو كان يفكّر قليلًا في الدنيا وداری مَن حوله لعاش حياته في بُلهنيةٍ ورفاهيـة، ولـو حاز على مقعـدٍ في البرلمان فـي السـنوات التالية لحرب الاستقلال، فجلس في صمتٍ وسكونٍ غير متطلّـع إلى شيءٍ لَلاقى مزيدًا من الشكر والتقدير، ولخُصّص له جزءٌ من المخصّصات السرّيّة، وعُرض عليـه كغيـره الحدائق والبسـاتين والشـاليهات والفيلات، ولـكان بإمكانه

أن ينعم بحياةٍ ناعمةٍ مرفّهة، وأن يعيش حياته الدنيوية في رغدٍ وراحة بال، لكنه دفع كلّ هذا بظهر يده في سبيل دعواه، وابتغى حياةً لا تُطاق من أجل سلامة إيمان غيره.

ما معنى التضحية بالآخرة؟

من جانبٍ آخر ذكر الأستاذ النورسي أنه قد ضحى حتى بآخرته في سبيل تحقيق سلامة إيمان المجتمع، فلم يفكّر حتى في نفسه؛ بمعنى أنه لم يلجأ لتقوية صلته بربّه ﷻ إلى حياة الانزواء والمجاهدة ورياضة النفس، ورقيّها معنويًّا، وانفتاحها على آفاق الذوق الروحاني؛ ومن ثم تظهر على يديه الكرامات، ويحظى بإجلال وتقدير من حوله، وكما لم يبتغ عرضًا من أعراض الدنيا لم يتشوّف إلى أيّ جزاءٍ أخرويّ؛ لأنّه جعل غايته المثلى الوحيدة هي سلامة إيمان الأمة.

ولكن ألم يكن له في الله أيّ مطمعٍ أخروي؟ كان له بالتأكيد، ولكنه كان يتشوّف إلى ذلك بفضلٍ من الله وكرمه ورحمته.

وهنا أريد أن أنبّه إلى أنّ الأستاذ النورسي ؒ وأمثاله من العظماء الذين كانوا يتبنّون المنهج الفكريّ نفسه قد تكاملوا مع أمّتهم حتى أصبحوا جزءًا من بنيتها الأساسيّة العامة، لقد صاروا وكأنهم خليّة من الخلايا العصبية القابعة في هذه البنية؛ ولذا كانوا يشعرون -بعمقٍ- بما يصيب هذه البنية من خيرٍ أو شرّ، ويتأثّرون بشكلٍ بالغ بهذا، وهناك قولٌ يُعزى إلى سيدنا أبي بكر الصديق ؓ فحواه "اللهم كبِّر جسدي لأملأ جهنّم بمفردي"، ولقد كان الأستاذ النورسي أيضًا يقول: "إن رأيتُ إيمان أمتنا في خيرٍ وسلامٍ فإنني أرضى أن أُحرق في لهيب جهنم دونها".

لكن من المتعذّر أن يَفهم هذا الكلامَ بمعناه الحقيقي شخصٌ ليس له من رحابة الصدر كما للأستاذ النورسي. أجل، حتى يستوعب الإنسان هذا الأفق من التضحية عليه أن يشعر بما يصيب غيرَه الآن من عذابٍ محقّق وما سينزل به من عذابٍ مقدّرٍ أو محتمَلٍ فيما بعد وكأن نارًا تضطرم في داخله، وهذا منوطٌ بأن يكون الإنسان ذا صدرٍ رحبٍ يحتضن كلَّ البشرية، وإذا شئتم فأطلقوا على هذا "الضميرَ العالمي"، فمَن يحملون هذا الضمير يفرحون لسعادة غيرهم ويحزنون لأتراحهم، فأينما نزلت النارُ بأي بقعةٍ في العالم أحرقتهم؛ لأن صدورهم تكتوي بلهيب هذه النار.

ولذا فإنه ليس بوسعِ أشخاصٍ عاديّين أمثالنا -وإن لم نقل هذا بالنسبة للجميع- أن يفهموا هذه الآراء والملاحظات الواسعة تمام الفهم؛ فنحن وإن استطعنا أن نُحسَّ بقدرٍ معيّنٍ بآلام أطفالنا وأزواجنا وأصدقائنا -إن وجدت- إلا أننا لا نمتلك صدرًا واسعًا بمقدوره أن يحتضن الإنسانية جمعاء، ولأننا لم ننفتح على أفقٍ معرفيّ كهذا ولا سعةٍ وجدانيّةٍ كتلك فإننا نعاني كثيرًا في فهم مدى الهموم التي أَضْنَتْ وأرهقت أولئك الأشخاصَ العظامَ.

لقد أتوا ذات مرّة بشخص -كنت أعرفه من قبل- إلى أحد دروس الأستاذ "يَشَارْ طُونَاكُورْ (*Yaşar Tunagür*)"، وقد تحدث المرحوم في وعظه هذه المرة أيضًا -كعادته- بشوقٍ عميقٍ ودموعٍ مدرارة، وفي حين كنت أحسب أن هذا الضيفَ تأثّر بهذا؛ إذ سمعته يقول: "لماذا ينتحبُ هذا الرجل على نحوٍ سيّئٍ هكذا!" فأخذتني الحيرة وحزنتُ حزنًا شديدًا؛ إذ كنتُ أرى أمامي فكرًا فظًّا محرومًا من قدرة ومَلَكَةِ الفهم والحس في جانب، وفي جانبٍ آخر: وجدانًا وضميرًا رحبًا يمثّل نموذجًا للرقّة التي

تنساب خارجه، وإنّ فهمَ ما يشعر ويحسّ به وجدانٌ رحبٌ فسيحٌ على هذا النحو مرهونٌ بمشاركته ذات الأفق الذي يُحلّق فيه.

ضرورة تقديم حقوق اللّه على كلّ شيء

لم تفكّر القمم -من أمثال الشيخ الجيلاني والإمام الغزالي والإمام الرباني وبديع الزمان- في نفسها فقط؛ نظرًا لأنهم اهتمّوا بدائرةٍ واسعةٍ جدًّا واعتنوا بمجال فسيح للغاية، أما من نالوا سعادة التعرُّف على مثل هذه الشخصيات البارزة فينبغي لهم أيضًا أن يركضوا ويسارعوا طلبًا للمشاركة في أفق التضحية عينه. أجل، إن الأرواح التي نذرت نفسها للحقّ ينبغي لها ألا تلهث وراء أفكار دنيوية من قبيل الصعود إلى قمم الجبال صيفًا، والنزول إلى السفوح والبيوت الساحلية شتاءً بغيَة التلذُّذ والتمتّع، عليهم أن يركلوا بأطراف أقدامهم مثل هذه الأفكار التي قد تخطر ببالهم، بل تجب عليهم -إلى جانب هذا- التضحية بالفيوضات المعنويّة التي منها إظهار الكرامات والكشف واستقراء بواطن الناس والتجوّل في الملاحظات والآراء الميتافيزيقية والتحليق سويًّا مع الروحانيّين، وعليهم أن ينذروا أنفسهم لإنقاذ إيمان الأمة فحسب، أما في مواجهة أحاسيس هذا النوع من الفيوضات الإلهية التي تتحقّق دون طلبها فينبغي أن ينتابهم القلق ولسان حالهم: "تُرَى أيمتحنني الله تعالى بهذا؟" ويجب أن يكون موقفهم على نحو: "اللهم إن كان كلّ واحدٍ من هذه الأمور ليس "استدراجًا"، بل لطفًا منك؛ فلك الحمد، إلا أنني لا أطلبها"، إنّ فهمًا قويًّا حذِرًا على هذا النحو يعني في الأساس تقديم حقوق الله على كلّ شيءٍ دائمًا.

وهنا قد يكون من النافع لفتُ الانتباه إلى نقطة ربما يُساءُ فهمُها: إن تضحية الإنسان بآخرته أو التضحية بالفيوضات المعنوية لا تعني إهمال

العبـادة والطاعـة والأوراد والأذكار أو تركهـا، بل إن الأمـر على العكس مـن ذلـك؛ إذ إن المسـتهدفَ -إلى جانـب ضرورة الوفاء بهـا على أكمل وجه وأتمه- ليس الكشـف والكرامة، ولا المتـع ولا الملذات الروحانيّة، وإنما وفاء الإنسان بوظيفة العبودية، وإشعاره الآخرين بطعم ولذّة ما ذاقه وأحـسّ بـه، كما أنه يسـتحيل على الفرد الـذي لا يحمـي إيمانه ويصونه بالعبادة والطاعة والأوراد والأذكار أن يُنقذ إيمان غيره.

أما الأمر الأخير في هذا الشـأن فيمكنني أن أقول: إن تجاهل الإنسان نفسه وعدم تفكيره فيها واهتمامه الدائم بمشاعر وأحاسيس إحياء الأنفس، وذكـره الله تعالـى دائمًـا، وقضـاءه ليله مفكّـرًا في الإنسـانيّة؛ كلّ هذه من أوصـاف الأنبيـاء، وفي حيـن أن الناس يصنفـون في الآخـرة وفقًا لفئات معيّنـة فـإن من يعانون ويكابدون في سـبيل الله والديـن والإيمان والقرآن والإنسـانية يُحشـرون مـع النبيّن بـإذن الله تعالى، ولهذا فـلا بدّ من إعلاء الهمم، ونبذ مشـاعر العيش الأناني، والسعي دومًا في سبيل مثالية الإحياء والإعاشة.

الابتلاء مع النجاح: نشوة النصر

سـؤال: مـا الموقف الإيماني الـذي يجب مراعاته عنـد تحقيق نتيجة إيجابية أو إحراز نجاح ما؟

الجواب: إن المؤمن الحقيقي هو الذي يعي أنّ كلّ حسـنةٍ أصابها أو جمالٍ اكتسبه أو نجاحٍ حققه إنما هو من عند **الله** ﷻ، وأن كلَّ سيئةٍ أصابته أو فشـلٍ مُنـي بـه إنما هو من عند نفسـه؛ لأن الحق ﷻ يبيـن هذه الحقيقة بشـكلٍ صريحٍ وواضحٍ فيقول: ﴿**مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَـنَةٍ فَمِنَ اللّٰهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ**﴾ (سورة النِّسَاءِ: ٤/٧٩).

ولذا يجب على المؤمن ألّا ينسب لنفسه أبدًا أيّ حسنةٍ أو جمالٍ كان هـو وسـيلةً لهما ولا أيّ عمـل أو خدمة قام بهما، ففـي الواقـع إننا عندما نسبّح ربّنا تبارك وتعالى في جميـع صلواتنا نعلن أنه ﷻ لا ندّ ولا شريك ولا نظيـرَ ولا مثيـلَ لـه في إجراءاته وشـؤونه وربوبيته، فإذا ما شـعرنا في أعماق قلوبنا بهذه الحقيقة -التي تتفوّه بها ألسنتنا- وجعلناها تستولي على أفكارنا تمامًا؛ نكون بذلك قد نجونا -بإذن **الله** تعالى- من الوقوع في جرمٍ كبيرٍ كأن ننسب إلى أنفسنا الجماليّات والنجاحات التي كنّا وسيلةً إليها.

طوبى لمَن عرَف حدّه فوقف عنده

يجب على المؤمن أن يعرف حدّه ولا يتجاوزه، أيًّا كانت النجاحات التي حققها، ويشير الأستاذ النورسي ﵀ إلى هذه الحقيقة التي يؤكّد عليها النبي ﷺ بقوله: "**طُوبَى لِمَنْ عَرَفَ حَدَّهُ وَلَمْ يَتَجَاوَزْ طَوْرَهُ**"(٨٨).

غير أن هذا يتأتّى من إدراك الإنسان بأنه خُلقَ من لحم ودم، وأن ماهيته قد عُجنت بالعجز والفقر، فضلًا عن ذلك ينبغي للإنسان أن يتعمّق أكثر في تفكيره، وأن يراعي أنه تلطّخ بالأرجاس التي يمكن أن نصفها بالبلوى العامة، وأنه غرق في الذنوب حتى أذنيه، ومن ثمّ عليه أن يقول:

إنما أنا مخلوق ضعيف ولا حيلةَ لي؛ بمعنى أن الله تعالى قد تكرّم عليّ بكلّ هذه الأفضال والإحسانات بمحض قدرته ورحمته الواسعة، فلو فكّر الإنسان على هذه الشاكلة، وتوجّه إلى ربّه بتوحيدٍ خالص، فلن تساورَه الأوهام التي تجاوزُه حدّه، وسيُديم الله تعالى عليه نِعَمه لأن ذلك الإنسان قد أدرك أن الله تعالى هو مصدر كلّ نعمةٍ يُتنعّم بها.

وينبغي ألا يغيب عن عقل الإنسان ما اقترفه من ذنوبٍ وآثام حتى يعي أن نفسه لا يُؤمَن لها ولا يُعوَّل عليها؛ وبذلك لا يأخذه الغرور والكبر طالما أنه على وعي بالجرم الذي ارتكبه، دَعْ عنك الكبر والغرور، إنه -علاوةً على ذلك- ينظر إلى نفسه نظرة الإنسان المجرم على الدوام، وينظر إلى الأعمال الخيرة في الظاهر على أن الله تعالى قد يجري أمثالها على يد الرجل الفاجر؛ وعندها يقول في نفسه: "أنا إنسان لا حول لي ولا قوة، ولكن الله تعالى يُجري النفع على يد مَن لا يُرجى منه ذلك"، وعليه ألّا يكفّ عن مساءلة نفسه ومحاسبتها دائمًا بوسائل شتّى.

(٨٨) البخاري: **التاريخ الكبير**، ٣٣٨/٣؛ الطبراني: **المعجم الكبير**، ٧١/٥.

ولا يدفع هذا الإنسانَ إلى أن يعتقد أنه لا بدّ من اقتراف ذنبٍ حتى يتخلّص من مثل هذه الأوهام، لأن الأخطاء التي نقترفها دون وعيٍ أو سابق إصرارٍ -مثل الاستماع إلى الذنوب والإقدام على ارتكاب خطإٍ ما- تُعدّ بمثابة رأسمالٍ كافٍ لندرك أن النفس لا يوثق بها، المهم هو الاستفادة من هذه الأخطاء، فإذا ما تاب الإنسان إلى ربّه ألف مرّةٍ، واستحضر الخطأ الذي ارتكبه دائمًا بين عينيه فلن ينسِب إلى نفسه أبدًا النتائج التي تفضّل الله تعالى عليه بها جرّاء العمل والجهد، وسيشعر يقينًا أن هذه النتائج هي لطفٌ من ألطاف الله تعالى.

أما الأمر الذي تجب مراعاته عند هذه المحاسبة الراقية: فهو أن الشيطان قد يعمل على تعظيم الجرم لصاحبه حتى يبعده عن ربّه ﷿، ويحاول أن يخدعه قائلًا: "لن تستطيع أن تتّجه إلى ربّك وأنت محمّلٌ بهذا الجرم"، ومن ثمّ فعلى الإنسان في مثل هذه الأحوال أن يتوسّل بكلّ السبل التي تساعده على التطهّر من ذنوبه، ولا يقنط في الوقت ذاته من رحمة الله تعالى، بل يقول: "جرمي كبير، ولكن قلبي لك عاشق"، لا بدّ ألّا تمنعه ذنوبه من التوجّه إلى ربّه والتطلّع إلى لطفه وعنايته وفضله ومشاهدة شؤونه ﷻ، وحتى إن اعتقد أن هذه الذنوب قد أبعدته كثيرًا عن ربّه تعالى فعليه أن يَسْبح بأفكاره ومشاعره حول القرب منه ﷻ، وإن غرق الإنسان حتى أذنيه في الآثام وليس إلى ساقيه أو ركبتيه فعليه أن يتوجّه أيضًا إلى الله تعالى السلطان الأوحد لدائرة الربوبية والألوهية، وإلى سيدنا رسول الله ﷺ أعظم داعٍ في هذه الدائرة، وأن يفنى في حبّهما، ولا يبرح ذلك الباب أبدًا، وقد يبدو هذا تناقضًا من ناحيةٍ ما، لكن يجب على المؤمن أن يقيم توازنًا بين هذه التناقضات في حياته.

الشيخ لا يطير ولكن المريد هو مَنْ يدفعه إلى الهاوية

ولنرجع إلى موضوعنا الأصلي ونقول: إنّ مِن أكثر المهالك التي يقع فيها الإنسان إزاء ما يحقّقه من نجاحاتٍ هو أن يفكّر أنه جديرٌ بهذا المدح والثناء الموجّه له نتيجة ما أحرزه من نجاح، بيد أن الله تعالى قد يتفضل على الإنسان بأعظم من هذه الجدارة واللياقة التي هي ابتلاءٌ في حدّ ذاتها؛ ولذلك لا بدّ للإنسان ألا يقصِّر في أداء شكره لله ﷻ على ما أنعم عليه من فضائل من ناحيةٍ، وألا يعزوها إلى نفسه من ناحيةٍ أخرى، إن الإنسان الذي يعي الجرم الذي وقع فيه لا يعزو لنفسه شيئًا من فضل الله؛ لأنه إذا ما نظر -مثلًا- إلى الورود اليانعة ونظر إلى نفسه حاسب نفسه وعبّر عن حيرته ودهشته من نموّ هذه الورود في هذه الأرض القاحلة، والحقّ أن الله تعالى قد يتوجّه بمزيدٍ من فضله وإحسانه على أناسٍ تعثّرت أقدامهم فسقطوا في الذنوب والمعاصي؛ بسبب ما بذلوه من سعيٍ وجهدٍ عند القيام بأعمالهم، فإذا ما رأى البعض هذه الفضائل التي منحها الله لهذا الشخص قد يلتفون حوله ويعبّرون عن تقديرهم وتوقيرهم له، بل قد يهمّ أحدهم ويزعم أنه وليٌّ من أولياء الله، وقد يتقالّ آخر هذا اللقب ويقول: أي ولي؟! إنه يبدو كالغوث بآثاره البديعة، بل يتجاوز آخر هذا الأمر ويدّعي أن ذلك الشخص قد جمع بين القطبيّة والغوثيّة، وإزاء كلّ هذا المدح والإطراء ربما يستهوي ذلك الشخص المقامات التي أنزلها له الناس لحسن ظنِّهم فيه ويقول في نفسه: يا ترى هل أنا وليّ أم غوثٌ على الحقيقة؟".

وقد يجد ذلك الشخص لهذا الحال مبرّراتٍ معقولة؛ فقد يقول مثلًا: "إن أعظم إكرام من الله للإنسان هو ألا يُشعره بإكرامه"؛ وهذا يعني أنني لم أكن على وعيٍ بالمنازل التي بلغتُها حتى الآن، فلا جرم أن هؤلاء الكثيرين الذين يلتفون حولي لا يكذبون"، وكما يقولون: "كم طيّرت

طقطقةُ النعال حول الرجال من رأس! وكم أذهبَت من دين!"، إن ذلك الشخص لا يطير في الحقيقة ولكن الآخرون هم من يلجئونه إلى الطيران، والحقّ أن هذا ليس طيرانًا، ولكنه -حفظنا الله- تدحرجٌ نحو الهاوية؛ لأنه قد يأتي زمان ولا يقنع هذا الشخص بالقطبية والغوثية لِما يلقاه من فرط المدح والثناء، فييمّم وجهه نحو المسيحية والمهدية، ولا سيما إن أوحى إليه من حوله بأنه المهدي أو المسيح، فينخدع هذا المسكين بالمقامات التي أنزلها له الغَيْرُ بحسن ظنّهم فيه، ويأخذ في إقناع نفسه بهذا الأمر، وأحيانًا ما يلجأ إلى توضيح فكرته بتواضعٍ مزيّفٍ، ويستخرج من الآيات والأحاديث المتعلّقة بهذا الموضوع ما يؤيّد هذه الفكرة أحيانًا أخرى، ولربما يرى نفسه طائرًا في السماء بينما لا يستطيع أن يسير على أرض مستوية بسبب ما اقترفه من ذنوبٍ ومعاصٍ، ويسلك طريقًا محفوفًا بمخاطر جمّة؛ فيسوق نفسه إلى الهاوية.

بيد أن على الإنسان -كما ذكر بديع الزمان سعيد النورسي- أن يتحلّى بالصدق والإخلاص في دعواه بدلًا من أن يُنزل مَن يحبّهم مقامات أعلى من حدّهم. أجل، يجب على الإنسان أن يحبّ إخوانه إلى درجة لا يستعيض عن هذا الحب بالدنيا وما فيها، ولكن عليه أن يتجنّب المدح والثناء المبالغ فيه والذي يقطع به عنق صاحبه.

مثلُ الجلد في يد الدباغ

حين ننظر إلى تاريخنا نجد أن هناك كثيرًا من الأشخاص -بدءًا من السلاطين والشعراء وصولًا إلى أولياء الله تعالى- قد أذلّوا أنفسَهم وحقّروها على الدوام، ورغم أن كلَّ واحدٍ منهم يمثّل قامةً ساميةً شامخةً إلا أنهم لم يروا لأنفسهم أيّةَ قيمةٍ ولا قدرٍ قطّ، والواقع أن الأفراد الأنانيّين

المغرورين في أنفسهم لا يمكنهم أن يمثّلوا شيئًا ولا قيمة؛ إذ إنه يستحيل عليهم أن ينسلّوا من الخيالات والأوهام بأيّة حال؛ لأنهم دائمًا ما يشعرون بضرورة التعبير عن أنفسهم؛ فلا يرون الحقائق كافيةً لتحقيق هذا، ومن ثم يدخلـون مـن أجل تحقيق هذا في نوعٍ من الأوهام والخيالات، ويلجؤون إلى طرق أخرى كالسمعة والرياء.

ومن ذلك على سبيل المثال أنْ يَهُمَّ أحدُهم يومًا فيتحدّث عن الإمام البخـاري ﵀، بيـد أنه يفاجأ بـأن كلامه لا يحظى بأيّ نـوعٍ من الاهتمام؛ إذ إنَّ كل قولـه معهـود لـدى علماء الحديث أجمعينٍ، ومـن ثم فإنه حين يـرى عجـزه عن جذب الأنظار إليه بما قاله يشـعر بحاجةٍ إلى قول أشـياء أكثر أصالةً وعراقةً؛ فيرى رأيًا مختلفًا فيما يتعلّق بوجود الآخرة، ويسـعى مجدّدًا كي يلفت الأنظار إليه مستخدمًا عبارات كعبارات منسوبي المذهب الأحادي الفلسفي، والحقيقة أنه لا فرق بين قوله وقول "الشيخ بدر الدين" فـي كتابه المسـمى "الواردات"، بـل إننا قد نواجه تناقضات مشـابهة حين ننظر إلى الأفكار التي زعمها وطرحها "أرسطو" عن العالم الآخر والروح، فحين يدرك أن ما طرحه من أطروحات ظانًّا أنها أصيلة قد نادى وتشـدق بها كثيرون غيره من قبل يبدأ يفكر ماذا سـيقول هذه المرة؟؛ فيتحدّث عن تناسـخ الأرواح كي ينتج أوهامًا وخيالات أخرى، بيد أن مظاهر الأصالة والعراقـة التـي يتمثّلهـا ذلك الشـخص كي يسـلّي نفسـه ويرضيهـا تنتهي بالخسران والضلال؛ لأنه لا يبحث عن الحقائق ولا يعنيه إبلاغها ونشرها.

وقـد خلقنـا الله تعالى عبـادًا له، وليس ثمّة رتبةٌ ولا درجةٌ أسـمى من رتبة العبودية بالنسـبة للإنسـان، فلماذا لا نقنـع بخلق الله تعالى إيانًا عبيدًا له، ولا نكتفي بذلك؟! إن الواجب الواقـع على عاتقنا هو التوجّه الصادق

إليـه ومقابلـة ربوبيّتـه وألوهيّته بالعبوديّـة الحقّة الجـادّة، وبمفهوم فضيلة الأسـتاذ بديـع الزمان "فإن العبودية شـكرٌ لنعمٍ وُهبت لنا مسـبقًا؛ وليست مقدّمـةً لنعم نحظى بها لاحقًا"[٨٩]، ولذلك فإنه ليس من الصواب الإذعان والإقرار بالعبودية لله تعالى بغيةَ نيل نعمٍ معيّنة فحسب، وكما أن الله تعالى قادر على أن يهب وينعم دون مقابل؛ فإنه قادر على أن ينعم ويحسـن من رحمتـه الواسـعة جزاءً على العبودية لـه، إلا أن هذا لا يُنتظر، فنحن كعباد نالوا أجرهم ومكافأتهم مسـبقًا يقـع على عاتقنا، بل ومن واجبنا أن نحمد الله تعالى ونشكره دائمًا.

إن الإنسان الذي لا يعبد الله يعبدُ نفسَه، وعابدُ نفسِه يعيشُ من أجلها فحسبُ، ويرَاهَا مركزَ العالم، ومثل هذا الإنسان يُسمى أنانيًّا، كما يطلق لفظ "نرجسـي" على الإنسـان المشغول بنفسه دائمًا المشـغوف والمولـع بأفُقِه وأفـكارِه وآرائه الخاصّة، بل وقامته وقـدّه وأدائه وتصرّفاته، فأمثال هؤلاء يعجبون ويتفاخرون بما فعلوه وما حقّقوه هم فحسـب من نجاحات، وأما أنْ يُعجَبوا بما فعله الآخرون فهذا أمرٌ محال، بل إنه لم يثبت ولم يلاحظ أن مثـل هؤلاء الأشـخاص قنعوا بمـا حظوا به من مدحٍ وثنـاءٍ؛ فَهُم دائمًا ما يطمعون في الأكثر والمزيد، وبالطبـع لا يحقّق مثلُ هؤلاء الأشـخاص الأنانيّين النرجسيّين أيّةَ فائدةٍ ولا أي عملٍ نافعٍ للإنسانية.

أمـا الأشـخاص المتواضعـون فالله تعالـى يهيّئهم لكثير مـن الأعمال الصالحة الخيرة، وكما قال الشاعر:

والبـذرُ في الترب إن لم يُغمرا   أنى يكون لفيض ربّك مظهرًا
والـمرءُ إن لـربـه قـد أخبتـا   فبرحمة الرحمن يسمو لافـتًا

---

(٨٩) انظر: بديع الزمان سعيد النورسي: **الكلمات**، الكلمة الرابعة والعشرون، الغصن الخامس، ص ٤٠٥.

أي إنَّ البـذرة لا يمكنهـا أن تنبت وتنعم بالحياة مـا لم تُبذَرْ في باطن الأرض، والمتواضعـون يرفعهم الله حتى يصبحوا قاماتٍ سـامقات بمزيد ألطافه ﷻ، وهكذا كان الشـيخ الجيلاني، ومحمد بهاء الدين النقشـبندي، وكذلك أبو الحسن الشاذلي، وفضيلة الأستاذ بديـع الزمان، فنحن لا نزال نقـرأ أورادهـم وأذكارهم ونسـتفيد من آثارهم رغم مـرور قرون وعصور على رحيلهم؛ إذ صار كلُّ واحد منهم رمزًا مخلّد الذكر؛ حيثُ كانوا أبطال التفاني والتواضـع والحياء ونكران الذات.

لقد تجاهلوا أنفسهم وحوّلوا هممهم كلّها لإثبات الله تعالى، وتدارسوا وجوده سبحانه، وطهّروا أنفسهم وأخلصوها، وبتعبيرٍ آخر قصروا أنظارهم على أنهم "ظِلُّ ظِلِّ وجود الله"؛ فخَلَّدَ الله تعالى ذكرهم؛ فلا يزالون يحيون في داخلنا، إنهم يعيشـون في داخلنا حتى إنه يُخيّلُ إليَّ وأنا أدخل غرفتي أحيانًا أنني سـألتقي أبا الحسن الشـاذلي أو عبدَ القار الجيلاني مثلًا؛ إنهم حاضـرون في ذاكرتي ومخيّلتي. أجل، لقد هرعـوا لإثبات الله، فثَبَّتهم الله تعالـى وأبقـى ذكرهـم؛ حتـى إن كلّ واحـدٍ منهم يضطلـع بوظيفة مرشـدٍ ودليلٍ يهدينا إلى الطريق رغم مرور عصور على انتقاله إلى الرفيق الأعلى، فبعد سبعة أو ثمانية قرون لا نزال نبحث عن حلول لمشكلاتنا المعاصرة بالرجوع إلى أورادهم وأذكارهم، فهل هناك تَثبيتٌ أجمل من ذلك؟!

والحاصـل أن التكبّـر والتباهي مـن أكثر أمراض عصرنا انتشـارًا مع الأسف، فإن ألمَّ هذا المرضُ بالإنسان في نهاية النصر والفلاح فقد دخل مُنْحَنًـى خطيـرًا لدرجةٍ تدفعه إلـى الهلاك، إذن ينبغي لنـا أمام النجاحات والنتائج الطيبة أن نَرُدَّ كل هذا إلى الله تعالى، ونحمده ونثني عليه، وننحني تواضعًا وامتنانًا له سبحانه.

التحذير من الشرور وتصوير الباطل

سؤال: يقول الأستاذ بديع الزمان: "إن تصوير الباطل تصويرًا واضحًا إضلالٌ للأذهان الصافية"، غير أنه يتوجب الحديث عن شر الباطل لإبعاد الناس عنه، فكيف يمكن تحقيق التوازن بين هذين الأمرين؟

الجواب: أولًا، هناك فرق بين التحذير من شيء بوصفه شرًّا وبين تصويره بكل تفاصيله؛ فلا بد من التذكير بسوء التصرفات الضارة بالفرد والمجتمع ولفت انتباههم إليها حتى يمكن إبعاد الناس عنها وتنفيرهم منها وإثارة اشمئزازهم تجاهها، بيد أنه ينبغي عند القيام بهذا ألا تُرسم تلك الأفعال والتصرفات السيئة رسمًا بيِّنًا واضحًا بحيث تكون صورة تتجسم في الأذهان، لأن تصويرها تصويرًا فاضحًا وإبرازَها قد يستثير هوى السامع ويستميله إلى هذه السلبيات الشنيعة.

ولكي لا يؤول الأمر إلى خلاف مقصده يجب عرضُ المساوئ والذنوب عرضًا إجماليًّا دون الدخول في التفاصيل، مع بيان أضرارها، ثم ذكرُ العاقبة السلبية التي ستدفع تلك المساوئُ الإنسانَ إليها في الدنيا

والآخرة، فمثلًا يحسن التذكير بأن من يرتكب المنكرات ويجري في إثرها دائمًا سيفقد الفيوضات المعنوية ويستحيل عليه التمتع بعباداته وطاعاته، وأن بصيرته ستعمى، وسيعجز عن تحريك أحاسيسه، ويعيش منقطعًا عن الأحاسيس الذاتية، كما أنه سيعجز عن التخلص من الإسلام الصوري وتكون معرفته بالله تعالى معرفة نظرية فحسب، وأنه يستحيل عليه الوصول إلى الشعور بالعيش في حضرته تعالى... أي ينبغي لفت الانتباه إلى عاقبة الذنب السيئة بدلًا من الاهتمام بتصويره.

التأثيرات الهدامة للتداعيات السلبية

إن الشيطان يستغل -كما هو معلوم- بعض المشاعر السلبية الموجودة لدى الإنسان استغلالًا جيدًا كي يدفعه إلى الذنب، فمن المهم ألا تستيقظَ هذه المشاعر وألا تُوقظ، أما الكلمات التي تقال في تصوير الباطل فإن كلًّا منها يبدو وكأنه سائق يؤدي إلى إيقاظ تلك المشاعر؛ إذ إنها تحرك هذه المشاعر الكامنة لدى الإنسان، فيستغل الشيطان هذه الفرصة، ويحاول التأثير على الناس ودفْعَهم إلى الشرور مستخدمًا تلك التداعيات السلبية.

وحين يُذكر تصوير الباطل يخطر بالبال غالبًا تلك الأمورُ التي تثير الغرائز البشرية، لكن ليس من الصواب ربط المسألة بالأحاسيس الشهوانية فحسب، إنها مجلبة لكل أنواع الشرور التي يمكن أن تُشكّل لدى الناس رغبةً وطلبًا لفعلها، فإذا رمتم مثلًا أن تشرحوا شناعة النفاق، فإن قدَّمتم المسألة تقديمًا يُفهم منه أن النفاق نوع من المهارة تسببتم في تكوّن مشاعر الإعجاب تجاه تلك الصفة السيئة عند بعض الناس، فلا بد من استخدام أسلوب يصطبغ بالترهيب في جميع التصرفات والسلوكيات التي تدخل ضمن إطار المساوئ، وأن يكون الحديث عن عقاب مرتكبها يوم الحساب.

إن هذه الحساسية الشديدة لازمة عند تصوير الشرك أيضًا، فمثلًا لا داعي للتكرار الكثير لأسماء الأصنام والأوثان التي تُشرَك بالله تعالى إن لم يكن ثمة أية ضرورة، ولا بد من الإجمال في هذا والتركيز على أن من يشرك بالله يفقد دار السعادة الأبدية، وتكون الحياة الأبدية في جهنم حظَّه.

عند ذكر مساوئ كعقوق الوالدين، وشهادة الزور والسرقة والغيبة... لا بد من اتباع أسلوب إجماليّ، ومن لفْتِ انتباه الناس إلى عاقبة هذه الذنوب حتى يتكون عندهم شعور المقاومة تجاه ارتكاب تلك الأمور.

إن هذا المنهج منهج نبويّ، فمثلًا يقول سيدنا رسول الله ﷺ: "**مَنْ يَضْمَنْ لِي مَا بَيْنَ لَحْيَيْهِ وَمَا بَيْنَ رِجْلَيْهِ أَضْمَنْ لَهُ الجَنَّةَ**"(٩٠)، وبهذا يوضح لنا النبي ﷺ كيف يصبح الإعراض عن آفات اللسان وتجنب الزنا سبيلًا للفوز في الآخرة، فهنا يعرض النبي ﷺ المسألةَ إجمالًا وبأسلوب الإيماء المعجز، لافتًا الأنظار إلى جزاء المرء في الآخرة، إذا هو نزّه نفسه من هذه الشرور.

ويجب أن نعرف أنّ الإنسان قد يظلّ ذهنه مكدّرًا أيامًا وربما أسابيع إنْ تعرض لتصوير الباطل، بل قد تشغل ذهنَه بعض الأمور القبيحة حتى في أثناء عبادته لربه ﷻ، ومن ثمّ ينبغي للإنسان أن يكون من البداية قويًّا مصرًّا على تجنّب مثل هذه الأمور السلبية؛ وإلى جانب تحاشيه كلّ هذا عليه أن يشغل ذهنه دائمًا بالأمور الحسنة، حتى إذا عنت له هذه الصور القبيحة ظهرت أمامه أجمل الأقوال والأفكار واللوحات، فإن تلوثت عينه أو أذنه أو ذهنه بشكل ما أو ران على قلبه أمر سلبي فعليه ألا يعمّره طويلًا، وأن يهرول على الفور إلى أقرب سجادة صلاة، ويحاول أن يتطهر من أدرانه التي علقت به في حوض التطهر هذا.

(٩٠) صحيح البخاري، الرقاق، ٢٣.

ذهنٌ صافٍ وعاقبة حسنة

الحقّ أن الأذهان معرّضةٌ في أيامنا هذه لأكدار شتّى في الشوارع والأسواق، بل حتى في بيوتنا التي تُعدّ أكثر الأماكن حصانة بالنسبة لنا، وبمرور الوقت تكدِّر هذه التصاوير والمناظر السلبية المتراكمة مخَّ الإنسان وذاكرتَه، ثم تشغل الإنسانَ، وتثير فيه مشاعر سوءٍ، وتقمع هذه الصورُ الكامنة في ذهن الإنسان عالمَه الفكري والشعوري، وتُملي عليه رغباته وشهواته، وإذا ما واتتها الفرصة قيدت إرادته وجرّته إلى الذنوب والمعاصي التي تدمّر حياته الأخروية.

أجل، إن هذه الصور الخليعة والمناظر المثيرة تشكِّل لدى الإنسان مع الوقت مكتسباتٍ لا شعورية، وتشرع في تدنيس خواطره، بيد أن الإنسان لا بدّ وأن يكون لديه عزمٌ على أن يظل نزيهًا حتى في أحلامه، إننا إذا ما استرشدنا بأدعية الرسول الأكرم ﷺ وواظبنا على الأدعية التي تُقرأ عند النوم ليلًا، فهذا يعني أننا نلجأ إلى ربنا قائلين: "اللهم يا من لا تضيع ودائعه، أستودعك مشاعري وأفكاري وأحلامي، اللهم جنِّبها الكدر والدنس حتى لا أستيقظ والأفكارُ القذرة تراودني"، عند ذلك نكون قد أودعنا عالم ليلنا إلى حفظ الله ورعايته.

ولا جرم أن مراعاة المرء لهذا القدر من الدقة لها أهمية عظمى لحياته الأخروية، يجب أن نعلم أن الإنسان يقيد له في دفتر حسناته أي نية له أو دعاء أو سعي صادر منه، بل إنّ أيّ جهد يبذله لئلا تتكدّر أحلامه ولا تقمعَ المكتسباتُ اللاشعورية أحاسيسَه ولِيحافظَ على نقاء مشاعره وأحاسيسه قد يكون أولى من صلاة مائة ركعة، غير أنَّ تنزُّهَ الإنسان في العوالم النزيهة حتى في أحلامه وسيرَه في الجنات بين الأزهار مرهونٌ بمدى عزمه وإصراره على إعطائه إرادتَه حقَّها.

وبقدر تورّعِ الإنسان عن التفكير في المعصية وبُعدِه عن العوامل التي تدفعه إليها بقدر سلامته من الوقوع في الآثام، يشير الرسول ﷺ بدعائه هذا إلى ضرورة تجنب الخطايا: "**اللَّهُمَّ بَاعِدْ بَيْنِي وَبَيْنَ خَطَايَايَ، كَمَا بَاعَدْتَ بَيْنَ المَشْرِقِ وَالمَغْرِبِ**"(٩١)، فإن مَن حام حول حمى المعاصي فلا جرم أنه سينجرف بعد زمن مع التيار ولن يجد فرصة للخروج إلى الشاطئ مرة أخرى.

أجل، لو أبحر الإنسان مرة في بحر المعاصي لَما استطاع الخروج إلى الشاطئ مرة أخرى؛ ولذا لا بدّ وأن يسعى الإنسان إلى تنقية ذهنه وفكره ومشاعره على الدوام، وأن يكون على حذرٍ ويقظةٍ دائمة من الفخاخ النفسانية والشيطانية.

---

(٩١) صحيح البخاري، الأذان، ٨٩.

النهج الموضوعي في الحديث عن الخدمات

سؤال: تُركّزون على ضرورة أن يكون الحديث عن الخدمات التي تنجز وتتحقّق حديثًا موضوعيًّا وعقلانيًّا بعيدًا عن الانفعالية والعاطفية؛ فهل توضّحون هذا الأمر؟

الجواب: ينبغي التصريحُ أوّلًا بضرورة انفتاح الإنسان على ما يُوجَّه إليه مِنْ انتقادات وأنْ يتقبّلَها ويبتعِدَ تمامًا عن التفاخر والغرور عند الحديث عن الخدمات المنجزة؛ إذ إنَّ الإنسان مخلوق محتملٌ وقوعُ الخطإ وصدورُ العيب منه بالنظر إلى طبيعته، وقد توجد مجموعةٌ من الأخطاء والمغالطات حتى فيما يظنّه الإنسانُ نفسُه أصوبَ وأصحَّ أعمالِه وأفعالِه؛ وعلى الإنسان أن يسائل نفسه ويَتَّهِمُها بعدم الكمال حتى في أكثر أوقاته التزامًا بالأحكام الشرعية، والأمر نفسه بالنسبة للصلاة والصوم والزكاة والحجّ؛ فلكلٍ منها أسسه الكثيرةُ الخاصّة به، ومن الصعب أداؤُها تامّةً غير منقوصة ولا معيبة، وتتّضح صعوبة المسألة أكثرَ لا سيما

إن وُضِعتْ في عين الاعتبار الجوانب الفطرية لدى الإنسان كأن تكون الأعمال المنجزة جزءًا من طبيعته وفطرته وأن يؤديها بإخلاص وصدق، ويبتعد فيها عن الرياء والسمعة.

الإنسان مخلوقٌ مؤهّلٌ للخطإ والوقوع في العثرات

وإن كان هذا القدر من النقص والعيب محتملًا وقوعُه حتى في العبادة والطاعة التي نقوم بها دائمًا؛ فإن حدوث خطإ في الأعمال الخاصّة بخدمات متباينةِ الأبعاد والأعماق مبذولةٍ في سبيل الإنسانية أمرٌ لا مفرّ ولا مهرب منه، والحقيقة أن السُّنة الصحيحة والقرآن الكريم أخبرانا بأمور ومبادئ أساسية تخصّ ما سيُنجَز من خدمات في سبيل الحق، وهي أمورٌ ثابتةٌ لا يؤثّر فيها تغيير الزمان والمكان، إلا أنه توجد -إلى جانب دساتير هذه المبادئ الثابتة- جوانب معينة تأخذ بعين الاعتبار اختلاف المكان والزمان، ومن الصعوبةِ بمكانٍ أن يوفَّقَ الإنسان دائمًا في الاختيار السليم في هذه النقطة، ومع هذا فإنَّه ينبغي للمقترحات المطروحة أن ترتبط بالمبادئ الأساسية من جانب، وأن تُطبَّق على الحياة في صورةٍ تلائم الزمان والمكان والظروف من جانبٍ آخر، ونظرًا لأنه يُحتمَل دائمًا الوقوع في خطإٍ -لا سيّما في عملٍ صعبٍ ومعقّدٍ متشعّب بهذا القدر- فإن تقبُّل هذا منذ البداية يُعتبر اعترافًا بالحقّ.

فإن حدث العكس؛ كان من المتوقّع أنْ يعتبر الإنسان كلّ أفعاله وأعماله صحيحةً وصوابًا، وينزعج من الانتقادات، ويتوقّع التقدير والإجلال دائمًا؛ بل ويمتنّ لامتداحه على أمرٍ لم يفعله أصلًا، وكلّ واحدة من هذه الأمور صفة من صفات المنافق، وفي سورة آل عمران يقول

الحقّ تعالى في وصف المنافقين: ﴿**وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا**﴾ (سورة آلِ عِمْرَانَ: ٣/١٨٨).

ومن ثمَّ فإنه ينبغي للإنسان ألا ينسى أبدًا أنّه مخلوقٌ يُتوقّعُ منه حدوثُ الخطإ والتقصير، ولا بدّ أن يُدرك عيوبه ونقائصه منذ البداية، وألا يشعر بالانزعاج والضيق من لفتِ الآخرينَ انتباهَهُ إليها؛ بل يجب أن يحدثَ العكس؛ فيمتنّ ويُسَرُّ من تذكير الآخرين إيّاه بها وإظهارهم سبل خلاصه ونجاته منها.

وبعد أن تحدّثنا بإيجازٍ عن تقبّل النقد وضرورة عدم الانزعاج منه؛ يمكننا أن نُعدّد ما يأتي من معايير بشأن الحديث عن الخدمات في نهجٍ موضوعيٍّ وعقلانيٍّ.

السعي إلى الخدمة التزامًا بالمبادئ الأساسية

لا بدّ من تحديث المخاطبين عن الخدمات، وتوضيح أن إنجازها يُراد له أن يكون مرتبطًا بالمبادئ والقيم الإنسانية الكونية التي حدّدها الدين؛ إذ يستحيل أن تبقى وتثبُت قضايا وأمور تسير وفقًا لأفكار عابرة منافية لنصوص القرآن والسنة. أجل، إن من لا يرتبطون بالقواعد الكُلّية دائمًا ما يترنّحون ويسيرون في طرقٍ متعرّجة معوجّة، وكما أن أفعالهم الحالية تختلف عن أفعال سابقيهم فإن ما قد يضطلعون به من تصرّفاتٍ وأفعال لاحقًا سيتناقض حتمًا مع ما كان في تلك الأيام، ومن هنا فإنه يلزم لأفكار الإنسان وأحاسيسه وجميع خلايا مخّه العصبية أن ترتبط بمبادئ الدين الأساسية والقيم الأخلاقية الكونية العالمية حتى تستقيم تصرّفاته وسلوكيّاته.

والواقع أن مبادئنا الأساسية -نحن منتسبي دين الإسلام العالمي- مبادئ من شأنها أن تستوعب وتحتضن الجميع، ومن المهمّ أن نحدّد الخطّ والنهج الصحيح الواجب علينا الحفاظ في إطاره على هويّتنا وشخصيّتنا الأصلية، وبعد التمكّن من فعل هذا ينبغي لنا أن نبيّن ونثبّت لمخاطبينا أننا منفتحون على النقد والمساءلة بأن نقول: "كما أننا نؤمن بأن العطاء واجبٌ ووظيفةٌ فإننا نرى أنْنُصْحَكُم لنا وأخذَنا بنصائحكم أمرٌ مهمٌّ جدًّا يصب في صالح التكامل، فإن كان هناك عيب أو نقص ترونه فينا فنرجوكم أن تصارحونا به؛ فنجلس نناقشه ونعالجه".

فإن كنتم تقومون بالانفتاح على الآخرين التزامًا منكم بالمبادئ الأساسيّة فلن تفقدوا ارتباطكم بالمركز بإذن الله تعالى وإن تغيّر الزمان والمكان والأشخاص، وعلى حدّ قول مولانا جلال الدين الرومي: "فإنه وإن كانت إحدى قدميكم بين ظهراني كثيرٍ من الأمم والأخرى في المركز؛ فإنكم تحافظون على استقامتكم إن كنتم تختبرون كلَّ انفتاحاتكم وفقًا لقدمكم الثابتة".

استحالة نسبة أي فرد أو مجموعة ما يُنجَز من خدمات لنفسه

الأمر الثاني الواجب التركيز عليه: هو عدم نسيان حقوق الآخرين في الخدمات المنجزة وعدم النظر إليها وكأنها قضيّة خاصّة بقطاع بعينه فحسب؛ فقد تكوّنت منذ القدم وحتى اليوم مجموعات وحركات مختلفة خدمت في مجتمعنا وفي مختلف المجتمعات الإسلامية على حدّ سواء، وقد قامت بجهودٍ مهمّةٍ جدًّا من شأنها أن تنير لكم الطريق وتشجعكم، وتهيّئ لكم أرضيّةً مناسبةً تتحركّون فيها بسهولةٍ ويُسرٍ، لقد أوصلوا القضية إلى نقطة معينة وكأنهم يقولون لكم: "واصلوا أنتم كذلك هذا الأمر"

ويمكنكم أن تفكروا هكذا: جاء هذا الأمر في موسم الإثمار حين دخلتم المعترك بإمكانياتكم الخاصّة، وفي حين هيّأ البعض الأرضية؛ بذر البعض البذور، واضطلع البعض الآخر بخدماتٍ ضروريّةٍ لينمو النبات ويصبح شجرة، وسوف تزهر لكم هذه البذور لاحقًا بتقدير الله، وقد تحقّقت لكم إمكانية الخدمة في موسم الإثمار، إذًا فإن اعتبار الأمر مترتّبًا على سعيكم وجُهدكم أنتم فحسب، وهضمَ حقّ الآخرين فيه نكرانُ جميلٍ واضحٌ وصريحٌ.

أجل، إن مشاعر الفداء والإيثار كامنةٌ في جوهر رجل الأناضول وروحه، وما زال الكثيرون حتى الآن يستغلون هذا الجوهر النفيس، حتى جاء وقت وظهر مِن بين شرائح المجتمع المختلفة مَنْ يُعبّر عن هذه الجواهر النفيسة وينفتح على كلّ أرجاء العالم، فكان التجار والحرفيون والمرشدون والمعلّمون الذين يعتقدون بعموم نفع الخدمات التي يقدمونها إذا ما نجحوا في مكانٍ ما نادوا على نظرائهم وشجعوهم على الاستثمار والنجاح في هذا المكان، وبذلك تضاعفت الخدمات وتنامت، وكلّ هذا بأكمله تحقّق بفضلٍ من الله وعنايته، ولكن إن ربطنا الأمر بالأسباب وقيّمناه وفقًا لها اكتشفنا أن هذه الخدمات المبذولة ما كان لها أن تتمّ أبدًا بحساب الاحتمالات ولو بنسبةٍ واحدٍ في المليون.

وكما لا يصح أن ننسب الإنجازات التي تحققت في سبيل خدمة الإنسانية إلى سعي وجهد جماعةٍ بعينها، كذلك ليس من المقبول أن ننسبها إلى أشخاصٍ بعينهم، فإن ريادة بعض الأصدقاء لهذه الخدمات هو تجلٍّ من تجلّيات القدر؛ من أجل ذلك ينبغي تجنُّب ذكر أسماء الأشخاص عند الحديث عمّا أُنجز من أعمال، وبدلًا من هذا علينا

أن نعزو كلَّ هذه الخدمات إلى حركة الخدمة نفسها، ومدى حبِّنا للإنسانية، علاوةً على ما تكنّه الأمة من مشاعر وانفعالات صادقة، وما تتّسم به من إرادةٍ سليمةٍ وعزمٍ لا ينفد، وعلينا كذلك أن نبيّن أن هذه الخدمات كلّها ما هي إلا محصّلة سعي الأمة بأسرها، وبناءً على هذا السعي تكرّم الحقّ تبارك وتعالى بأن أنعم على أفراد الأمة ببيان وتبليغ قيمنا الثقافية إلى العالم أجمع، ولا جرم أننا عند نقلِ جمالياتنا إلى شتّى أرجاء العالم نستلهم منهم أيضًا بعضَ الجماليات ونضفي مزيدًا من الثراء على ثرائنا.

إننا نعتقد أن هذه الخدمات المبذولة بمثابة محاولةٍ للردِّ الجميل على ألطاف الله تعالى التي تتنزّل علينا زخًّا زخًّا، فلو أننا أحسنّا توضيح هذه المسألة للمخاطبين فلن نتورّط في الظلم الذي يرتكبه أهل الغفلة عندما ينسبون هذه النجاحات -التي تمّ إحرازها بسعي وجهد الأمّة كاملةً- إلى عددٍ من الشخصيات الرائدة، حتى إن الغنيمة في الحرب تُوزَّع بالتساوي بين الأفراد الذين يشاركون فيها ولا يختصُّ بها القادة فقط، وإلا فنحن نوقع هذه الشخصيّات في الهلاك وننسب إليهم ما ليس من اختصاصهم بل من اختصاص الربوبية؛ لأنهم سيبدؤون حينذاك في نسبة هذه الخدمات إلى أنفسهم، ويتشوّفون إلى التصفيق والتهليل والتقدير من الناس؛ وبذلك يقضون في هذه الدنيا على ثمارهم الأخروية.

فِرّ من إثارة مشاعر الغبطة فرارَك من العقرب والحيّة

أما الجانب الأخطر في الأمر فهو: أن إبراز أسماء شخصيّات بعينها يثير مشاعر الغيرة لدى الآخرين، حيث تكمن في طبيعة كلّ إنسان مشاعر الغيرة والحسد، ولا سيّما إن قدّمتم بضعة أشخاص على الأكاديميين وعلماء اللاهوت ورجالات العلم البارزين فإنكم بذلك تكونون قد

ضغطتم دون وعيٍ منكم على مشاعر الغيرة والحسد التي تكمن في داخلهم، وبذلك تجعلون من أصدقائكم أعداءً لكم بأيديكم، بل إن بعضًا من أهل الإيمان قد تُداخله مشاعرُ الحسد أيضًا إن لم يستطع أن يحقّق مثل هذا القدر من النجاحات رغم ما بذله من سعيٍ وجهد، ومن ثمّ تكونون أنتم -وإن كان دون سابق قصدٍ منكم- السببَ في الجرم، فضلًا عن ذلك يصبحُ من الصعب كثيرًا أن تُحدّثوا ذلك الإنسان بشيء بعدما كنتم السبب في إثارة مشاعر الحسد والغيرة لديه، من أجل ذلك علينا أن نضع في اعتبارنا الخدمة لا الأشخاص؛ حتى نتمكّن من الحيلولة دون إثارة مثل هذه المشاعر السلبية، وهذا يعني أن علينا أن نحدّث الناس عن الخدمات المبذولة وخلفياتها حتى نهدّئ من روعهم، ومن جانب آخر: علينا أن نتّخذ أسلوبًا خطابيًّا لا يثير مشاعر الغبطة عند أيّ أحدٍ؛ حتى لا نخلق لنا حسّادًا ومنافسين جددًا.

الخدمات المبذولة والشعور بالمسؤولية

قد يعتقد البعض أن هذه الخدمة كأنها عبارةٌ عن مؤسّسةٍ اجتمع فيها وأسّسها جماعةٌ من أهل الدنيا بغيةَ الوصول إلى أهدافٍ معيّنة، بل قد يتوهّمون أن هذه الحركة ترمي إلى أغراض سياسية، بيد أن خدماتنا تنبع من المبادئ الرئيسة لتراثنا الثقافي، وبها نؤدّي الوظيفة التي حمّلنا الله إياها، بتعبيرٍ آخر: إن هذه الخدمات هي محاولةٌ للقيام بمسؤوليّتنا نحو الإنسانية، بل إننا إذا ما عمّقنا النظر في المسألة أكثر؛ فسنجد هذه الخدمات ليست بالعمل الذي يُضفي على الإنسان قيمةً إضافيةً، بل إنها أداءٌ لوظيفة العبودية الأساسية ووسيلة الحمد والشكر لله رب العالمين على ما أنعم علينا مسبقًا من نِعم، ولمّا قام الناسُ بهذه الخدمات في إطار المسؤوليات التي حملهم الدين إياها، واتّبعوا في الوقت ذاته منهجًا يقوم

على العقل والمنطق؛ تضاعفتْ هذه الخدمات وستظلّ تتضاعف وتتنامى إن شاء الله تعالى.

يمكن أن نعزو الخدمة إلى فكرة التنافس في تبليغ الحقّ والحقيقة؛ لأنها تدخل في باب التسابق في الخيرات الذي نصّت عليه الآية الكريمة: ﴿فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾ (سورة البَقَرَة: ٢/١٤٨)، ولذا فإن مَن يرى ويسمع عن السابقين الأولين في الخدمة يحاول أن يقوم بالخدمات التي كُلِّفَ بها حتى لا يتخلّف عن أولئك.

صدق النية وعقلانية الأعمال

قد ينزعج البعض من هذه الخدمات ويساورهم القلق حيالها، وعلى ذلك فعلينا أن نعمل على إيضاح كل ما يفضي إلى الشبهة عند الناس، وأن نكشف عن صدق نوايانا وعقلانية أعمالنا؛ لأنّ الخدمات المبذولة ما هي إلا تعبير عن إقبال الله ﷻ على هذه الأمة بسبب ما بذلته من سعي وهمّة، حيث أفاض الله تعالى على أرباب الخدمة بالمزيد من فضله وإحسانه لأنهم بذلوا الكثيرَ من التضحيات في سبيل الوفاق والاتّفاق بين أبناء الأمة، وإلّا فكثير من المشروعات لا يمكن لها أن تتم إلا من خلال أناسٍ يرتبطون فيما بينهم.

والبعض قد يتوهّم لعدم استيعابه ما بُذل من خدماتٍ بأن الحركة ذاتُ أجندة سريّة، من أجل ذلك ينبغي لنا أن نبيّن لهؤلاء ما يلي: إننا نعتبر التشوّف لأمر سوى رضا الله تعالى حرامًا بالنسبة لنا، وإننا نفضل احتضان البشرية كلّها بالقيم الإنسانية على كل جماليّات الدنيا؛ فإذا ما قال الله تعالى لنا في الآخرة: "لقد مددتم يد العون لهؤلاء، وساعدتموهم في معرفة الحقيقة، وأنا اليوم أجازيكم على ما قدمتموه في الدنيا"؛

فهـذا القـول بالنسـبة لنـا لا تعدلـه الدنيا وما فيهـا، علاوة علـى ذلك فإن التعلّق بأغراض أخرى يشبه سلوك ذلك التاجر الذي كان يعمل في تجارة الذهب في سوق الصاغة، ثم يمّمَ وجهه إلى سوق النحاسين بغية التجارة في النحاس.

وهكذا لا بدّ أن تفيض مشـاعرنا بهذه الأفكار، وألا نمتعض ونسـتاء من التصرّفات أو الكلمات النابية، وأن نعمل على إزالة الأوهام والشكوك التي تساور البعضَ نحونا بالصبر والسكون.

التفكّر: وسيلة نورانية موصلة إلى الحقيقة

سؤال: التفكّر من أهم المبادئ التي يرتكز عليها مسلكنا، فما الأسس التي ترتبط بها عملية التفكّر حتى تجري على المستوى المطلوب؟

الجواب: التفكّر هو: أن يُرغم الإنسان نفسه على التدبّر في عالمه الداخليّ، ويدقق النظر في الأشياء والأحداث، والتأمل في كل هذا مرّةً بعد أخرى؛ وبذلك يوسِّع الإنسان من دائرة فكره، ولفظة "تفكّر" تأتي على وزن "تفعّل"، الذي يحمل خاصّية التكلّف؛ بمعنى أن الإنسان يبذل وسعه ويُرغم نفسه على القيام بأمرٍ ما، ويوفّي إرادته حقَّها، ولذا يمكن القول ببساطة: إن التفكر وفقًا للصيغة الذي اشتُق منها ليس عمليةً فكريّةً بسيطةً، بل هو عملية فكرية تكتسب طابع النظام والتعمّق والديمومة.

القرآن يوجّه الأنظار إلى العقل الفاعل النشط

إن التفكّر أساسٌ مهمّ في مسلكنا، وهو من المبادئ الرئيسة في الإسلام أيضًا؛ لأن القرآن الكريم خلال تناوله -في الكثير من آياته- السمواتِ والأمطارَ والنباتات والسحاب والرياح والنجوم والجوّ وعملية

الخلـق وقضية الرزق وغير ذلـك من الآيات المكتنزة في الآفاق والأنفس (العوالـم الخارجيـة والداخليـة) ربطَ المسـألةَ بالتفكّر، فمثـلًا يقول الحقّ تبارك وتعالى في سورة البقرة: ﴿**إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللهُ مِنَ السَّـمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ**﴾ (سورة البَقَرَة: ٢/١٦٤).

وفي القرآن الكريم كثيرٌ من الآيات التي تشـبه الآية السـابقة، بعضُها يربط المسـألة بالعقل، وبعضهـا بالفكر، والبعض الآخـر بالعلم، غير أنها جميعًا -وإن وجد فارقٌ بسـيط بينها- تشـير من حيث الأسـاس إلى نقطةٍ واحـدةٍ؛ وهـي أن يُفكّر الإنسـان في الآيات الكامنة فـي الآفاق والأنفس، وأن يستغرق في التفكير باستخدام عقله.

وإن انتهـاء الكثيـر من الآيات الكريمـة بقول الله تعالى "لَآيَـاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ" ليشير إلى أن القرآن الكريم إنما عبّر عن التفكُّر بصيغة المضارع؛ ليوجه أنظارنا إلى العقل الفاعل النشط.

أجل، إن القرآن الكريم لم يتحدّث ولو مرّةً واحدةً عن العقل السـلبيّ الخامل، كذلك لم يتناول أيّ عمليّةٍ عقليّة تتعلّق بالزمن الماضي فقط، بل إنه بحديثه عن التفكّر الذي يكتسب طابع الديمومة في الزمن المضارع يرشدنا إلـى التفكّـر في الحاضر والمسـتقبل علاوة على الماضـي، ومن ثمّ يجب على الإنسـان بعد أن يعقد صلةً منطقيّة وعقلية بالماضي أن يُخضـع زمانه ومسـتقبله لمصفاة فِكرِه، وألا يخطو أي خطوةٍ إلا في إطارٍ من المعقوليّة، عـلاوةً علـى ذلك فمن الأهمية بمكان أن تشـير هذه الآيـات الكريمة إلى العقل الفاعل النشط؛ على اعتبار أنها بذلك تؤكّد على ديمومة التفكّر.

وأوَدّ هنا أن ألفت انتباهكم إلى شيءٍ بشكل استطرادي دون الدخول في التفاصيل وهو: أن لفظ "يعقلون" الوارد في ختام الآية السالفة الذكر يتضمن معاني كثيرة مهمّة، مثل: استغلال العقل في قراءة الأشياء والأحداث، والوصول عن طريق التفكر إلى نتائج يفرزها العقل، واستحلاب جماليّات الكون باستغلال العقل.

بالتفكّر يكتشف الإنسان نفسه

إن الله ﷻ يلفت الأنظار في العديد من المواضع بالقرآن الكريم إلى التفكّر واستخدام العقل، مما يحتّم على المؤمنين أن يتعمّقوا في التفكّر في آيات الله الكامنة في الآفاق والأنفس.

ولو أنكم جعلتم الإنسان موضوعًا للتفكّر في الأنفس وتناولتموه من الناحية الفسيولوجية والتشريحية فسيتبيّن لكم وفقًا للتحليل الذي أجراه "ألكسي كاريل *(Alexis Carrel)*" في كتابه "الإنسان ذلك المجهول" أن الإنسان مخلوقٌ كريمٌ يستحقّ كلّ احترامٍ وتبجيلٍ.

أجل، إن الإنسان ببنيته الداخلية والخارجية مخلوق رائعٌ، ولو افترضنا -مُحالًا- جواز السجود لغير الله لكان ذلك الغير هو الإنسان، ولكن الله تعالى لم يُجزْ قطّ السجودَ لأحدٍ غيره، أما سجود الملائكة لآدم عليه السلام فهو أمرٌ تقتضيه طبيعة الابتلاء والامتحان حتى يدركوا مدى الدقّة والحساسية في امتثال الأمر الإلهيّ.

ومع ذلك فإن السجود لسيدنا آدم يبين لنا أن هذه الأفضلية والرفعة لم تتسنّ لمخلوق آخر غير آدم عليه السلام؛ لأن آدم عليه السلام هو بمثابة نقطة التقاءٍ بين المادة والمعنى والعوالم الماورائية والروحانية؛ بمعنى آخر: إن آدم عليه السلام هو مرآةٌ جامعةٌ لكل الأسماء الحسنى، فلو أننا دقّقنا النظر

في هذا المخلوق البديع بأبعاده الماديّة والمعنويّة فليس بمقدورنا سوى الاستغراق في التفكير العميق فيه.

أجل، إن شئتم فتناولوه من الناحية المادية، يعني اليد والرجل والعين والأذن والأنف واللسان والشفتين، أو من حيث ماهيّته الحقيقية، فسيتبدّى لكم -إن أحسنتم قراءته- أنه كتابٌ رائع يسوق الإنسان الى التعمّق في التفكير.

وعند النظر إلى الإنسان وما يحويه من نفس وقلب ومشاعر ووعي بما لديه من شعور، وتوجيه لإرادته؛ فسيبدو أن ذلك الإنسان صاحبُ آليّة رائعةٍ لا يشوبها أيّ خللٍ، وهو الذي يفهمها حقّ الفهم على اعتبار أنه يقف على أقرب نقطةٍ منها؛ فهو من يُديرها ويشغلها ويتربّع على أعلى وأسمى مكان فيها، فلو أن الإنسان غاص في أعماق نفسه، وأمعن النظر في جوانبه المادية والمعنوية فسينفتح على الآفاق أيضًا كهؤلاء الذين أحرزوا نجاحاتٍ كبيرةً على الأرض ثم انفتحوا على الفضاء؛ وبتعبيرٍ آخر: إن دقّق الإنسان النظرَ في الدلائل الكامنة في الأنفس وأدرك أن الله تعالى لم يخلق شيئًا عبثًا ثمّ جال بنظره في العوالم الخارجيّة؛ فسيعود لا محالة بصنوفٍ مختلفةٍ من الرحيق كالنحلة عندما تحطّ على الزهور.

ينبغي أن تكون مجالسنا مجالسَ تأمّلٍ وتفكّرٍ

أجل، إن ما يجب على الإنسان هو أن يستفيد بشكلٍ جيّدٍ من كِلا جناحي التفكّر والتدبّر: التفكر في الآفاق، والتدبر في الأنفس؛ فيجعل مجالسه كلها ساحاتٍ للوقوف على آيات الله تعالى التشريعية والتكوينيّة، والسياحةِ في تلال القلب الزمرّديّة بشكل أعمق، فإن لم يحدث هذا

استحال على المجالس أن تتخلّص من التحرّر والطيش، وحيث يسود التحرّر والطيش يظلّ الناس أسرى لنقد هذا وذاك، والانشغال بعيوب غيرهم واغتياب فلان وعلان كالعجائز، والانشغال بمثل هذه الشائعات يدنّس الزمان والمكان وكذلك الجوّ العام؛ إذ يستحيل في مثل هذا المناخ الدنس أن يتبرعم ويورِق التفكّر والتأمّل، والواقع أن الإنسان الذي يُسلمُ نفسه ويتركها في مهبّ تيارات النفس وهواها إنسانٌ قيّدَ قدرة آليّة التفكّر التي تمكّنه من قراءة الوجود قراءة صحيحةً وتفسيره تفسيرًا سليمًا، بل إنه أصابها بالشلل.

وبهذه المناسبة أريد أن أنقل حكاية حكاها السيد "مدد أفندي"، وقد كان رائدًا ملازمًا للسلطان "عبد الحميد الثاني" أسكنه الله فسيح جناته، التقينا سويًّا في زمنٍ ما، وكنت حينها في الثانية أو الثالثة عشرة من عمري تقريبًا، بينما كان هو في الخامسة والسبعين، فكان نورانيّ الوجه ملتحيًا مهتمًّا جدًّا بالعبادة والطاعة، علاوةً على أنه كان نموذجًا مثاليًّا للرجل العثمانيّ النبيل، فلما خُلع السلطان عبد الحميد عام (١٩٠٨م) ألقاه الاتحاديون بمستشفى المجانين مثلما فعلوا بغيره، ولما جاور المجانين زمنًا طويلًا صار هو أيضًا مجنونًا بعض الشيء؛ فمن يضطرّ إلى العيش مع المجانين في مكانٍ واحدٍ يصبح مشكلةً بالنسبة إليهم ويسمّونه مجنونًا إن لم يشاركهم المناخ نفسه ويتكيّف معهم، وهكذا كان السيد مدد -الذي بقي فترة بين المجانين- ينقل أحوالهم وسلوكياتهم بين الحين والآخر؛ فكان أحدهم ينظر في المرآة فيتحدّث عن اكتساح السيول "أرضروم"، وآخر يحكي أن ثمّة كنزًا مدفونًا في فتحة المدفأة، وثالث يسُبُّ الكتابات الصادرة في الصحف...

وانطلاقًا من حكايةٍ نقلها السيد "مدد" حول المجانين أريد أن أصل إلى أننا إنْ ظللنا نتحدث عن مواضيع لا فائدة ولا طائل من ورائها لا دنيويًّا ولا أخرويًّا، ولم نحوّل مجالسنا إلى مجالس نورانيّة انقضى زماننا ووقتنا في الثرثرة والهراء؛ فنصبح تمامًا مثل أولئك الموجودين في مستشفى المجانين؛ يتحدّث أحدهم دون داعٍ، ويثرثر آخر في موضوع فارغٍ، وثالث ينهض فيتخاصم مع غيره، ونتيجةً لهذا تصبح مجالسنا أرضًا جدباء لا بركة فيها ولا نفع، ونُبحر في بحر المعاصي، فنضيّع وقتنا في سفاسف الأمور، فإن كان تحويل مجالسنا إلى مجالس ذكر وفكر أمرًا مطروحًا متاحًا فلماذا نحوّله بأيدينا نحن إلى مقبرةٍ خاليةٍ من الروح، محرومةٍ من المعنى؟! وفي حين يمكننا التجوّل في أودية الطاعة فلماذا نُبحر في بحرٍ من العصيان تصعبُ العودةُ منه؟! لماذا لا نستفيد من الفرص في مجالسنا؛ فنجد مداخل ومنافذ شتّى نبحر منها إلى أعماق القرآن الكريم المتنوعة؟!

إن السبيل إلى جعل مجالسنا مجالسَ مباركةً يتمثّل في تركيز الكلام وسحبه دائمًا إلى أرضية التفكّر والتدبّر التي نتفكّر فيها في الله ورسوله دائمًا، وتحويل المحاورات والمدارسات إلى الحديث عن الحبيب، فإن كان هناك من يريد أن يثرثِر ويتحدّث عبثًا ينبغي ثَنْيُهُ عن مراده بأدبٍ وذوقٍ؛ فيُنصح بأن يُقال له: "يا أخي! إن كنت متحدّثًا عن الله تعالى ورسوله ﷺ فلتتحدّث نستمع إليك، وإلا فأحضِر كتابًا، وهلمّ نقرأه" ولنتدارس موضوعًا تَجِلُ منه القلوب وتذرف منه العيون، يُذَكِّرُنا بإنسانيّتنا من جديد. وربما يُطلب من أحد الحاضرين -على سبيل المثال- أن يقرأ القرآن الكريم، فإن كان هناك مَنْ له صلاحية وقدرة على تفسير الآيات المقروءة رُجِيَ منه تفسيرها، وبهذا نبث الانشراح والبهجة في نفوسنا،

فإن لم يكن هناك من هو مؤهّلٌ للتفسير نسعى إلى فهم الآيات المقروءة عبر التعرّف على معانيها بمساعدة كتب التفاسير؛ لأننا كلّما فهمنا وتأمّلنا وتدبّرنا تخلصنا من الدناءة وضحالة الفكر، وانفتحنا على بحار ومحيطات المعرفة الواسعة.

والحاصل أننا في ظلّ ديناميّة التفكّر والتأمّل نفهم عجزَنا وفقرَنا ومدى حاجتنا إلى الشكر فهمًا أعمق، ونستمرّ بإذن الله تعالى في أداء خدمتنا -بنشاطٍ واشتياق- بحيث نحتضن المخلوقات بمزيدٍ من الشفقة والرحمة.

العلاقة بين أنواع الصبر

سؤال: ذكر الأستاذ بديع الزمان سعيد النورسي ثلاثة أنواع للصبر؛ الصبر على الطاعة، والصبر على المعاصي، والصبر على المصيبة، فهل هناك علاقة تجمع بين هذه الأنواع الثلاثة؟

الجواب: جاء في مؤلفات الأستاذ بديع الزمان سعيد النورسي -وهو من الشخصيات العظيمة التي وجّهت الناس إلى آفاق القلب والروح- أن هناك ثلاثة أنواع للصبر تجمعهنّ علاقة وطيدة، دعونا الآن نحاول الوقوف عليها:

الاستقامة على الطاعة تقي الإنسانَ من الوقوع في المعاصي

إن أداء الإنسان للعبادات بإتقانٍ ومواظبتَه عليها على نحو تام يستلزم بالفعل صبرًا حقيقيًّا؛ لأنه من الصعوبة بمكانٍ أن يقوم الإنسان بعملٍ من البداية إلى النهاية دون أن يُصاب بالفتور، وبفضل هذا الصبر يحظى الإنسان بحبّ مولاه ﷻ، وفي هذا الصدد يقول سيدنا رسول الله ﷺ: "**أَحَبُّ الْأَعْمَالِ إِلَى اللهِ تَعَالَى أَدْوَمُهَا وَإِنْ قَلَّ**"[٩٢].

---

(٩٢) صحيح البخاري، الرقاق، ١٨؛ صحيح مسلم، صلاة المسافرين، ٢١٦-٢١٨.

وعلى ذلك فالمداومة على أداء الفرائض التي أمرنا اللهُ بها فضلًا عن النوافل لها أهميّة كبيرةٌ من حيث إنها تعبّر عن العبودية الكاملة، ولذا فإن الإنسان يحظى بمنزلةٍ متميّزةٍ عند ربّه ﷻ بفضل صبره على الطاعة التي حضّ عليها الأستاذ النورسي بقوله "إنها تَرْقى بالإنسان إلى مقام المحبوبية".

فلو أن الإنسان أدّى العبادات التي افترضها الله عليه من صلاةٍ وصيامٍ وزكاةٍ وعباداتٍ أخرى في كلِّ مرحلة من مراحل حياته بدءًا من لحظة التكليف -مع الأخذ في الاعتبار مرحلة التدريب على أداء الطاعة- حتى وقت الوفاة فهذا يعني أنه قد أدّى العبوديّة الحقّة التي تؤهّله لنيل رضا ربّه ﷻ، وعلى ذلك فإذا حرص الإنسان على أداء العبادات على نفس المستوى صارت صلاته وزكاته... إلخ بمثابة التُّرس الذي يتوقّى به من الوقوع في شِباك المعاصي.

فعلى سبيل المثال نشاهد البعض يُكثِر من تناول المشروبات الخبيثة حتى يذهب وعيه ويتذرّع بأن هذا لا يحدث إلا في المناسبات الخاصّة فقط، فهؤلاء قد أظلموا حياتهم الدنيوية والأخروية، ووقعوا في أسارة أهوائهم ونوازعهم الخبيثة، أما الإنسان الذي لا يقصّر في أداء العبادات البته ويتوجه إلى المسجد ويؤدّي طاعتَه لربّه ﷻ فمن غير الممكن أن نتصوّر مثل هذا الإنسان يقوم بعد خروجه من المسجد بارتكاب مثل هذا الذنب الشنيع الذي حرمه الدين، حتى وإن وقع بين ترغيبٍ وضغطِ مَن حوله؛ لأن الصلاة التي كان يصليها والأوراد والأذكار التي كان يقرؤها كانت بفضل الله وعنايته وقايةً وسدًّا منيعًا بالنسبة له، كفلتْ له المداومة على السير باستقامة في طريقه دون أن تعترضه أيّ مشكلةٍ في مسيرة

حياتـه، بمعنـى آخر: كمـا أن الماء الجاري على الـدوام يحتّ في الحجر ويبليه، فكذلك الثبات على الطاعة يستأصل نزوعَ النفس إلى المعصية.

العبادة تساعد على الاستقامة في الفكر

إنّ تحـرّي الإنسـان الدقةَ في أداء العبـادات يُعينه على اتخاذ الموقف المناسب تجاه البلايا والمصائب؛ لأن العبادات تذكّر الإنسان دائمًا برضا الله ﷻ وقضائـه وقـدره، ومـن ثم يفكّر هذا المؤمن باسـتقامةٍ فيما ينزل به مـن بلايـا ومصائب، ولا يقـع في المعصيـة بفضل الله تعالـى، ولا ينتقد القدر، بل إنه بسـبب صلته القوية به سـبحانه يعبّر عن رضاه بالقدر قائلًا: "كل هـذا نـزل بي مـن قِبل الحـق تعالى الذي أقـف أمامه معقـود اليدين فـي عبوديـةٍ وطاعةٍ كاملـة"، بل إنه حتى فـي الأوقات التـي يتأرجح فيها الآخرون ويوشكون على السقوط نراه يُحلّقُ دائمًا في أفق الرضا قائلًا:

إلهي قد قبلنا كلّ ما أتانا

خلعةً كان أو أكفانًا

إنْ وردةً طريّةً أو شوكةً قويّةً تلقانا

لك الحمد في السراء والضراء عرفانًا وإيمانًا

أجل، إن العبادة والعبودية والتوجّه بالعبودة إلى المعبود بحقٍّ والمقصودِ بالاستحقاق ﷻ وإظهارَ العبودية الكاملة له، يحفظ الإنسانَ كالصُّوبة التي تحفظ النباتات، ويدفعه إلى التفكير بشـكل سـويّ في المصائب والنوازل التي تحلّ به، وعلى ذلك فإن أخذنا في الاعتبار كلّ هذا؛ استطعنا أن نقول في طمأنينةٍ تامّةٍ: إن ثمّة علاقةً وطيدةً بين أنواع الصبر.

مـن جانـب آخر يمكن القول: إن هناك ترتيبًـا بين هذه الأنواع الثلاثة مـن حيث اليسـر والعسـر؛ لأنـه مـن الصعوبة بمـكان أن يؤدي الإنسـان

مـا كُلّـف به من طاعةٍ دون أن ينتابه قصـورٌ أو يمنعه عارض، ولكن إذا ما اسـتطاع الإنسـان تجاوزَ هذه الصعوبات كان من الأيسـر له التغلبُ على أنـواع الصبـر الأخـرى؛ لأن مـن يعبر بحـرًا مليئًا بالقيـح والصديد يكون مـن الأيسـر له بفضلٍ مـن الله وعنايته أن يعبر نهرًا من المـاء، ولذلك فإن أنواع الصبر التي تعرضنا للحديث عنها هنا تيسّر الأخذ بأنواع الصبر التي سنقف عندها فيما بعد.

سـؤال: هل هناك أنـواع أخرى للصبر يمكـن أن نُلحقها بهذه الأنواع الثلاثة؟

الجواب: بوسعنا أن نذكر أنواعًا أخرى إضافةً إلى هذه الأنواع الثلاثة التـي ذكرها بديـع الزمان سـعيد النورسـي ﵀، فمثلًا: الصبـر على تباطؤ الزمن الذي قد يُوصِل الإنسانَ إلى حدّ الجنون في الأمور المرتبطة بوقتٍ معيـن أمـرٌ مهـمٌّ للغاية، كحال الإنسـان عندمـا يتمنّى أن يؤمـن الجميـع، وأن ترفرفَ أجنحةُ الحبّ على الإنسـانية كلّها، ويسود الأمن والسلام في كلّ مكان، ويتآلف الناس مع بعضهم، وتذوب وتتلاشـى جميـع أشـكال التمييز العنصري، ولكن علينا أن نعلم أنه لا بد لتحقق هذه الجماليات من تنشـئة جيلٍ جديدٍ، ومعالجةِ الأمرِ من الأسـاس، ولا جرم أن تحقيق هذا يتطلّـب ربـعَ قرنٍ من الزمان على الأقـل أو ربما نصف قرن، وهذا أمرٌ لا تطيقه الأرواح العجولة، وكما قال الشاعر:

العجول يتعثّر في سيره

والحذِر يصل إلى مرامه

وثمّـة أناسٌ كانوا يطلبون السـلطة فجاءتهم بقوّتها ونفوذها، يعتقدون في كثير من الأحيان أن بإمكانهم تغيير لون المجتمـع وشكله ولهجته مرّةً

واحدة، بيد أنكم إن لم تُعالجوا المسألة من الأساس ولم تحترموا حرّيّة الإرادة لدى الناس، ولم تتجمّلوا بالصبر الجميل من أجل تهيئة بيئةٍ جميلةٍ فبدهيّ أن الأمور ستنقلب عليكم دون وعيٍ منكم ولن تصبّ الأحداث ولا الأزمنة في مصلحتكم، فالبناء الذي أقمتموه بلا أساس -حتى في الأمور التي تعتقدون أن بمقدوركم النجاح فيها- سرعان ما ينهدم فوق رؤوسكم؛ لأن العجلة وعدم معالجة الأمر من الأساس يتنافى مع التطوّر الإنساني والاجتماعي، ولذا فإنّ مَن يتوق ويسعى إلى أن يجعل مجتمعه بل والإنسانية بأسرها تنعم بجوٍّ من الحبّ والسلام فعليه أن يكون على أهْبة الاستعداد للقيام بهذا الأمر، ربما تبذلون قصارى جهدكم ولا تقدرون على مشاهدة الجماليات التي كنتم ترغبون في رؤيتها، ويكتب الله المشاهدة للأجيال القادمة؛ ولذا ينبغي أن يكون مبدؤنا طوال حياتنا هو: "القيام بواجبنا وعدم التدخّل بعد ذلك في شأن الربوبية".

وهناك نوعٌ آخر من الصبر، وهو الصبر على جماليات الدنيا الفانية وإن كانت تدخل في إطار المباح. أجل، إنّ الوقوف في ثباتٍ وعزيمةٍ وصبرٍ أمام الأشعّة البرّاقة التي ترسلها الدنيا إلى عيوننا يُعَدُّ نوعًا شاقًّا من أنواع الصبر، يحدّثنا بديع الزمان سعيد النورسي عن رجل بنى مسجدًا وأسماه "كأنني أكلتُ"، فهذا الرجل صبر وتحمّل وتجنّب كلّ ما تشتهيه نفسه من طعامٍ وشرابٍ، وادخّر النقود التي كان من المفترض أن ينفقها على هذا المأكل والمشرب قائلًا: كأنني أكلتُ، وفي النهاية بنى بما ادّخره من مالٍ مسجدًا جميلًا أطلق عليه اسم "كأنني أكلت".

وهناك صبرٌ آخر فوق ذلك وهو صبر المقرّبين؛ وهو التحرّق شوقًا لرؤية جمال الله تعالى ولقاء روح سيد الأنام ﷺ وتحمّل البقاء في الدنيا

إلـى أن يتـمّ الرحيل إلى آفاق الروح، ومن بين الممثّلين العظام لهذا النوع من الصبر مولانا جلال الدين الرومي الذي كان يقول:

أريد صدرًا يتقطّع ألمًا من الهمّ

حتى أبثّه همّ هذا الفراق المُلِمّ

بمعنـى أن يكون الإنسـان مهمومًا حتى يفهـم معنى الهمّ، فلا يمكنك أن تبثّ همَّك لمَن لا يدرك معنى الهمّ.

كان مولانـا جـلال الديـن الرومـي يصف نفسـه -وهو يتحرّق شـوقًا ولوعـةً- بأنـه ابـن جنّةٍ مفقودةٍ، أنه مسـكينٌ جاء من قِبَـلِ الله وأُلقي به في الدنيـا، ودائمًـا ما كان يترنّم بالليلة التي يتوفّاه الله فيها وكأنها ليلة عرسـه، ورغم أن فؤاده يحترق ويتلوّى ألمًا قائلًا: "متى الوصال"؛ إلا أنه لم يفصِح عن مشـاعره قائـلًا: اللهم خذ روحي الآن حتـى أتمكّن من الوصال بك، فقد كان يعطي إرادته حقّها ويصبر على شوقه للوصال.

لأن مَن أرسـلَنا إلى الدنيا هو الله، والأمر يتقدّم على الأدب بل ويعلو العشق أيضًا، فحتى وإن أوصل العشقُ الإنسانَ إلى حدِّ الجنون فإنّ طلب الإنسـان القدوم دون أن يُدعى إليه يُعدّ سـوءَ أدبٍ مـع الله ﷻ، فمن جنّدنا هنـا هو الله، ومَن سـيملأ لنا شـهادة التسـريح من هذه الجنديّـة هو أيضًا، فعلينـا إذًا أن نصبـرَ ونتحمّل حتى يُجَهِّزَ لنا التذكَرَةَ، وهذا أيضًا صبرٌ على العشـق والاشـتياق غير أن مثل هذا الصبر يجاوز حدّنا وقدراتنا؛ لأنه من شـأن الصالحيـن الذيـن آمنوا بحـقٍّ، وتعمّقوا فـي المعرفـة، فوصلوا إلى المحبة، ومنها حلّقوا صوب العشق والاشتياق.

النـوابغ وانـكشاف القابليّـات

سـؤال: يرد مصطلح النوابغ في مؤلّفاتكم ودروسـكم، فما المقصود بهـذا المصطلـح؟ ومـا الأمور التي لا بـدّ من مراعاتها من أجل انكشـاف قابليّات مثل هؤلاء الناس؟

الجـواب: يُقصـد بالنوابغ هذه العقول التي تسـعى إلى فهم الأشـياء والأحداث والكون والإنسان والمجتمع والعصر الذي يعيشون فيه، وتبذل وسـعَها لنقـل هذه المعلومـات النظرية التي فهمتها إلـى الواقـع المعاش؛ وفـي هذا السـبيل تفكِّرُ وتدقق وتبحث باسـتمرار، ولما كان يدفـع هؤلاء عشـقُ الحقيقة وحبُّ العلم والولـعُ بالبحث اسـتطاعوا أن يحلوا -بفضل من الله وعنايته- المشـاكلَ التي انكبّـوا على حلّها، وأن يُحرزوا الكثير من النجاحات، وأن يكونوا وسيلةً لإنارة المجتمـع الذي يعيشون فيه.

القابليات وسيلة امتحان

غيـر أنّ مَـن أحـرزوا مثل هـذا المسـتوى يتعرّضون لمخاطـر جدّية، فمثـلًا يُداخلهـم وَهمٌ بأنهم متميّزون عن غيرهم، فيعتقدون -اعتمادًا على قدراتهم ومهاراتهم- أنّ باسـتطاعتهم حلَّ جميـع المشـاكل التي يقابلونها والتغلّب عليها بذكائهم وقابلياتهم، وبسـبب هذه الحالة يستبدون برأيهم،

أو يتعاملون بخشونة وغلظة واستغناءٍ مع الأفكار والمقترحات الأخرى لأنهم يرغبون في التأكيد على عِظم أفضليتهم؛ بمعنى آخر: فإن انفتاح هؤلاء أكثر من غيرهم على آفاق عالية في بعض المسائل قد يجعلهم ينظرون إلى غيرهم باستعلاء ويستخفون بآراء غيرهم، بل إنهم ربما يُنمّون في أنفسهم صفة التمرّد، ويلجؤون إلى الاعتراض على الفور، حتى وإن طُرحت عليهم أفكارٌ عقلانية ناشئة عن تفكّرٍ عميق، وينسون أن الحقّ يعلو ولا يُعلى عليه.

والحق أن مثل هذه الانحرافات ناجمةٌ عن قصورٍ في التربية، فالمعلّمون قديمًا كانوا مربّين حقيقيّن في الوقت ذاته؛ بمعنى أنهم كانوا قدوةً حسنة لمَن حولهم في جلوسهم ونهوضهم ووقوفهم واعتقاداتهم وأفكارهم ورؤاهم العامة؛ كانوا يربونهم بلسان حالهم، ولكن من الصعب جدًّا أن نقول: إن التعليم في النظام التعليمي اليوم يسير مع التربية كفرسَي رهان، وهذا الحال لا يمكن أن يجبر القصور في التربية حتى وإن كان التعليم في مستوى متقدِّم عنها، فالتربية تعني الارتقاء بالإنسان العادي إلى الإنسانية الحقّة، فعلى المربين المثاليّين أن يكونوا على مستوى يستطيعون من خلاله إقامة صرح إنسانيٍّ وكأنهم نحّاتون مهرة، فإن لم يَتَتَلْمَذ النوابغ على أيدي مربّين جيّدين ولم يخضعوا لتأثيرهم فمن الصعب جدًّا أن ينسلخوا عن فكرة "أنا أعلم الناس"، أو استيعاب فكرة الاستفادة من الآخرين.

المقهورون تحت الأنانية

وقد حدّثْتكم من قبل في مناسباتٍ شتى عن موقفٍ لبطلٍ من الأبطال الذين يشكلون الرعيل الأول؛ ممّن قاموا -طوال حياتهم- بخدمة الأستاذ

النورسي ﵀، كيف أنّه في مجلسٍ ما خالفَ أحدهم رأي هذا البطل الكريم، فقال له والابتسامة تعلو شفتيه "حقًّا يا أخي، ربّما يكون الحقّ معك"؛ وذلك لأنه أدرك أن مخاطبه ليس في حالةٍ روحيّةٍ تسمح له بالاعتراف بالحقيقة وفهمِ ما يُقال، ولكن لما شاهد المعترض بعد مدّةٍ فساد رأيه في عديدٍ من المواطن جاء إلى هذا الرجل العظيم وقال له هذه المرة: "سيدي، لقد أخطأتُ الرأي، فلقد كان الحقّ معك في ذلك اليوم"، وإذ بهذا السيد الكبير يقول له دون أن يغيّر من طوره: "لا ضيرَ يا أخي لا ضير".

ولقد قابلت أنا أيضًا مثل هذه الحادثة كثيرًا، غير أنني في كلّ مرّةٍ كنت أتجاوزها، لأن مثل هؤلاء الناس يظنون أن عقولهم قد بلغت كلّ مسألة، فيعترضون على كل شيء، ففي هذه الحالة عليكم أن تتركوا المسألة للوقت، حتى لا تتفاقم المشكلة، وينفضّ الناس من حولكم، والتاريخ حافلٌ بكثيرٍ من هذه الأمثلة المريرة، على سبيل المثال "هتلر"، كان يتمتّع بشيءٍ من المهارات، ممّا دفعه إلى الإعراض عن الدخول في قالب معين أو إلقاء السمع لأيّ نصيحة؛ لأن مرض الاستعلاء قد استولى عليه، وفي النهاية عرّض أمةً عظيمةً للهزيمة خلال كبرى مجازفاته، وما زال شعبه يلعنه حتى يومنا هذا.

تنشئة النوابغ يتطلّب اهتمامًا خاصًّا

إن السبيل الوحيد لحماية الناس من مثل هذه الصفة التمردية الخاطئة هو ضمان امتثالهم للمجتمع عبر تربيتهم وتأهيلهم؛ إذ ينبغي بيانُ أهمية الوفاق والاتفاق لهم باستخدام أساليب ومناهج متنوعة عبر إيجادِ وسيلة ملائمة لذلك، ومن الضروري القول: إن مزيدَ عناية الحق تعالى ورعايته

مرتبطٌ بهذا الأمر، ولا بدّ من التأكيد على أنّه من الفضيلةِ أن يتخلّى الإنسان عن فكره الشخصي -مهما كان دقيقًا وصائبًا- حفاظًا منه على التناغم والانسجام العام.

ومع ذلك فإن تركَ مثل أولئك الناس يعيشون مع أخطائهم الخاصّة بهم في مسائلهم الشخصية التي لا تتعلّق بحقوق العامة؛ قد يكون -في بعض الأحيان- سبيلًا مفيدًا من أجل تربيتهم؛ فليتمادوا بقدر ما يستطيعون، وليتخبّطوا ثم ليرجعوا إلى أنفسهم فيقولوا: "لقد كنتم على صوابٍ!" وذلك لأن إدراك الأشخاص أخطاءهم بإرادتهم الشخصية والحرّة أمرٌ مهمٌّ جدًّا في تربية الإنسان وتنشئته.

والإنسان حين يرى إنسانًا قديرًا كفؤًا يُفني عمره في سبيل أنانيته لاهِثًا وراء الأهواء والنزوات يعجز ألا يتحسّر عليه ويقول بشأنه: "ليته!" ليت الأشخاص العوالي الهمم، المدركة عقولهم مختلف المسائل، القادرين على حلّ المشكلات، الشجعان المقدامين -ليتهم- يستخدمون قواهم وقدراتهم وملكاتهم ومواهبهم هذه من أجل إعلاء شأن الدين الإسلامي المبين، وفي سبيل بيان ثقافتنا الأمميّة بدلًا من السعي إلى إثبات النفس والاعتراض على هذا وذاك؛ ذلك لأن النوابغ التي تستخدم ما وهبها الله تعالى من قدرات ومواهب بشكلٍ متلائمٍ مع الهيئة التي تتواجد فيها في سبيل الوصول إلى غايةٍ ساميةٍ؛ بوسعها أن تتسبّب في إنجاز عديدٍ من الأعمال والأنشطة النافعة.

ومن ثم فإنّ مسؤوليّةً كبيرة تقع على عاتق الأشخاص والأفراد الذين يدفعونهم ويتولّون أمرهم. أجل، ينبغي لمن هم في موقع الإدارة

أن يبذلوا جهدًا حقيقيًّا وكبيرًا بغيةَ اكتساب هذه النوعية من الناس، وضمان عملهم على نحوٍ يتلاءم مع المجتمع الذي يعيشون فيه، والاستفادة من مواهبهم بهذه الطريقة؛ فإن كان هؤلاء الأفراد الأفذاذ سيضطلعون بعمل عشرة أشخاص وجبَ على المسؤولين القائمين على أمرهم أن يخصّصوا لهم من الوقت والجهد ما يخصّصونه لعشرة أشخاص -إن لزم الأمر-؛ فقد بذل سيدنا رسول الله ﷺ جهدًا حقيقيًّا وعظيمًا -كما هو معلوم- كي يَدخُلَ في الإسلامِ أصحابُ القدرات والمؤهّلات الفريدة من أمثال خالد ابن الوليد وعمرو بن العاص والمغيرة بن شعبةرضي الله عنهم؛ فصقل رسول الله ﷺ هذه النوعية من المواهب والكفاءات التي كانت ذات مكانةٍ مرموقةٍ في المجتمع الجاهلي وعجنها وأولاها اهتمامًا خاصًّا، ثم ترك أمرها للدين، وبالطبع فقد صار كل واحدٍ من سادتنا الصحابة هؤلاء وسيلةً في تحقّق الكثير من الخدمات العظيمة الجليلة بالنسبة للإسلام.

وإذا نظرتم إلى التاريخ العثمانيّ وجدتم أن السلاطين العثمانيّين كانوا إذا ما اكتشفوا صاحب موهبةٍ عبقريّةٍ سارعوا وسعوا من أجل اكتسابه والفوز به؛ وقد اكتشف إداريُّو ذلك العصر بفضل فراستهم وحدسهم المواهبَ وشجعوها حتى وإن كانت من ثقافاتٍ وأديان مختلفة، وبحثوا عن الطرق والسبل المؤدية إلى الفوز بهم، وفي ظلّ هذا دخل في الإسلامِ أمثال "زاغنوس *(Zağanos)*" و"أفرنوس *(Evrenos)*" و"غازي ميخال *(Gazi Mihal)*" و"المعمار سنان *(Mimar Sinan)*" و"صوقوللو *(Sokullu)*" -جزاهم الله خير الجزاء-، ودخلوا تحت إمرة الدولة العثمانية، وخدموا الإنسانية طيلة عمرهم؛ فكان من بين هؤلاء القائد والصدر الأعظم -رئيس الوزراء في عصرنا- والمعماري، فأدّوا خدمات نافعةً ومفيدة جدًّا لأمتنا.

ومن الواجب البحث -دون إفراطٍ ولا تفريطٍ- عن طرق اكتساب النوابغ باسترضائها وتشجيعها والاحتفاء بها ومكافأتها بشكل مناسب؛ إذ إن التصرّف على هذا النحو خلقٌ إلهيٌّ في الأساس؛ لأننا نشاهد في شؤون الله الجليلة أنه لا يترك ﷻ أيَّ نجاحٍ دون أن يكافئ ويثيب عليه، وما يلزم القيام به من هذه الناحية هو مكافأة وتقدير النوابغ من أجل اكتشاف المواهب والنوابغ المختلفة من جانب، وإثارة مشاعر وفكرة نفع البشرية في أرواحها من جانبٍ آخر.

تنظيم الوقت وحياتنا الأسرية

سؤال: كان رسول الله ﷺ رجلَ دعوةٍ ودولة، وفي الوقت ذاته أبًا وزوجًا وأقربَ صاحبٍ لأصحابه، ومع ذلك كان ينظّم وقته ولا يخلّ بأيّ حقٍّ لهؤلاء، وعلى ذلك فما الذي يجب على ذوي الغايات السامية أن يراعوه عند تنظيم أوقاتهم حتى يقيموا توازنًا بين الحقوق التي عليهم؟

الجواب: تنظيم الوقت يعني النظرَ بعين الاعتبار إلى جميع الأمور التي ينبغي القيام بها، وتحديدَ أولوِيّاتها، وتخطيطَ الحياة وفقًا لذلك، ويدخل ضمن هذا التخطيط أيضًا؛ حياتُنا التعبّدية مثل الصلاة والذكر والدعاء، فضلًا عن المسؤوليّات التي يجب علينا القيام بها تجاه مَن نحن متكفّلون برعايتهم كالأسرة والأولاد وغير ذلك.

فمثلًا المؤمن لا يترك قيام الليل بحجّة الخدمة، بل يجب عليه ألا يفعل ذلك. أجل، يجب على القلب المؤمن أن يأخذ نصيبه من قيام الليل، ولو بصلاة ركعتين، فالواقع أن الإنسان الذي يستيقظ ليلًا ويخصص ما بين عَشر إلى خمس عشرة دقيقة من وقته لصلاة التهجد والدعاء لا يخسر شيئًا ألبتّة من حياة الخدمة، بل على العكس يفوز بأشياء كثيرة؛ لأن مَن يُحسن استغلال ليله يسلُك طريقَ الانبعاث، والتهجد ليلًا أمرٌ يُباهي الله به

سـاكني الملإ الأعلى، والدعاء في هـذه الأوقات من الليل لا يُقارن بغيره من الأدعية، وكذلك فإن وضـع الجباه على الأرض، والوصال مـع سجادة الصلاة، والخضوع والتذلّل لله تبارك وتعالى، وسـكب العبرات وسط هذا الصمت الرهيب الذي يمتاز به الليل البهيم لهو أمرٌ عظيم لا يمكن مقارنته بالعبادات التي تُؤدَّى في الأوقات الأخرى، من أجل ذلك علينا ألا نتغافل عن قيام الليل عند تنظيم يومنا.

"أعطِ كلَّ ذي حقٍّ حقّه"

وكما يجب على الإنسـان ألا يُعرِض عـن العبادات التي تغذّي حياته القلبيـة والروحيّـة فعليـه أيضًا أن ينظـر بعين الاعتبار إلـى الحقوق العامة فـي حياته الاجتماعية، ويضـع لهـا ترتيبًا على قدر أعبائها، ولا يعزب عن عِلمكـم مـا قاله النبـي ﷺ للصحابة الذيـن أهملوا ذويهـم ليتفرّغوا لعبادة ربّهـم: "**إن لربك عليك حقًّا، ولنفسـك عليك حقًّـا، ولأهلك عليك حقًّا، فأعط كلّ ذي حقٍّ حقّه**"(٩٣).

وكما رأينا يشـير الحديث إلى أنه من الضروريّ ألا يتسـبب الانشغال حتى بالعبادة إلى إهمال الإنسـان للحقوق التي عليه مثل حقّ نفسه، وحقّ زوجته، وحقّ أبنائه... إلخ.

وكمـا تعطي مسـألة تخصيص خمسـة أوقـات للصلاة دروسًـا مهمّةً للمؤمنيـن في تنظيم الوقـت؛ كذلك فإن الآيات الكريمة التي تتحدّث عن حكمة خلق الليل والنهار تمدّهم ببعض المعطيات في هذا الشـأن، فمثلًا يقول ربّنا تبارك وتعالى: ﴿**وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْـكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ**﴾ (سورة القَصَصِ: ٧٣/٢٨).

---

(٩٣) صحيح البخاري، الأدب، ٨٦.

فهـذه الآية الكريمة وما شـابهها ترشـد المؤمنين إلـى موضوع تنظيم الوقت، وتقول لهم: إن نظّمتم أوقاتكم، وأدّيتم نهارًا ما عليكم أن تقوموا بـه نهـارًا، وأدّيتـم ليلًا ما عليكـم أن تقوموا بـه ليلًا، فُزْتم مـن الليل ببعدٍ آخر، ومن النهار بأفقٍ مختلف، وتخلّصتمْ من التشـوّش والاضطراب في حياتكـم، وما تعثّرتم بالعقبات الناشـئة عن الفوضى والعشـوائيّة، ونَعِمْتُم بحياةٍ أكثر بركةً ونماءً.

تخطيط الأربع والعشرين ساعة

فإن كنتم تنشدون من وراء تنظيم أوقاتكم أن تكون أوقاتكم أكثر بركةً وتنظيمًا فعليكم أن تضعوا جدولًا لكل سـاعات اليوم الأربـع والعشـرين، فـإن فعلتـم ذلك اسـتطعتم أن تحـدّدوا بشـكلٍ واضحٍ أيَّ الأعمـال التي ينبغـي لكـم القيـام بها في أيّ سـاعات اليوم؛ بدءًا من الالتقـاء بالأصدقاء حول الحديث عن ذكر الحبيب إلى قراءة الكتاب، ومن ترتيب الغرفة إلى الانشغال بالذكر والأوراد، ومن التشاور مـع الأهل في بعض المسائل إلى وقت الاستراحة، بل قد تدخل ضمنَ هذا التنظيم الفترة التي قد تخصّصونها للجلوس وشـرب الشـاي وتناول الطعـام، فمثلًا إن كانت عشـرون دقيقة تكفـي لتنـاول الطعام فلا بدّ من الاكتفاء بها، وألا نضيّـع أوقاتنا في الكلام الفارغ بعد الطعام، بل ينبغي أن نقتطـع أوقاتًا احتياطيّة من الأربـع وعشرين ساعة حتى لا تخلّ الأشغال التي قد تطرأ بعد ذلك ببرنامجنا.

فـإن نظّمنـا أعمالنـا بكلّ فروعهـا وأصولها على هـذا النحو المفصّل ازداد الوقـت بركـةً، وحصد الإنسـان ثمرة أعماله أضعافًـا؛ لأن الحياة إن نُظّمت صار الإنسـان منظّمًا في وقته، وتعوّد على العمل في إطار برنامجٍ معين، وبهذا الحافز المعنويّ يستطيـع القيام بأعماله في يسرٍ وسهولة.

ولا يُفهـم من كلامـي أن مثل هذا النمط الحياتي يعني آليّةَ الإنسـان، بـل يعني أن يكون الإنسـان منظّمًـا وأن تجري حياته في نظـامٍ وانضباط، والإنسـان المنظّـم لا يعيش خـواء في عباداته وطاعاتـه، ولا يُهمل أذكاره وأوراده، ولا يُقصِّـر فـي المهـام التـي تقـع على عاتقـه، ولا يُخلّ بحقوق أفراد أسرته.

إقناع من يسيرون معنا في نفس الطريق

وهنا مسـألةٌ مهمّـةٌ لا بدّ من الالتفات إليها عنـد تنظيم الوقت: يجب على الإنسان أن يفاتح الذين يشاركونه حياته في مسألة تنظيم الوقت التي يعتزم تطبيقها، وأن يستفيد من آرائهم وأفكارهم، وبعد ذلك يحدّثهم عن أهمّيّة الوظائف التي عليه أن يقوم بها، وأن يقنعهم عقلًا وقلبًا بها؛ بمعنى أن على الإنسان أن يحاول إقناعهم قدر المستطاع بما علينا من حقوقٍ لله والدّيـن والقرآن؛ إلـى جانب حقوق الزوجـة والأولاد والوالدين، ولا بدّ أن يعطي كلّ ذي حقٍّ حقّه، فإن توصل مـع مَنْ يشاركونه نفس البيت إلى اتّفاقٍ في هذه المسـألة اسـتطاع القيام بعمله براحةٍ أكبر وسـهولة أرحب، دون أن تعترضه أيّ كلمةٍ أو تصرُّفٍ سلبيٍّ ممّن حوله.

تصوّروا إنسـانًا أقنـع نفسـه بضرورة اسـتغلال معظم وقته في سـبيل إعلاء كلمة الله، وآمن بهذا يقينًا، فهذا الإنسان تشرّبَ هذه الوظيفة وجعلها جزءًا من طبيعته؛ حتى إنه يقوم بها باذلًا في سـبيلها شـتى التضحيات دون تـردّد، لكـن إن لم يعلم من يشـاركونه حياته عِظَمَ حـقِّ الله تعالى وأهميّةَ رفـع رايـة دينه فـي كلّ أنحاء العالم وأن هذا الديـن أمانةٌ وعليه أن يكون في شـدٍّ معنوي دائـمٍ إزاء هذه الأمانة، وإن جهل الآخـرون أيضًا الأهمية الحياتيـة مـن ترميم تلك القلعة التي تنخر فيها عوامل الضعف منذ عصورٍ

فلن يرغبوا في السـير معه في الطريق نفسه، ولذلك على الإنسان أن يبذل جهدًا أكبر حتى يسـلك معه الآخرون الطريق نفسـه، وهذا يجعل الإنسان يُصاب بالنصب والتعب بعد مدّة.

بيـد أنـه إن قدَر علـى أن يُقنـع مَن يشـاركونه حياته بالعقيـدة والغاية المثلى التي يتبنّاها، ويتنسّم معهم الفكرة والشعور نفسه، ويبثّ في قلوبهم شـعور رعايـة الخدمات التي يقوم بها؛ فلا شـكّ أن هذا الأمر سيسـاعده بشـكلٍ جـدّيٍ فـي تيسـير أمـره وتنظيم أمـوره، بل إنه لـو قصّـر يومًا في أداء مهامـه التـي عليـه أن يقوم بها كأن لـم يحضر إلى اجتمـاعٍ كان عليه أن يحضره أو أنه لم يشارك في برنامجٍ للقراءة كان عليه المشاركة فيه؛ فإنّ أوّلَ ردِّ فعلٍ سـيلقاه؛ سيصدُرُ من هؤلاء الذين يشاركونه الحياة، وسيكون هذا عنصرًا محفّزًا بالنسبة له.

فـإن حـدث خلاف ذلك -بـأن لم تكن لدى زوجتـه أو أولاده أو مَن يعيشون معه درايةٌ بتنظيم الوقت الذي يخطّط له- فلا مفرّ من وقوع بعض الاختلافات في الفكر والشعور بعد فترة، وسيتسبّب هذا في انقطاع العناية الإلهيـة؛ لأن توفيـق الله ينشـأ عن الوفـاق والاتّفاق، فلو كنتـم تريدون أن تحظـوا بتوفيق الله وعنايتـه فعليكم أن تحرصوا على الوفاق والاتفاق فيما بينكم أوّلًا، أيًّا كانت الدائرة التي تعملون في إطارها.

التبرّع بالوقت

الموضوع الآخر الواجب الوقوف عليه هنا هو: مدّة الوقت المخصّص لما سـننجزه من أعمال في سـبيل غاية سامية؛ إذ إن العمل الذي يَضطلع بـه -لأجل تحقيـق مثالية معيّنة- إنسـانٌ يخصّص حوالي سـبع أو ثماني سـاعاتٍ فحسـب من يومـه بمنطق الموظّـف أو العامل سـيكون محدودًا

بسـبب ضيق ذلك المنطق، فإن تولّى الإنسـان مسـؤولية بضعة أعمال في سبيل غاية سامية، وكان الوقت اللازم لإنجازها يتراوح ما بين ثلاث عشرة إلى خمس عشـرة سـاعة؛ انبغى له أن يسـعى للوفاء بهذا عبر تنظيمِهِ وقتَه تنظيمًـا جيّـدًا؛ أي إنـه يجب عليـه أن يُنفق وقتَه في سـبيل الله تعالى بقدر مـا يسـتطيـع دون أن يُضيّـع ولو ثانيةً واحـدة هباءً من جانبٍ، ويجتهد من جانـبٍ آخـر للاسـتفادة من وقته هذا علـى نحوٍ أفضل من خـلال تنظيمه أعماله وترتيبِه إيّاها أيضًا.

ولا سيما إن كان الأمر المطروح في يومنا هذا هو إعمارُ قلعة معنوية تضرّرت عبرَ عصور طويلة؛ فإنّ مَن نذورا أنفسَهم لخدمة القرآن والإيمان مطالَبـون بتقديـم تضحيـات أكثر ممّا كان حتـى الآن، وأن يتحرّكوا بحذرٍ وحساسـيّةٍ أكثـر فـي هذا الشـأن، ولتحقيقِ ذلـك فهم يسـتطيعون "التبرّعَ بالوقـت" فيمـا بينهم، فمثلًا يعلن أحدهم أنه سـيخصّص وسـيتبرع باثنتي عشرة ساعة من يومه في خدمة أمته، بينما آخر يتنكّب مسؤوليّة عملٍ مدّته ثلاث عشـرة سـاعة، وثالثٌ يعِد بأن يعمل في سبيل الله تعالى أربـع عشرة ساعة، والحاصل أن الجميع يسعى ويجتهد للاستفادة من الوقت وتنظيمه في إطار الخدمة بالتبرع من وقته بعددٍ معيّنٍ من الساعات، وهذا هو مفهوم العمل الذي يقع على عاتق المسلم الحقّ، فإن كان مفهوم العمل لا يعني هذا في يومنا؛ فهذا يعني جهلًا بهذا الجانب من الإسلام.

وإن كان البعض لا يتبرّع -رغم ما لديه من إمكانيات- بالوقت بالقدر المأمول منه؛ فهذا يعني وجود حاجةٍ إلى إقناع العقول في هذا الشـأن؛ إذ من المهمّ جدًّا تحقيق التطابق والتوافق مـع المخاطبين في هذا الموضوع، بيد أنه يلزم بعد تحقق مثل هذا النوع المرجوّ من التوافق ألا تُنتهك حقوق

أيّ إنسان على الإطلاق، وعلى كل فرد أن يتصرّف بحساسيّةٍ شديدةٍ في الوفاء بما يقع على كاهله من مسؤوليات؛ فلا يتعدّى الأزواج على حقوق بعضهم، ولا يلحقنَّ الضرر بحقوق الأُسرِ، ولا يقعنَّ أي نوعٍ من الظلم بين الرئيس والمرؤوس، ولا تنتهكنَّ ما في مقر العمل من مسؤوليّات.

وإلا فإننا إن كنّا نفهم من الحديث عن العمل التحرُّكَ وفقًا لمنطق الموظّف فيكون التراخي بعد أن نعمل سبع أو ثماني ساعات، والاهتمام بالمأكل والمشرب، والتجوّل كيفما يحلو لنا، وارتياد المقاهي -مأوى الكسالى وذوي الهمم الضعيفة- واللعب والمشاركة في مجموعة من الأنشطة البدنية والشيطانية فهذا يعني أننا نُسِيء فهم القضية، ومن يتحرّك بهذه العقلية يستحيل عليه أن يُنجِز ولو حتى عُشْرَ الأعمال الواجب القيام بها خدمةً للإنسانية في يومنا، بل إن الإنسان الذي يتبنّى فهمًا سقيمًا للعمل كهذا الفهم لن يتورّع عن الخروج في عطلةٍ خلال أكثر الأوقات حاجةً إليه، والاستئذان حين يجب القيام بأعمال وشؤون مهمّة جدًّا، وهكذا يُعرقل الأعمال الضرورية الواجبة الأداء.

أما مفهوم ساعات العمل بالنسبة لأهل الخدمة فليس على هذا المنوال؛ فهم يسعون قطعًا للوفاء بالمسؤولية التي تحمّلوها على عاتقهم في سبيل خدمة الحقّ، ولا يتركون عملًا بدؤوه دون أن يُتمُّوه، وإن حدث تقصيرٌ منهم في أثناء وفائهم بتلك المسؤولية في حقّ أزواجهم وأبنائهم وعائلاتهم سعوا لتلافيه وإصلاحه، وعملوا على ترضية وتطييب خاطر من يظنّون أنهم أخلّوا بحقّهم؛ فيقابلونهم بباقة زهرٍ مثلًا، ويبيّنون لهم سبب تأخّرهم، ثم يَفُونَ لهم بما قطعوه على أنفسهم من وعدٍ في أقرب فرصة، ويصلحون الأخطاء وأوجه الإهمال اللاإرادية.

وهنـا يتوجّـب على الأزواج التسـامح فيمـا بينهم فـي مواجهة ما قد يحـدث مـن تأخيرٍ بسـبب عملٍ لا بدّ من إنجازه، ويجب ألا يُنسـى أصلًا أن السـاعات والدقائـق بـل وحتى الثوانـي التي تمرّ في فتـرة انتظارٍ كهذه هي في حكم العبادة بالنسـبة للمنتظِريـن؛ لأن انتظارًا على هذا النحو يُعدُّ تضحيـةً حقيقيـةً، وكل واحـد من الزوجيـن في حاجةٍ إلـى الآخر؛ فهناك قضايـا وأمور معيّنة يجب عليه أن يتقاسـمها ويتدارسَـها مـع رفيق حياته، وهكـذا فإن ثواني يقضيها إنسـان ينتظر رفيق حياته المناضل المجاهد في سـبيل الخدمـة، -وهو في حاجـة إليه- قد تُقبل دون أن يشـعر هو كعبادة سـنوات طويلـة؛ ذلك لأن "**نِيَّـةَ الْمُؤْمِنِ خَيْرٌ مِنْ عَمَلِـهِ**"(٩٤)، وإن كان أحد الزوجين يسـعى في الخير والآخرُ يدعمه معنويًّا وماديًّا نال كلاهما -بإذن الله تعالى- ثواب ذلك العمل الصالح.

---

(٩٤) انظر: الطبراني: **المعجم الكبير**، ١٨٥/٦-١٨٦.

الوَلَه بالأولاد

سؤال: ما الدروس المستفادة من قول الله تعالى في سورة الأعراف: **﴿فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾** (سُورَة الأَعرَافِ: ٧/١٩٠)؟

الجواب: يقول الله تعالى في الآية السابقة: **﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَتْ دَعَوَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحًا لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾** (سورة الأَعْـرَافِ: ٧/١٨٩)، وتَحتمل كلمةُ "صَالِح" الواردة في الآية معنَيَين؛ الأوَّل: أن يكون بشرًا سويًّا معافًى من العيوب، والثاني: أن يكون متعمِّقًا في إيمانه، مراعيًا بالغَ الدِّقَّةِ في عبادته وطاعته، متوغِّلًا في شعور الإحسان والمشاهدة.

إنّ الرغبةَ في أن يكون المولودُ صالحًا تقيًّا من مقتضيات الإيمان بالله والآخرة، فما مِن قلبٍ مؤمنٍ يتمنَّى الولدَ إلا ويرفع يديه بالدعاء قائلًا: "اللهمّ هبْ لي ولدًا صالحًا، معافًى في بدنه وسائر أعضائه، كاملَ الإيمان والإسلام والإخلاص، اللهم سلِّم بدنه وأصلح عمله، وقوِّمْ حياته الروحية والقلبية".

ولكن رُبَما يأتي المولودُ مُعاقًا كسيحًا على سبيل الابتلاء، ومثل هذه الحالة تستلزم الصبرَ والثباتَ وتَجَشُّمَ الصعوبات؛ لأننا لا ندري الحكمة من وراء هذا الأمر، ولعلّ ربنا سبحانه وتعالى قد أراد بذلك أن يُطهِّرَ الأبوين من الذنوب والمعاصي، ويرفع درجتهما المعنوية إذا ما صبرا على تحمُّل مشقات العناية بهذا الطفل المسكين.

الخطاب للأمَّة كلِّها في شخص النبيِّ صلى الله عليه وسلم

قد يُفهَم للوهلة الأولى انطلاقًا مما ذُكِرَ في الآية الكريمة السابقة أن المقصود بالخطاب هنا أبونا آدمُ وأمُّنا حوَّاءُ عليهما السلام، وإن كان اللذَين سألا الله تعالى ولدًا صالحًا إياهما فإننا إذا ما أَخَذْنا بِعَين الاعتبار صفةَ العِصْمَةِ الملازِمة للأنبياء فسيتبين لنا أن المقصود بقوله "جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ" هم بعضُ بني آدم وليس آدم وحواء عليهما السلام، ولا جرم أن الأنبياء بمقتضى ما بلغوه من أفق عالٍ في محاسبة النفس لم يُعْفُوا أنفسَهم من هذا الإنذار واعتبروه خطابًا موجّهًا لهم، غير أن هذه مسألة أخرى، فالإنذار الحقيقيُّ هنا هو لِأُمَمِ الأنبياء لا للأنبياءِ أنفسهم، وكما تعلمون فإنّ مخاطبةَ الأنبياء ببعض خصائص قومهم أسلوبٌ متبّعٌ في مواطنَ عِدَّة من القرآن الكريم.

على سبيل المثال يقول ربُّنا سبحانه وتعالى في سورة الزُّمَرِ مخاطبًا نبيَّهُ صلى الله عليه وسلم: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ (سورة الزُّمَر: ٦٥/٣٩)، مع أنه من المُسَلَّمِ به أن سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يكن ليتلطَّخ بالشِّرْكِ مطلقًا، وهذا يُؤكِّدُ أن الخطاب هنا إنما هو للبشرية جمعاء في شخصِ النبي صلى الله عليه وسلم، وكأنّ ربّنا سبحانه وتعالى يقول: "لئن أشركتم ليحبطنّ عملكم"؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم مصونٌ معصومٌ بحفظ الله تعالى وعنايته.

أجل، لم يتلطَّخْ مفخرةُ الإنسانية محمد ﷺ في ذلك العهد الذي غاصت فيه الإنسانيّة حتى أذنيها في أوحال ذنوبِ الجاهلية وأرجاسِها ولو بِذَرّةٍ من الشرك حتى في غُرَّةِ حياته السَّنِيَّةِ، بل دعكم من الشرك، لم يُخِلّ صلوات ربي وسلامه عليه حتى بالآداب العامة، ولم يجرَح أحدًا بكلمة ولم يُؤْذِ مشاعرَ الآخرين ولو بقدر شعرة.

ومن ثَمَّ فأيًّا كانت المسألةُ التي نتناولها فلا بدّ أولًا من الإقرار بعِصْمَةِ الأنبياء وطهارتِهم وتزكِيَتِهِم، وأن نعلمَ أن ما وردَ من خِطابٍ للأنبياء بهذا المنهجِ وعلى هذه الشاكلة إنما هو خطابٌ موجَّهٌ إلى جميع الأمة بطريق الأولى، فإذا ما أخذنا في اعتبارنا هذا الأمر يكون من الأنسب أن نستوعبَ أسلوبَ الخطابِ هنا على النحو التالي: "انتبهوا واحذروا! فإذا كان هذا الإنذار قد جاء في حقّ نبيّ معصومٍ بحفظ الله تعالى وصيانته فالأولى لمن لم تُضمَن لهم العصمةُ والصيانَةُ أن يأخذوا حِذْرَهُم ويضعوا هذا الإنذار نصبَ أعينهم".

وهكذا علينا أن ننظرَ بهذا المِنْظَارِ إلى نصيبِ سيّدنا آدم من الخطاب الوارد في الآية، كيلا ننسج هالةً قذرةً وغيرَ لائقةٍ من وحيِ الخيال حول مَن اصطفاه الله وفضّله على العالمين، يقول تعالى: ﴿**إِنَّ اللّٰهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ**﴾ (سورة آلِ عِمْرَانَ: ٣٣/٣)، فلنُنزّه أفكارَنا وخيالاتِنا حول سادتنا العظام من الأنبياء الكرام صلوات الله عليهم وسلامه، ولذا أُذَكِّرُ مرّةً أُخرى بأن سؤال الولدِ الصالحِ وإن صَدَرَ من آدم عليه السلام إلا أن الشِّرْكَ الحاصلَ بسببِ الولدِ لا علاقةَ له ألبتّةَ، بل الخطاب لنا نحن.

الوَلَه بالولد قد يفتح الباب للشِّرْك

إن تجاوُزَ حدودِ الاعتدالِ في حبّ الولد قد يوقع في دائرةِ الشِّرْكِ، فبعض الناس يتعاظم هذا الشعور لديهم لدرجة أنهم يقولون: "إن ولدي هو كلُّ شيءٍ في حياتي"، فمثلًا تراه إذا ما جلس في أحد المجالس وذُكر المقطع الهجائي الأول من اسم ولده ينتهزُ الفرصةَ مباشرةً للحديث عن ولده وتعدادِ مآثِرِه.

أجل، قد تكون نقطةُ الضعف هذه قد استحكمت لدى بعض الناس حتى إنهم يسعَون لإيجاد مدخلٍ لِسَحْبِ الكلامِ كي يتحدثوا عن أولادهم، وهذا ما يعنيه قولنا: "الوَلَهُ بِالوَلَدِ".

يجب أن يكون حُبُّ الأولاد وسيلةً لسعادتِهِم الأبديّة

إنّ الأولادَ الذين هم بمثابةِ مرايا صغيرة تعكس "أحسن تقويم" إنما هم وديعة الله عندنا، فلا بدَّ أن نحبَّهم ونحتضنَهم لأنّهم أثرٌ من آثار خالقِهم ومُبدِعِهم، والأهمُّ من ذلك أن نستغلَّ حبَّنَا وشفقَتَنا عليهم في تزويدهم بالتربية الإسلامية، وبعبارة أخرى: لا بدّ أن يُسهِم هذا الحبُّ في أنْ ينشَؤُوا على الاستقامة ويعيشوا عليها ويُصبِحُوا مُثُلًا عُليا لها، وعلى الآباء والأمَّهات أن يهمِسُوا بهذه الأمور دائمًا في آذان أبنائهم وهم يقبّلونهم ويمسحون رؤوسَهم ويُرَبِّتُون على أكتافهم؛ حتى لا يُجاهِرَ الأولادُ اللهَ بمعاصيهم أو يقعوا في فخِّ الإلحاد أو تستولي عليهم مشاعر التمرُّدِ والتهوُّرِ التي تُفضي إلى خُسرانِ الحياة الأبديّة؛ لأن على الأبوين مسؤوليَّةَ إعداد بيئةٍ صالحة لتنشئة أبنائهم وعملَ كلِّ ما يلزم حتى يرحل أبناؤهم عن الدنيا أطهارًا كما جاؤوها، ولا شك أن الوفاء بكلِّ هذا بعدٌ آخر لِحُبِّ الأولاد ولا غضاضةَ فيه.

ولكن إن لم يعبأ الإنسانُ بكلِّ هذا، وتعلَّقَ بولده تعلُّقًا يصل إلى العبودية لمجرَّدِ أنه ولدُه، وربطَ كلَّ شيءٍ به، ورَغِبَ في التحدُّثِ عنه دائمًا فهذا يعني أنه قد طَرَقَ بابًا من أبواب الشِّرْكِ دون أن يدري، وإن كان يدّعي أنه يؤمن بالله تعالى ورسوله ﷺ، وننبّه هنا إلى أن مَن يتلفَّظ بالشهادتين ليس بمشركٍ، ولكن لتعلُّقِه الشديد بولده صار يحملُ صفةً من صفات الشرك، وسيدنا رسول الله ﷺ يشير إلى هذا المعنى: "**إِنَّ أَخْوَفَ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمُ الشِّرْكُ الْأَصْغَرُ**" قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ وَمَا الشِّرْكُ الْأَصْغَرُ؟ قَالَ: "**الرِّيَاءُ**"(١).

وإذا أردنا أن نُعَبِّرَ عن هذا الأمر بأمثلةٍ ملموسةٍ نقول: من الرياء أن يُعَبِّرَ الإنسانُ عن نفسه بقَسَماتِ وجهِهِ، وأن يبالغَ في حساسيَّتِهِ عند أداء العبادات أمام الآخرين رغم أنه لا يفعل ذلك إن اختلى بنفسه، وأن يحاول إعلامَ الآخرين بمواهبِهِ الخاصَّةِ كَحُسْنِ التأليفِ والرسمِ والخطابةِ، والأنكى من ذلك أن يغلّفَ رغبته في حبِّ الظهورِ بِغِلافِ التعبيرِ عن عجزِهِ وفَقْرِهِ في مُستَهَلِّ حديثه قائلًا: "أنا الفقيرُ أنا العاجزُ"، وهذا يُعْتَبَرُ أخطرَ أنواعِ الرياءِ، وإنَّ محاولةَ الشخص إظهارَ نفسِهِ من خلالِ ولدِهِ لا يختلفُ عما ذكرناه آنفًا؛ فمِثلُه يُدنِّسُ حبَّهُ لولَدِهِ بصفةٍ من صفاتِ الشِّرْكِ، في حين أن على المؤمن أن يُراعيَ الدقَّةَ البالغةَ في المحافظة على صفات إيمانه قدرَ محافظتِهِ على عِرْضِهِ وشَرَفِهِ، ولا بدَّ أن يُطَهِّرَ أفكارَه ومشاعرَه من أيِّ شائبةٍ للشرك الخفي سواء أكان رياءً أو عُجبًا أو سمعة أو فخرًا أو كبرًا؛ لأن كل واحدةٍ منها صفةٌ من صفات الشرك، ووجودُ صفةٍ كهذه لدى الإنسان بمثابةِ وجودِ فيروسٍ فيه، وبعض هذه الفيروسات يصيبُ الجِسمَ بنزلةِ بردٍ، وبعضُها يصيبُه بالسرطان، وبعضها يصيبه بالإيدز

(١) **مسند الإمام أحمد**، ٤٣/٣٩؛ الطبراني: **المعجم الكبير**، ٢٥٣/٤.

والعياذ بالله، ولذا على الإنسان ألا يستصغرَ أيَّ صِفَةٍ من صِفاتِ الشِّرْكِ والكفرِ، وألا يُفْسِحَ المجالَ لنموِّ مثلِ هذه الصفاتِ في قلبِهِ وروحِهِ.

ولا جرم أن مَن يُبْدِي محبَّةً مُفرِطَةً وولعًا شديدًا بولده وأسرتِهِ ليس بمشركٍ وإن كان يحمل صفةً من صفات الشرك، فإن مات على الإيمان دخل الجنة، ولا يعامله الله تعالى -وهو أعلمُ- معاملةَ المشرك، غير أننا لا بدّ وأن نُفتِّشَ عن حلٍّ لهذا الأمر ونتحرَّى الدقة البالغة فيه لأن صفةَ الشِّرْكِ هذه تُشْبِهُ الفيروسَ، والفيروسُ لا يُتْرَكُ يعيثُ فسادًا في الجسمِ، بل لا بدّ من استئصاله، ففيروس الإنفلونزا مثلًا إن لم نبحثْ له عن علاجٍ ناجعٍ فرُبما يصرعُ الإنسانَ أو يقتلُه، وعلى ذلك يجب على الإنسان ألا يسمح بأن يستقرّ في بنيتِهِ أيُّ فيروسٍ يتنافى مع فِطْرَتِهِ الأصلية ومع صورةِ "أحسن تقويم" التي خلقه الله عليها، فإن حاولَتْ هذه الفيروسات أن تطرقَ بابَه أغلقه في وجهها قائلًا: "لا تُتْعِبِي نفسَكِ هباءً، فكلُّ الأبوابِ موصدةٌ".

قد يسأل سائل فيقول: لماذا يجب على الإنسان أن يتحلّى بهذا القَدْرِ من الحَذَرِ والدِّقَّةِ حيالَ الشِّرْكِ؟

والجواب: لأن الشرك يكون أحيانًا خفيًّا أو ضئيلًا جدًّا لا يكادُ الإنسانُ يدركُه أو يعبأُ به، ولكن يجب ألا ننسى أن صغائرَ الذنوبِ التي لا نعبأُ بها ونقلّل من شأنها تصبحُ أحيانًا أعظمَ من الكبائر بكثرةِ تكرارها، بل قد تكون أخطر منها، كما يقال: "لا صغيرةَ مع الإصرار ولا كبيرةَ مع الاستغفار"، وإلى جانب هذا فإن العبد إن اطّلع على كبائره واستحضرَ وأدرَكَ فظاعتها وأخذها على محمل الجدّ فسرعانَ ما يعودُ إلى ربِّهِ في أسًى وانكسارٍ متوسّلًا إليه بالتوبةِ والإنابةِ والأوبةِ، وبعد ذلك يستَنْفِرُ هذا

الشعورُ بالذنبِ لديه مشاعرَ مكافحةِ المعاصي، وفي النهاية يعيشُ في حذرٍ وتحفُّظٍ دائمٍ منها.

وهكذا فإن لم يحافظ الأبوان على حدِّ الاعتدالِ في ولَعِهما بأولادهما وإن بدا صغيرًا في البداية فسيُصْبِحُ مشكلةً فيما بعد تتفاقمُ مع مرورِ الزمن.

وحتى نفهم الموضوع بشكلٍ أفضل يمكننا أن نضربَ مثالًا بالخطإ الذي وقع فيه أسلافُ قومِ نوحٍ ﵇، فكما تعلمون كان "وَدّ وسُواع ويَغُوث ويَعُوق ونَسْر" -في رواية- أشخاصًا صالحين من بني آدم، وكان لهم أتباعٌ يقتدون بهم، فلما ماتوا قال أصحابهم الذين كانوا يقتدون بهم: "لو صَوَّرْنَاهم كان أشوق لنا إلى العبادة إذا ذكرناهم"، فصَوَّرُوهم، فلما ماتوا وجاء آخرون دبّ إليهم إبليس، فقال: "إنما كانوا يعبُدونهم، وبهم يُسْقَونَ المطرَ"، فَعَبَدُوهم[٢]، لقد كانت هذه الفكرة بريئةً في البداية، ولكنها أصبحت مع الوقت سببًا في تأليهِ هؤلاء الرجال الصالحين، كانَ مُبتَدَؤها وجهةَ نظرٍ بسيطةً لكنّها آلت في النهاية إلى مصيبةٍ عظيمةٍ

أجل، على الإنسان ألا يُطنِبَ أو يُفْرِطَ في حُبِّهِ سواء أكان المحبوب أولاده أم غيرهم، وألا يتجاوز الحدّ المعقول؛ فطوبى لمن عرف حدَّه فوقفَ عنده.

التوازن في حُبِّ الولد

يرى البعضُ في أيامنا هذه أن الولدَ هو المرتَكَزُ الذي تقوم عليه الأُسَرُ، غير أن الأحرى أن نتساءل: هل نقطة الارتكاز في الأسرة اليوم هي الولد، أو الهوى والرغبة، أو النفس، أو الأنانية؟! كلُّ هذا تساؤلٌ

(٢) تفسير الطبري، ٦٣٩/٢٣.

دون حكمٍ قطعيّ ولكن ما نقطعُ به هو أن المرء إن اختار لنفسه نمطَ حياةٍ لا يتماشى مع الأوامر والنواهي الإلهية التي وضعها الدين فقد كثرت نقاط الارتكاز السلبية عنده، وانفتح الباب أمامه لمختلف أنواع الشرك المنافية للتوحيد.

فضلًا عن ذلك فليس من الصحيح وفقًا للأخلاق الإيمانية أن تُبنى سعادةُ الأسرة وتعاستُها على مسألة الإنجاب بل وأن تنشأ الخلافات والنزاعات من أجل ذلك؛ لأنّ مثلَ هذا السلوك -نسأل الله السلامة- يُعبِّر عن عدم الرضا بقضاء الله، والاعتراضِ على القَدَرِ، والتمرُّدِ على الله ﷻ.

أجل، إن المشاكلَ الناشئةَ عن عدم الإنجاب -رغمَ أنه من تخصُّصات القَدَرِ- هي أمورٌ لا يرتضيها الله ﷻ، ولنذكر دائمًا ولا ننس أن الولدَ بوجودِهِ أو عدمِه ابتلاءٌ في حدِّ ذاتِهِ، قال تعالى: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ (سورة الأَنْفَالِ: ٨/٢٨).

أما الضَّرَرُ في اعتبارِ الولدِ كلَّ شيءٍ، والحبِّ المُفْرِطِ له، وجعله المرتكز الذي تقوم عليه العائلة فإنّه يكمن في التغاضي عن تصرُّفاته السلبية، وعدم البحث عن حلٍّ سويٍّ لهذه المشاكل والسلبيّات، فمثل هذا التصرُّفِ قد يُفضي مع الوقت إلى نشأةِ أبناءٍ غير أسوياء، بيد أن الهدف الأساس في هذا الأمر هو إنجاب طفلٍ صالحٍ مستقيمٍ طاهرٍ على خُلُقٍ حسن، فعلى الأبوين أن يبذلا جهدهما ويقوما بكلِّ ما يلزم للوصول إلى هذا الهدف، ولكن الحقيقةَ المُرّة تُشير إلى أن الغالبية العظمى من الأطفال اليوم قد ضاعوا وضلُّوا الطريقَ بسبب انتشارِ الجهلِ في الأسرةِ، والوحشيّةِ في الشارع، وتبلُّد الأحاسيس في دُورِ العِبادَةِ، وافتقارِ التعليمِ إلى الجَودَةِ.

تربيةُ الأبوين هي البدايةُ لِنَشْأَةِ الولدِ الصالحِ

فإذا ما ابتغينا الولدَ الصالحَ فعلينا بدايةً أن نُحْسِنَ تربيةَ والديه؛ إذ يجبُ أن يتعلّمَ الوالدانِ في البداية كيف يكونان قدوةً لأولادِهما، وكيف يعاملانهم، بل ومن الممكن أن يلتحقَ المُقبِلون على الزواجِ بدوراتٍ تأهيليّةٍ قبلَ الزواجِ، فإن حصلوا على شهادةٍ منها تزوَّجوا وإلا فلا، وخلال هذه الدورة يتعلم هؤلاء الشباب المقصد الأساس من الزواج، وكيف يمكن تأسيس علاقة صحّيّةٍ بين الزوجين، وكيف يعاملان بعضهما البعض، كلُّ هذه الموضوعات وأمثالُها لا بدّ من تأسيسها على أرضيّةٍ صلبةٍ؛ لأن المقبل على الزواج -ذكرًا كان أو أنثى- إن تزوَّدَ بالعَتادِ السليم في هذا الشأن فستصبح هذه المؤسّسةُ المُقَدَّسَةُ التي يُشَكِّلُها مع شريكِ حياته روضةً من رياض الجنة، ولا شك أن الأولاد الذين يتربَّون في كَنَفِ مثل هذه العائلة سيغدون صالحين أسوياء، ولكن إن لم تكن لدى الأبوين كفاءة لتحمُّلِ مسؤوليّة الأبوّة والأمومة فسيظلُّ الأطفال مذبذبين لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء، وللأسف نشأت معظم الأجيال الحاليّة على هذا النحو، وإن نشأ البعض في بيئةٍ طاهرةٍ وبلغوا ذاتيّتهم فالغالبية العظمى لم تتمكّن من فِعل ذلك.

ولطالما تلقّى الذين تورَّطوا في حبٍّ غير مشروعٍ على خلاف مقصدهم لطماتٍ ممّن أحبُّوهم أيًّا كانوا هم، من أجل ذلك إن لم يَعتبر الوالدان ولدهما وديعةً من الله عندهما، بل ونظرا إليه على أنه بضعةٌ منهما فحسب، وأحبَّاه حبًّا أنانيًّا وولِعا به ولعًا مُفرطًا؛ فسيغدو هذا الولدُ ابتلاءً لهما في المستقبل؛ لأنه كما يتسبَّبُ الإفراطُ في شيءٍ تفريطٌ في آخر، فكذلك التفريطُ بالتالي يؤدّي إلى إفراطٍ آخر، وكما أن هذا الأمر يتخلَّلُ

العلاقـةَ بين الأبوين والولد فهو يسـرِي أيضًا على العلاقـةِ بين كلّ مُحِبٍّ ومحبوبٍ.

حاصـل القـول: لو أن الإنسـان وضـع غيـره -أيًّا كان هـو- في مقامٍ أعلـى مـن قدره، وأفرطَ في حُبِّهِ له فسـيتلقَّى لطمة منه على عكس ما كان يهـدُف أو ينتَظِـر، ثـم يأتـي اليوم الذي يسـمع فيه كلٌّ منهمـا ما لا يحبُّ من الطرف الآخر.

تكامل الطبيعة الإنسانية والإسلام

سؤال: كيف يمكن للإنسان أن يجعلَ الإسلامَ جزءًا لا يتجزّأُ عن طبيعته؟ وما هي وسائل تحقيق ذلك؟

الجواب: إنَّ الإحساس والشعورَ بالمعلومات الإسلامية النظرية على نحوٍ يتناسب مع ماهيتها الحقيقية الكامنة في وجدان الإنسان، وصيرورةَ هذه المعلومات عمقًا من أعماق الطبيعة الإنسانية مع مرور الزمن ليرتبطُ في المقام الأول بالإقرار بأنّ تطبيق هذه المعلوماتِ شرطٌ أساسيٌّ لا غِنًى عنه، ولقد لفَتَ بعضُ الفلاسفة الانتباهَ إلى هذه المسألة باستخدامهم مفاهيم كـ"العقل العملي" وما شابه ذلك، بينما ركّز الصوفيّة على هذا الأمر بطرق وأنظمة مختلفة عنهم مثل "السَّير والسلوك الروحاني".

وعلى حين أنَّ فيلسوفًا كـ"برجسون *(Bergson)*" -مثلًا- يقول بإمكانية العثور على الحقيقة عبر الأحاسيس والبصيرة الوجدانية فحسب؛ يؤكد "كانط *(Kant)*" على أنّ معرفة الله تعالى لا يمكن أن تتم إلّا بواسطة "العقل العملي"، ونظرًا لأنّ هذين الفيلسوفين تربّيا في أحضان الثقافة الغربية، فإنّ وصولهما إلى الحقيقة من عدمه، وإمكانيّة وصولنا إلى الحقيقة على منوالهم سيبقى مثارَ جدَلٍ ونقاش؛ إلّا أننا لسنا بصددِ تحرير ذلك؛ فهذه مسألة أخرى.

إنكـم إن أبقيتـم الأدلّة التي تسـوقونها حـول معرفـة الله تعالى مجرّدَ معلومـاتٍ نظريـة، ولـم تدعموهـا بالعمل؛ فـإنّ هذا قد لا يكفـي لحماية الإيمان والإسلام وأسسهما الخاصّة. أجل، إنّ الريحَ المعاكسة قد تعصف بـكلِّ أنواع المعلومات والأدلة النظرية وتنسـفها نسـفًا، ومـن ثمَّ فإنه يلزَمُ تطبيق المعلومات النظرية وتفعيلُها على أساس قاعدة العمل.

سبيل النجاة: الإيمان والعمل الصالح

الحقيقة أنّ القرآن الكريم يربط خلاصَ الإنسان من الخُسران، ونجاتَه من التردّي في أسـفل سافلين بالإيمانِ والعملِ الصالـح، قال تعالى: ﴿**لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَـانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ۞ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ۞ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ**﴾ (سورة التِّين: ٩٥/٤-٦).

واسـتخدام صيغة الفعل عند الحديث عـن الإيمان والعمل في الآية، والتعبير بالجملة الفعلية لا الاسمية يُشير إلى أهمّيّة الاستمرارية فيهما كي تتحقّـق النجـاة، ومِن هنا فإنَّه ينبغي للإنسـان أنْ يُقـويَ إيمانه على الدوام مقتديًـا بالصحابة الكرام؛ إذ كان أحدُهـم يقول لصاحبه: "اجْلِسْ بِنَا نُؤْمِنْ سَـاعَةً"[٣]، وأن يسـعى دائمًـا لتجديـده وتنميته، وربّما تكونـون قد حللتم مسـبقًا كلَّ المشـكلات الخاصة بالكفر والإلحاد، وتغلَّبتم وحكمتم عليها بالإعـدام، إلّا أنّـه حريٌّ بكم ألّا تتوقّفـوا أبدًا، ولا تكتفوا بما وصلتم إليه؛ حتـى لا تفقـدوا هذه المكتسـبات الإيمانية، وعليكـم أنْ تبحثوا يوميًّا عن مزيدٍ من السُبلِ لتجديدِ إيمانكم ونموّه.

وقـد رَكّزَ القرآنُ إثـرَ حديثه عن الإيمانِ على العملِ الصالحِ السـليم الدائم الذي لا يشـوبه رياء ولا سـمعة ولا يتخلّله نقصٌ ولا قصور؛ إذ إنّ

---

(٣) صحيح البخاري، الإيمان، ١؛ مسند الإمام أحمد، ٣٠٩/٢١.

نطاق العمل الصالح واسعٌ جدًّا، فجميع الأعمال التي يجب القيام بها بدءًا من الإيمان بالله وعبادتِه وطاعتِه، ومرورًا برعاية حقوق الوالدين، ووصولًا إلى حماية حقوق المسلمين... كلّ ذلك يَدخُل في إطار مفهوم "الصالحات"، واستخدامُ صيغة الفعل دون غيرها من الصِّيَغِ عند الحديث عن العمل الصالح يعني ضرورةَ ألّا يكتفي الإنسان بفعل البِرّ والخيرِ مرّة واحدةً فحسب، بل عليه أن يُسلِم قِيادَه إلى شلال العمل الصالح ويواصلَ حياته على هذا المنوال دائمًا.

ويمكنكم رؤية نفس المضمون في سورة العصر أيضًا؛ إذ يُذكَرُ فيها أنّ الإنسان في خُسرٍ، ثم تُعلَّقُ النجاةُ والخلاصُ من هذا الخسران على الإيمانِ والعملِ الصالح معًا؛ حيث توجد في ماهية الإنسان مجموعةٌ من القوى والمشاعر والأحاسيس مثل: "القوة الشهوية" و"القوة الغضبية" و"القوة العقلية" قد تؤدي إلى ارتكابه أمورًا سلبية، كما أنها قد تَسُوقُه إلى الخُسران وتُغرقه في مستنقعه في أيّ وقتٍ وآن، وقد قدَّمَ الحقّ تعالى في تلكما السورتين الوصفةَ العلاجيةَ الناجعةَ التي يُمكِنُها أن تكون ترياقًا يحمي الإنسانَ في مواجهة هذه المخاطر القاتلة، وفي صَدَدِ الحديثِ عن هذه الحقيقة قال الإمام الشافعي: "لَوْ تَدَبَّرَ النَّاسُ هَذِهِ السُّورَةَ لَكَفَتْهُمْ **﴿وَالْعَصْرِ ۞ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ ۞ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾** (سورة العَصْرِ: ١٠٣/١-٣)"[٤].

العجز والفقر، الشوق والشكر

لقد أوصى الصوفيّة كذلك بـ"السير والسلوك الروحاني" من أجل تَشَكُّلِ شخصيّة الفرد المسلم واكتسابِ الإنسان فطرةً جديدةً، غير أنّ لهذا

(٤) ابن كثير: **تفسير القرآن العظيم**، ٣/١.

سُبلًا ومناهج مختلفة خاصّة به؛ فقد وضع أولئك العظماءُ في حسبانهم العواملَ الضاغطة على المسلمين في الفترة التي عاشوا هم فيها، وأسّسوا أنظمةً قادرةً على التصدّي لتلك الظروف، والصمودِ في مواجهتها؛ وبينما ربطَ بعضُهم نظامَه بـ"مراتب النفس السبع"، أَسَّسَ البعضُ الآخرُ نظامَه بناءً على "اللطائف العشرة".

أما الأستاذُ بديع الزمان فقد ربط النظامَ الذي وضعه بأربعة أسس هي: العجز المطلق والفقر المطلق والشوق المطلق والشكر المطلق، وتحدث عن أساسين آخرين قَد يُتمّمان هذه الأسسَ الأربعةَ، ألَا وهما: الشفقة والتفكر[٥]، وهذا النظامُ بمثابةِ دربٍ يجبُ على مَن يبغي الإنسانيّةَ الحقيقيّةَ والكمالَ أن يسلكه، غير أنّ إقرارَ إنسانٍ بهذه الأسس وقبولَه بها واستيعابَه إيّاها يتطلبُ جهدًا وسعيًا حقيقيًّا.

الأساسُ الأوّلُ: هو العجزُ المطلق، ويُقْصَدُ به أنْ يَعيَ الإنسانُ ويُدركَ أنّه يستحيل عليه القيامُ بكلِّ عملٍ يرغب فيه؛ فالحوادث تقع وفقًا لتقدير الحقّ تعالى، ولا نستطيع التدخّل فيها، وحتى وإن لم نُنكر وظيفةَ الإرادة في هذا الموضوع فمن المؤكّد أنّ الله تعالى هو خالق النتائج كما أنّه الخالق لكلِّ شيءٍ، وإذا كان الأمر كذلك فعلى الإنسان أن يعتبر نفسه قطرةً في بحرٍ أمام كُلٍّ من الإرادة والقدرة الإلهيّتين الأبديّتين، ويرضى بوضعِهِ ومقامِهِ ويُسلِّمَ زمامَ أمره للخالقِ ﷻ.

أما الفقر المطلق فهو: أن يُدرك الإنسان ويعِيَ تمامًا حقيقةَ أنّ الله تعالى هو الصاحب والمالك الحقيقي لكلِّ الموجودات والأشياء،

(٥) انظر: بديع الزمان سعيد النورسي: **المكتوبات**، المكتوب الرابع، ص ٢٤؛ **الكلمات**، الكلمة السادسة والعشرين، ذيل، ص ٥٥٥.

وما نملِكه ممّا استُخْلِفنا عليه إنما هو منه ولَه، فهو الذي استخلَفَنا في الأرض، ومنَّ علينا بِنِعَمٍ لا تُعَدُّ ولا تُحصَى، وجعلنا مسلمين، وعرّفنا بسلطان الأنبياء ﷺ، وفتح لنا آفاقًا ساميةً عاليةً على الرغم من عدمِ أهليّتنا لها، وربَطَنا بغاياتٍ ساميةٍ وحثّنا على استهدافِها وتحقيقها، فإن جحدنا النعمةَ وأعرضنا عن الحديث عمّا أنزله الله تعالى علينا من نعمٍ وانتقَلْنا إلى الحديث عمَّا هو مِن عند أنفسنا فلن يبقى في أيدينا بل ولن نجِدَ في جُعبتِنا شيئًا أبدًا! فماذا نكون نحن ما دام جسدُنا وعقلنا وحِسّنا وفكرنا وكلّ أعضائِنا وأملاكِنا مِنْ عنده تعالى؟ إننا إذًا -وكما قال فضيلة الأستاذ بديع الزمان- ظِلُّ ظِلِّ ظِلِّ نورِ وجودِهِ ﷻ، بل إنّنا أمامه جلَّ وعلا لا نُعتبر ولو حتى مجردَ قطرة في بحرٍ[٦].

التفكّر والشفقة

بالرغم من أنّ هذه الأسس المذكورة مهمّة جدًّا إلّا أنّها لا يمكن أنْ تتوحّد مع طبيعة الإنسان تمامًا بمجرّد قراءتها والتفكيرِ السطحيّ بها، إذ إنّ تحوُّلَها إلى بُعدٍ من أبعادِ الطبيعة الإنسانية مرتبطٌ بحالةٍ من التأمُّل والتدبُّر والتذكُّر الحقيقيّ الجاد، فعلينا أن نُمعِنَ في التفكير والتأمّل في الإنسان والقرآن والكون، ونفعلَ كلَّ ما بوسعنا حتى نجعل حديثنا وكلامنا وسيلةً وسبيلًا لشرح هذه الحقائق، وأن نُديم التفكير فيما نملكه، وكم لدينا من رأسمال، وما مدى وجود قُوّتِنا؛ فالحقيقة أنَّ بلوغ الإنسان آفاق مرتبتي الشوقِ والشكرِ مرتبطٌ ومرهونٌ بتوفُّرِ نظامٍ فكريّ فعّالٍ يَنْشَطُ على هذا النحو.

---

(٦) انظر: بديع الزمان سعيد النورسي: **المكتوبات**، المكتوب الخامس عشر، السؤال السادس، ص ٧٦-٧٧.

أما الشفقة التي هي مِنْ أسس منهجنا فتعني الرحمةَ بالإنسانية والسعيَ الجادَّ والتفانيَ والتضحيةَ لإنقاذ الآخرين، بل إنّه يجب على الإنسان ألّا يَقْصُر مشاعرَ الشفقة التي يمتلكها على الإنسانية فحسب وإنَّما عليه أن ينشرها وينثرها على الوجود بأسره، ويستثمرَ كلَّ فرصة تَعِنُّ له في عَرضِ هذا الشعور عرضًا عميقًا ودقيقًا، بل إنّه ينبغي له أن يتحلّى بأسمى معاني الشفقة وأَرْحَبها حتى إنه ليبكي إذا رأى نحلةً تُعالِجُ الموت.

ولا ريب أنّ اكتساب مثل هذا النوع من حِسّ الشفقة مرتبطٌ بامتلاك إيمانٍ قويٍ بالآخرة إلى جانب التفكُّر والتدبُّر، وأحسَبُ أنّ ذلك الهيجان والخلجان لدى الأنبياء العظام إنما كان ينبع خوفًا من سوء العاقبة، وشوقًا إلى حسن الخاتمة، لأنهم يؤمنون أن أولئك المتحررين الذين أطلقوا لأنفسهم الأعنّةَ دونَ حدودٍ أو ضوابط سيتردَّونَ في جهنم حتمًا، وأنَّ هناك جنّةً في الآخرة تتمايل وتتراءى بكل عظمتها ورونقِها، ولهذا السبب فقد بذلوا كلَّ طاقاتهم ووسعهم وسخّروها لدفعِ الناس عن تلكَ النارِ إلى تيك الجنّة، وحالةُ مفخرة الإنسانية ﷺ الذي خُوطب في القرآن الكريم بقوله تعالى: ﴿**لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ**﴾ (سورة الشُّعَرَاءِ: ٢٦/٣)، وقولِه: ﴿**فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا**﴾ (سورة الْكَهْفِ: ١٨/٦) إنّما تنبعُ من هذه التأملات الواسعة الكامنة بين جوانحه.

أجل، ينبغي للإنسان أن يسعى ويجتهد كي يرتقيَ إلى الدرجات العُلى وكأنّه في دوامة حلزونية، سواء باستخدامه المنهج الذي وضعه فضيلة الأستاذ بديع الزمان أو بغير ذلك من الطرق والمناهج؛ فبينما هو يؤدي حقّ المقام الذي يشغله؛ عليه -وبنفس الوقت- أنْ يطمحَ بنظره دائمًا إلى

مقاماتٍ أسمى وأرفعَ، ويكونَ لسانُ حاله دائمًا لسانَ حالِ المسافرِ في سبيلِ معرفةِ اللهِ تعالى التي لا يُشبعُ منها أبدًا، ويستزيد منها قائلًا: "فهل من مزيد؟" فإن استطاع الاستفادة الجيدة من العطايا والواردات التي حظي بها فيما وصل إليه من مَقام؛ فَلَسَوف تستيقِظُ الأشواقُ في أعماقه نحو أشياءَ جديدةٍ، ومِنْ ثَمّ فإنّ مثلَ هذا المسافرِ سيطرق أبوابًا شتى دائمًا ودون توقُّف.

الاستقامة والسعي الدؤوب

إنّ مسافرًا في طريق الحقّ كهذا الذي يتحرّك باتجاه الشوق والتوق المستيقظ في وجدانه سوف يسعى دائمًا لإعلاء هِمَّته، وكلما أعلاها أكثر كلّما أُتيحت له فرصة التحرّك أكثر، وبهذا سيدخل في إطار دائرة صالحةٍ؛ فتتكون في فؤاده دومًا اشتياقات جديدة يطلب بفضلها ويطمح إلى مراتب ومقامات جديدة؛ أي إنّ الإنسان حين يبذل طاقته ووسعه كشرطٍ عاديّ فإن المشيئة الإلهية التي هي الشرط الأساس تُسْعِفُه؛ فتوصله إلى المراتب التي ينشدُها.

ولا شك أنَّ استيعابَ كلِّ هذه الأمور وصيرورتها بُعدًا من أبعادِ الطبيعة الإنسانية لن يتحقق هكذا فجأةً؛ فهذا الأمر مرتبطٌ بجهد وسعي حقيقي وجادٍّ، ولكن قد تتحقّق خوارقُ عاداتٍ في بعض الحالات الخاصة، فَيَصِل الناس على جناحِ السرعة إلى ذروة الكمالات الإنسانية؛ وعلى سبيل المثال فهناكَ مَن لم يتسنَّ له من صحبةِ النبيّ ﷺ ومجالسته إلا مدّةً وجيزةً، ومع ذلك فقد ارتقى ووصل آفاق الصحابة، لأن مجلسه ﷺ مناخٌ يصبِغُ المخاطبين ويؤثّرُ في أعماقهم، فهو يُذكِّرُ بالله تعالى دائمًا بحاله وسلوكه وجلسته وقَومَتِه وصمته وحديثه وما في وجهه

من قشعريرة، وما في تقاسيمه من سعادة، إنه ﷺ يُشعر -بكلِّ أحوالِه- مَنْ بجواره أنه في حضرة الله تعالى.

والأمر كذلك بالنسبة لبعض أولياء الله تعالى الذين جاؤوا بعد سيد الأنبياء ﷺ؛ فقد يرتقون -بنفَسٍ واحدٍ منهم أحيانًا- بمَنْ يدخل في جوّهم ومناخهم إلى أفق الإنسان الكامل، ويمكنكم أن تضربوا مثلًا على ذلك الارتقاء العمودي بما كان لدى ذوي القابليات العالية مثل: "طاهر موتلو *(Tahiri Mutlu)*" و"حسن فيضي *(Hasan Feyzi)*" وحافظ علي *(Hafiz Ali)* وخلوصي أفندي *(Hulusi Efendi)*" الذين تحلَّقوا حول فضيلة الأستاذ بديع الزمان.

غير أنّ هذه الأمور من النادِرِ وقوعها، وليست دائمةً ولا مستمرّة، لأن ذلك كرمٌ إلهيٌّ يظهر لدى الأنبياء العظام في صورة معجزة، بينما يظهر لدى الأولياء العظام في صورة كرامة، أما الجانب الموضوعي من هذه المسألة، أي شكلها الذي يمكن للجميع اللجوء إليه في كل آنٍ وحينٍ فيتسنى باستغلال الإرادة استغلالًا صحيحًا في جميع الأوامر والنواهي.

إنْ كنا نُريد أن نجعل قِيمَنا الخاصة بُعدًا من أبعاد طبيعتنا فعلينا أن نجتهد للاشتغال الدائم بروافدنا ومصادرنا، وأن نتحدث عن الحبيب تبارك وتعالى في حلِّنا وترحالنا، وننسجَ كلَّ أحاديثنا وجلساتنا حوله.

كذلك ينبغي ألَّا ننسى أنّ الله في عون العبد ما دام العبد يبذل جهدًا حقيقيًّا ويسعى سعيًا حثيثًا في موضوع العبوديّة له تعالى.

إن تحبِبِ ٱلمولى، أتظنُّ أنه لن يحبك؟

وإن طلبت رضا الحق، أتحسبه خاويًا يرُدّك؟

وإن ضحيتَ بالروح عند باب الحقّ

وكنتَ طوعَ أمره، أفيبخسُك اللّٰه ثوابك وأجرَك؟

إنكم إنْ تتّجهوا إلى اللّٰه، يتّجه إليكم، وإنْ تحوّلوا أنظاركم وأبصاركم إليه تعالى ينظر إليكم، وإنْ تفتحوا إليه قلوبكم وأفئدتكم لا يتركها خاويةً فراغًا.

وختامًا أقولُ إنْ استطاعَ الإنسانُ جعل تطبيق الإسلام طبيعة فيه فلن يتعسَّرَ ولن يتعب كثيرًا في أداء مجموعة من العبادات والتكاليف المنوطَة به، فمثلًا إنّ الاستيقاظَ من النومِ ليلًا والقيامَ إلى التهجُّد ليثقُل ويشقُّ على النفس، غير أنّ الإنسان إنْ جعل هذا الأمرَ جزءًا لا يتجزّأُ من طبيعته، وكأنه عقدَ اتّفاقًا سرّيًّا بينه وبين اللّٰه تعالى؛ فلن ينزعج ولن يتأذّى بسبب النهوض من فراشه، ربما يعاني في أول الأمر من خمولٍ بسبب النوم، إلّا أنّه حين يُسلِمُ نفسَه للصلاة ويتوجه بالدعاء ويشرعُ في التضرُّع إلى اللّٰه تعالى؛ فإنّه سيقول من شِغافِ قلبه: "ما أحسنَ أنْ استيقظتُ، واستثمرتُ هذه الساعات الليليّة الموحشة، وتوجهت فيها بالمناجاة لربي!".

نـحو أفق الرضا

سؤال: قال رسول الله ﷺ "رَضِينَا بِاللهِ رَبًّا وَبِالإِسْلَامِ دِينًا وَبِمُحَمَّدٍ رسـولًا"[٧] مـاذا يعنـي إقـرار المؤمن بهـذا؟ وكيف يُقال هـذا الذكر المبارك؟

الجواب: بشّـرنا **سيـد الأنام** ﷺ فقال: "**مَنْ قَالَ إِذَا أَصْبَحَ وَإِذَا أَمْسَى: رَضِينَـا بِاللهِ رَبًّا، وَبِالْإِسْـلَامِ دِينًـا، وَبِمُحَمَّدٍ رَسُـولًا، إِلَّا كَانَ حَقًّا عَلَى اللهِ أَنْ يُرْضِيَـهُ**"[٨]؛ فينبغـي للمؤمـن أن يتخذ من هذا الإقـرار الميمون والذكر المبـارك وردًا دائمًـا يكرره صباح مسـاء؛ فهو هنا يقرّ أنـه رضي بالله، فهو إذًا راضٍ بـكل تصرفاتـه تعالـى؛ وأنه قبل بالإسـلام نظامًـا إلهيًّا، ورضي عنه، ورضي كذلك بسـيد الأنبياء ﷺ رسـولًا، وسلَّم برسالته؛ فالطريق إلى الإيمان الحقيقي يمر أصلًا من شـعورٍ واعتقادٍ وإذعانٍ كهذا. فرسـول الله ﷺ يعلمنـا بهذا الإقرار النفيس حقيقة مهمة، ويحُثّ المسـلمين بالإشـارة على القيام بأعمال تبلّغُهم أفق ذاك الرضا الذي أقروا به بألسـنتهم، إقرارًا من شأنه أن ينمّي هذا الحسَّ في قلوبهم ويعمّقه ويؤصّله.

(٧) **صحيح البخاري**، العلم، ٢٩؛ **صحيح مسلم**، الصيام، ٣٦.

(٨) **سنن أبي داود**، الأدب، ١١٠.

قطب مرتبة الرضا

أثبتت العبارة الأولى من حديثه هذا أنه ﷺ قطب مرتبة الرضا، وذلك بقوله "**رَضِينَا بِاللهِ رَبًّا**" وبحياته السَّنية المخلصة لهذه الحقيقة الشاهدة عليها؛ أجل، إنه ﷺ في القلب من مركز مرتبة الرضا؛ فلنعلم في كل مرة نقول فيها "**رَضِينَا بِاللهِ رَبًّا**" أنه سبقنا إليها، وعلينا أن نقتدي به، بل حتى لو حلّق إنسان نحو السموات، وناداه ربّه مباشرة "إني عنك راضٍ"، بل وأجلسه -فَرَضًا- مع سيد السادات جنبًا إلى جنب، وأنعم عليه بالإلهام والواردات كما أنعم على الرسول ﷺ بالوحي، وألقى في روع كلّ منهما الأمر نفسه؛ لوجب دائمًا على ذلك الشخص أن يرى الرسول الأكرم ﷺ المرشدَ والهادي؛ لأنه ما وصل إلى ما وصل إليه من حسٍّ وفكر ومنطق وفهم وتدبر وتأمل إلا بفضله وفي ظل إرشاده ﷺ، ولولاه لكانت دنيا ذلك الإنسان وآخرته سجنًا حالكًا؛ فإقرار الإنسان بداية طوعًا وقصدًا بأن سيد السادات ﷺ هو المرشد والمعلم واتّباعه له أمرٌ مهمّ جدًّا لبلوغ أفق الرضا.

وبينما يبلغ البعض بالسير والسلوك الروحاني من المراتب ما يُوثّق صلتهم به ﷺ؛ قد يسقط بذلك من لا يَزِن كل شيء بميزان الشريعة في شطحات وطيش -نسأل الله السلامة-، وقد يقول هذا حينئذ: "سبق نوري نورَه ﷺ"، والحقّ أنه ﷺ هو النور كله من أوله إلى آخره، وليس لأحد أن يبلغ ذلك النور ألبتة، ولا ذلك المقام الذي أحرزه.

وقول رسول الله ﷺ "**وَبِالْإِسْلَامِ دِينًا**" معناه أنه رضي بالإسلام نظامًا إلهيًّا. أجل، فلا أحد ألبتة وَعَى الإسلام وفهمه مثلما وعاه وفهمه هو ﷺ، ولا أحد رضي عن هذا النظام الإلهي ووقف حياته عليه، ولم يكن له همٌّ سوى إقامته مثلُه هو ﷺ؛ ولو اجتمعت صدّيقية أبي بكر رضي الله عنه، وفاروقية عمر

ابن الخطاب ﷺ، واستمساك سيدنا عثمان ﷺ بالقرآن الكريم وعِشقه له، ورتبة سيدنا علي ﷺ بطلِ الروح والقلب؛ لما عُدَّت شيئًا بجانب مرتبة رضا سيدنا محمد ﷺ بالإسلام، ولا يذهبن بأحد الوهم إلى أني أستخف بهؤلاء الأعلام العظام، بل إنما أردت أن أؤكد على عظمة العظيم ﷺ، وبيان عظمة رضاه بالإسلام.

وأخيرًا يذكر سيدنا رسول الله ﷺ بقوله "**وَبِمُحَمَّدٍ رَسُولا**" أنّه راضٍ برسالته هو، والأصل في الحبيب الأكرم ﷺ التواضع والفناء، حتى إن كلّ ما يفعله يفعله بوصفه عبدًا لله، فيأكل مع خادمه، ولا يأكل حتى يأكل معه، ولا يرى لنفسه فضلًا على أصغر إنسان، وقد شُرِّف مع هذا كلِّه بمهمة الرسالة "القول الثقيل"؛ ويستحيل أن يكون الإنسان مسلمًا ما لم يشهد أن "محمدًا رسول الله" مع شهادته أن "لا إله إلا الله"؛ لأن الإيمان برسالته ركن أصيل من أركان الإسلام والإيمان؛ وهنا يبدو كأن هناك تناقضًا صُوريًّا بين تواضع سيد السادات الفريد النادر وإعلانه مهمة الرسالة، وبناء على هذا فإن قوله ﷺ "وَبِمُحَمَّدٍ رَسُولًا" -مع تواضعه الفائق- له مغزى عميق؛ نعم، ما قال هذا إلا لأنّ هذه الحقيقة تقدير من الله وتكليف لا يسعه ﷺ نفيُه ولا إخفاؤه تواضعًا.

الشعور بالرضا على قدْرِ المعرفة

كيف يقال هذا الذكر المبارك؟

من المهم جدًّا أن يؤدِّي الإنسان هذا الذكر بعشق واشتياق ينبعث من أعماق قلبه بعد أن يتحرر من الغفلة والألفة، والأصل أن الرضا بالله وبرسوله وبالإسلام رهنٌ أوَّلًا بمعرفتهم معرفةً كاملة؛ فمحبة العارف على قدر معرفته، أما الجاهل فلا يبالي بما يجهله؛ ومن ثم فإنه يستحيل عليكم

بلوغ أفق الرضا ما لم تعرفوا الله بعظمته وجلاله وأسرار ربوبيته وأسرار ألوهيته حق المعرفة، ويستحيل عليكم أن ترضوا حقّ الرّضا برسالة مفخرة الإنسانية ﷺ إن لم تعرفوه بفضائله وخصائصه، كما يتعذر عليكم بالشكل نفسه أن ترضوا بالإسلام إن لم تعرفوه بسعته وعمقه، وأصوله وفروعه.

وجفاء الكثيرين اليوم لمفخرة الإنسانية ﷺ مردُّه إلى جهلهم به وعدم تعرفهم عليه، ولو أننا استطعنا إشعال شمعة لسيدنا رسول الله ﷺ في قلوبهم، لشُغفوا به وحظوا بالتعرف عليه. نعم، فكما أن الشوارعَ لا تتيح فرصة التعرف عليه، فكذا المدارس والبيوت، بل المساجد كذلك لم توفر إمكانية التعرف عليه بالشكل اللائق؛ فنشأ هؤلاء محرومين من التعرف على مفخرة الإنسانية ﷺ؛ فالحمد لله وله المنة أنه ما زالت تتلألأ في قلب إنساننا -رغم كل هذا الإهمال الذي تعرض له- معانٍ خاصةٌ به ﷺ، وأنه ما زال يشهد "**أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله**".

الإلحاح في الدعاء لتحصيل أكبر نعمة

لما كان الرضا نعمةً أكبر بكثير من الجنة ونعيمها، وجب أن نرفع أيدينا إلى الله، ونضرع إليه بالدعاء دائمًا قائلين: "اللهم بلِّغنا أفق الرضا". أجل، علينا أن تكون أنفاسنا قائمة على "اللّهُمَّ اهْدِنَا إِلَى مَا تُحِبُّ وَتَرْضَى"، ونستشعر دائمًا "اللّٰهُمَّ عَفْوَكَ وَعَافِيَتَكَ وَرِضَاكَ"؛ لأن الله تعالى وعد بأنَّه سيمُنّ على الإنسان بما يطلبه بصدق وإخلاص، لكن لا بد من الإلحاح في الطلب؛ لأن استجابة الدعاء قد تتأخر بضع سنين أو عقودًا، فإن كنا نرغب بأن يرضى الله تعالى عنا، وتنبض قلوبنا في كل لحظة بالرضا عن تدبيره فعلينا أن نتضرع ونبتهل عشرًا بل عشرين سنةً لتتحقق هذه الغاية.

وأعتقد أن تحقيق هذا ربما يقتضي الدخولَ في "ماراثون" دعاءٍ طويلٍ؛ فالحق تعالى بيّن بقوله: ﴿وَرِضْوَانٌ مِنَ اللهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ (سورة التَّوْبةِ : ٧٢/٩) أنّ الرضا الإلهي أسمى وأعظم من دخول الجنة ومن الفردوس ورؤية المصطفى ﷺ؛ إلّا أنني أظن أنه لا أحد منا دعا الله بالرضا زمنًا طويلًا بهذا القدر، إننا لم ندعُ الله "اللهم رضاك، اللهم رضاك..." خمسًا وعشرين سنة مثلًا، ولم نتذلل له، وليس هذا الأمد فحسب، بل لو طال بنا العمر لكان علينا أن نتضرع ونبتهل مئات السنين.

فإن رسولنا الأكرم ﷺ قد حدد للمسلمين هدفًا علويًّا سامقًا، فوقع على عاتق المسلمين السعي الحثيث لتحقيق هذا الهدف؛ فعلى كل مؤمن أن يتبنى ذلك الهدف ويُعنَى به، فمن يحدد لنفسه هدفًا يمضي حياته أملًا في تحقيقه، حتى إن ذهنه كثيرًا ما ينشغل به أثناء وضوئه أو مشيه إلى المسجد، بل حتى أثناء صلاته؛ فهذه الأفكار التي يرددها في ذهنه وينشغل بها دائمًا يتقبلها الله تعالى منه كأنها دعاء، ولا يُخيبها سبحانه؛ فالذي يجب علينا إذًا هو السعي المتواصل لبلوغ أفق الرضا الذي حدده رسول الله لنا هدفًا، وأن يكون حديثنا دائمًا عنه، وأن نحيا به ونفكر فيه في أحوالنا كلِّها.

رمضان والقلوب الرقيقة

سؤال: يأتينا شهر رمضان كل سنة وكأنه سكينة تنزل من السماء؛ فترقِّق قلوبنا وتذيبها، وتوصلها إلى قوام معيَّن؛ فما الأمور التي توصوننا بها كي نستفيد من هذا الشهر الكريم استفادة كاملة في حياتنا الفردية والاجتماعية؟

الجواب: إن شهر رمضان يلوح في أفقنا بجمالياته الساحرة الجذابة مثل الصيام والإفطار والسحور وصلاة التراويح؛ فيشكّل مناخًا قدسيًّا خاصًّا به، وهو ذو تأثير متميز تمامًا حيث يسهم في أن تدرِك الأرواحُ الصلاحَ مجددًا، وتسلَمَ القلوبُ والأحاسيس والأفكار، وتهدأ كل أنواع القسوة والخشونة، حتى في تلك الفترات التي تتوالى فيها التوترات، وتطفح فيها الشدة والعنف، وتُعتبر المعارضة والمخالفة نوعًا من المهارة، ويعيش فيها جموع الناس فيما بينهم جمودًا خطيرًا، والواقع أن إنساننا يحمل في داخله مشاعر من الاحترام الحقيقي تجاه هذا الشهر المبارك الذي تُستشعر فيه الوَدَاعَةُ والرقة واللطف بشكل واضح؛ ومن هذه الزاوية فإننا حتى وإن كنا في الوقت الراهن محاطين من كل جهة بسلبيات مختلفة؛ إلا أننا إن أعطَينا إرادتنا حقها، وفتحنا قلوبنا لهذه الفترة الزمنية المباركة، وآمنّا من أعماقنا ببركته، وتوجَّهنا إليه بمشاعر التعظيم والاحترام؛ فإنه هو

أيضًا سوف يحتضننا، ويُفيض علينا بركته وابلة غزيرة تشملنا من رؤوسنا إلى أخامص أقدامنا، وسوف يمكننا التغلب على الحدة والغضب والعنف، وبهذه الطريقة يَسُود من جديد مناخٌ من السعادة والطمأنينة والسكون في المجتمع.

ليس تنوع الطعام، وإنما كثرة الضيوف

أما بالنسبة للأمور الواجب فعلُها في هذا السياق؛ فهي على سبيل المثال تتمثل في أن الشخص المقيم في شقة بعمارة سكنية يستطيع -بقدر طاقته- أن يبدي كرمه وحسن تصرفه بدعوته جيرانه -أيًا كانت ثقافتهم ومنطقهم- إلى مائدة الإفطار عن طريق إخبارهم بذلك قبل بضعة أيام من الموعد، ويقدم لهم بعد الطعام هدية صغيرة أعدها لهم مسبقًا قائلًا: "لقد شرفتمونا بتلبية الدعوة، وأتعبتم أنفسكم في تناول طعامنا، فنرجو أن تتفضلوا بقبول هذه الهدية البسيطة منا"، كما أنه يمكنه إسعاد قلوب أولادهم إن كان قادرًا على ذلك، وبالشكل نفسه فإن من يعمل مدرِّسًا في مدرسة، أو أستاذًا في جامعة، أو عاملًا في مؤسسة يمكنه أن يساهم في تحقيق السلم الاجتماعي عبر فتحه باب منزله للجميع وإشراكِهم في مائدة إفطاره دون تفريق بين فئة وأخرى.

ينبغي لنا أن نثمن ونستثمر هذا الشهر المبارك المليء بالنور بحيث لا يمر علينا يوم من أيامه على الإطلاق دون أن ينزل ضيف على مائدة إفطارنا. أجل، لا بد من إثراء موائد الإفطار بكثرة الضيوف وتنوعهم أكثر من إثرائها بكثرة الطعام، فقد قال الرسول الأكرم ﷺ كما تعلمون:

"طَعَامُ الاثنينِ كافي الثَّلاثَةِ، وَطَعَامُ الثلاثَةِ كافي الأَربعَةِ"[٩].

(٩) صحيح البخاري، الأطعمة ١١؛ صحيح مسلم، الأشربة، ١٧٩

ومـن هـذه الزاوية يجب ألا نقلق من كثرة الضيوف في شـهر رمضان ذي البركة الخاصة به.

إن مثـل هذا الأسـلوب فـي التصرف طريق دبلوماسـي مهم من أجل ردم الفجوات بين مختلف شـرائح المجتمع، وتجاوزِ الأحكام المسبقة، فالحقيقة أن هناك كثيرًا من المشـاكل التي يتعذر حلها بالقوة والشدة، ولا يُتغلـب عليها بالوحدات العسـكرية المدجّجة؛ يمكـنُ حلّها بهذا الطريق. أجـل، إنكـم إذا فتحتـم قلوبكـم للجميـع، ودخلتـم قلـوب مخاطبيكـم بإنسـانيتكم، وهيأتـم في قلوبكم مكانا يمكـن للجميع أن يحل به، وبهذه الطريقـة جعلتم القلوب تسـاندكم، فحينذاك تتم الحيلولـة دون ما لا قبل لكـم بها من شـتى أنواع الكراهيـة والحقد والغيظ وإراقـة الدماء وإزهاق الأرواح؛ كما أنه لم يُشـاهَد على مر تاريخ الإنسـانية مشكلات أو أزمات حُلّت بالتهديدات على الإطلاق، بل لقد زاد غضب الناس بصورة أكثر في مواجهة التهديدات، وساروا نحو هيكلة أنفسهم بالتمحور حول التخريب بحرارة أكثر.

وكما ورد في أحد الأمثال التركية "فنجان قهوة خاطره أربعون سـنة"؛ فإنـه سـيكون للإفطار الـذي نقدمه لضيوفنا خاطر أربعين سـنة، ومن هذه الزاويـة فإنـه لا بد من القيام حتمًا بمثل هـذه الرجولة والكرم الذي يكون مـردوده مختلفًـا جدًّا، ولسـنا ندري ربما أن بركة أخرى من بركات شـهر رمضان المتميزة تكمن في هذا، أي إننا كما نستطيـع الحصول على الثواب الأخـروي بالصوم وصلاة التراويح؛ فإننا نحقق ربحًا ومكسـبًا متميزًا عن طريق دخولنا قلوب الناس.

صدًى من وراء السماوات يدوّي في القلوب

ويمكن أيضًا لرجال الخدمة الذين هرعوا إلى خدمة الإنسانية في كلّ أنحاء العالم أن يعتبروا شهر رمضان وسيلةً مهمةً للنفوذ إلى القلوب؛ فلقد كشفت الأضاحي التي تُذبَح وتُوزّع في عيد الأضحى في كلّ أنحاء العالم -بدءًا من تركيا حتى آسيا وإفريقيا- عن كرم وأصالة إنساننا، فأصبحت وسيلةً لفتح القلوب وإثارةِ عاطفة الثقة لدى هذه الشعوب فينا واقتناعهم بأن هناك أناسًا هم محل ثقتهم وأمانهم، وعلى نفس الشاكلة قد يكون القيام بحملة تَعْبويّة رمضانية عن طريق فتح أبواب الفطور والسحور أمام الجميع فرصة ذهبية لكسب العديد من القلوب والوصول إلى كيفيةٍ يرضى بها ربّنا ﷻ عنّا، لأن المدعوين على الإفطار والسحور في رمضان لا سيما في بلاد غير مسلمة يتأثرون للغاية بمثل هذه الفعاليات حتى إنكم إن استمعتم إلى انطباعاتهم أدركتم بشكل أكبر مدى أهمية العمل الذي تقومون به، فمثلًا يأتيهم الأذان الذي يسبق الإفطار غضًّا طريًّا فيطربون به ويُسحرون. ومن ثمّ ينبغي لنا أن نُحسن استغلال هذه المناسبة في تعريف مخاطبينا بجمالياتنا والثراء المعنوي الذي عندنا.

وربما تؤدي جميع هذه الفعاليات إلى مجرد تعاطف هؤلاء المخاطبين في نظرتهم إلى الإسلام، وليس لنا أن نستهين بهذا الأمر، فمن يدري لعلّ هؤلاء الذين يشعرون بالحيوية والطراوة في كل شيء يدركون مع الوقت جماليات الإسلام بشكل آخر، فيرتقون فجأة وبشكل عمودي إلى عرش كمالاتهم؛ ولذلك فإنني أعتقد أن الحصول على مثل هذه النتيجة جديرٌ بأن نقيم أمامهم الموائد كل يوم مرات لا مرة واحدة.

مع الأسف عاش الناس في عصرنا محرومين من جماليات الإسلام، لم يلمسوا السلوكيات والأخلاق الإسلامية؛ فأهم مهمة ملقاة على عاتقنا هي الكشف لهم عن الإسلام الحقيقي من خلال بنيتنا الأسرية، والعلاقة بين الأب والأم والأولاد عندنا، ومن خلال ولائمنا وكرمنا، فإن كان البعض يرى الإسلام "بُعْبُعًا" فالسبيل إلى إزالة هذا هو مخالطتهم وتأسيس علاقة وثيقة بيننا وبينهم، ومن ثمّ ينبغي أن يقوم المسلمون في هذا الشهر المبارك بتحقيق هذا الأمر بشكل معقول وفقًا لما يستلزمه موقعهم أيًّا كان هو، مع الأخذ بالشورى والعقل والمنطق والعقلانية.

ليس هناك عملٌ يحلّ محل العمل في رمضان

إن كل عبادة فرضها الله ﷻ علينا وكلفنا بها ستتخذ ماهية مختلفة على حسب أدائنا لها، وستشهد لنا عنده تبارك وتعالى، وبقدر بذلنا في شهر الغفران هذا ستكون شهادة الشهر في حقنا قوية ندية، فإن أحسنّا استغلال هذا الشهر الفضيل شهد لنا لدى الحق تعالى عند رحيله عنّا وفراقه لنا وربما رشّحنا للدخول من باب "الريّان"، من أجل ذلك علينا أن نقدّر العبادات التي كتبها الله علينا حق قدرها ونجلّها ونعظّمها ونسعى إلى استغلالها بالأسلوب الأمثل.

وسيعلم الإنسان أي الأعمال التي كانت سببًا في إسباغ النعم عليه في الآخرة، وهذا سيزيد من فرحته بقدر فرحته بهذه النعم، وربما يناجي ربه ﷻ شاكرا له على أنعمه قائلًا: "حمدًا لك يا ربي! شرّفتني بالعمل بدايةً، وشرفتني بثوابه آخرًا".

أجل، سيعرف العبد صيامه هنالك معرفة كاملة، وسيتعرف على جوعه وظمئه وتعبه في صلاة التراويح، ومشاعرِه الجياشة حين القيام

للسحور، وكرمِه في موائد الإفطار بشكل يتوافق مع خصوصيات العالم الآخر، وسيعيش فرحة هذا كله.

إن بعض العبادات والطاعات تستمدّ عمقها من ظرفها ووقتها خاصة، وهكذا كل عبادة وطاعة تُؤدَّى في رمضان، وعلى ذلك تكتسب الأعمال في رمضان قيمة أخرى، ويتقرب الناس إلى ربّهم في رمضان بصورة مختلفة تمامًا؛ فليس هناك صومٌ يبلغ صوم رمضان، كما أن عشرين ركعة في غير رمضان لا تعدل مطلقًا صلاة التراويح في رمضان، ولا يصل ثواب السحور في الليالي الأخرى في غير رمضان إلى ثواب السحور فيه، ولا يشبه انتظار الأذان الذي يسبق الإفطار في غير رمضان الأذانَ فيه.

والخلاصة: لا يتساوى ثواب الأعمال في غير رمضان مع ثواب الأعمال الذي يحصل عليه العبد في رمضان، فليس هناك عمل قط يملأ فراغ العمل في رمضان، فإن المؤمنين الصادقين الذين يشعرون بهذه الحقيقة بعمقٍ في وجدانهم يشعرون بألم فراق غريب مع رحيل رمضان، ويلفّهم الحنين إلى أن يأتي رمضان القادم، ولا ندري ربما يكسبهم هذا الحنينُ ثوابَ رمضان آخر.

مصادر

أبو داود، سليمان بن الأشعث بن إسحاق بن بشير بن شداد بن عمرو الأزدي السِّجِسْتاني (ت: ٢٧٥هـ)؛ **سنن أبي داود**؛ (**موسوعة الحديث الشريف الكتب الستة-٣**)؛ دار السلام، رياض.

أبو يعلى، أبو يعلى أحمد بن علي بن المثُنى بن يحيى بن عيسى بن هلال التميمي، الموصلي (ت: ٣٠٧هـ)؛ **المسند**؛ تحقيق: حسين سليم أسد؛ دار المأمون للتراث، دمشق، ١-١٣، ط ٢، (١٤٠٤هـ/١٩٨٤م).

أبو نعيم، أحمد بن عبد الله بن أحمد بن إسحاق بن موسى بن مهران الأصبهاني (ت: ٤٣٠هـ)؛ **حلية الأولياء وطبقات الأصفياء**؛ السعادة - مصر، ١-١٠، ط ١، (١٣٩٤هـ/١٩٧٤م). [ثم صورتها عدة دور منها: ١- دار الكتاب العربي - بيروت، ٢- دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع - بيروت، ٣- دار الكتب العلمية- بيروت (طبعة ١٤٠٩هـ بدون تحقيق)].

ابن حبان، محمد بن حبان بن أحمد بن حبان بن معاذ بن مَعْبَدَ التميمي أبو حاتم الدارمي البُستي (ت: ٣٥٤هـ)؛ **صحيح ابن حبان**؛ تحقيق: شعيب الأرنؤوط؛ مؤسسة الرسالة، ١-١٨، بيروت، ط ١، (١٤٠٨هـ/١٩٨٨م).

ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي (ت: ٧٧٤هـ)؛ **تفسير القرآن العظيم**؛ تحقيق: سامي بن محمد سلامة؛ دار طيبة للنشر والتوزيع، ١-٨، ط ٢، (١٤٢٠هـ/١٩٩٩م).

ابن ماجه، أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني، (ت: ٢٧٣هـ)؛ **سنن ابن ماجه** (**موسوعة الحديث الشريف الكتب الستة-٦**)؛ دار السلام، الرياض.

أحمد بن حنبل، أحمد بن حنبل أبو عبد الله الشيباني ؛ **مسند الإمام أحمد بن حنبل**؛ مؤسسة قرطبة، القاهرة، ١-٦.

البزار، أبو بكر أحمد بن عمرو بن عبد الخالق بن خلاد بن عبيد الله العتكي (ت: ٢٩٢هـ)؛ **مسند البزار**؛ تحقيق: محفوظ الرحمن زين الله (من ١ إلى ٩) وعادل بن سعد (من ١٠ إلى ١٧) وصبري عبد الخالق الشافعي (١٨)؛ مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، ١-١٨، ط ١، (٢٠٠٩م).

البيهقي، أحمد بن الحسين بن علي بن موسى الخُسْرَوْجِردي الخراساني، أبو بكر البيهقي (ت: ٤٥٨هـ)؛ **شعب الإيمان**؛ تحقيق: د. عبد العلي عبد الحميد حامد؛ مكتبة الرشد، الرياض، ط ١، ١-١٤، (١٤٢٣ هـ/٢٠٠٣م).

ـــــــ، **كتاب الزهد الكبير**؛ تحقيق: عامر أحمد حيدر؛ مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، ط ٣، (١٤١٧هـ/١٩٩٦م).

البخاري، محمد بن إسماعيل أبو عبد الله البخاري الجعفي (ت: ٢٥٦هـ/٨٧٠م)؛ **صحيح البخاري (موسوعة الحديث الشريف الكتب الستة-١)**؛ دار السلام، الرياض.

ـــــــ، **التاريخ الكبير**؛ دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد - الدكن، ١-٨.

الديلمي، شيرويه بن شهردار بن شيرو يه بن فناخسو، أبو شجاع الديلمي الهمذاني (ت: ٥٠٩هـ)؛ **الفردوس بمأثور الخطاب**؛ تحقيق: السعيد بن بسيوني زغلول؛ دار الكتب العلمية، بيروت، ١-٥، (١٤٠٦هـ/١٩٨٦م).

الحاكم، أبو عبد الله الحاكم محمد بن عبد الله بن محمد بن حمدويه بن نُعيم ابن الحكم الضبي الطهماني النيسابوري (ت: ٤٠٥هـ)؛ **المستدرك على الصحيحين**؛ تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا؛ دار الكتب العلمية، بيروت، ١-٤، ط ١، (١٤١١هـ/١٩٩٠م).

الطبراني، سليمان بن أحمد بن أيوب بن مطير اللخمي الشامي، أبو القاسم (ت: ٣٦٠هـ)؛ **المعجم الصغير**؛ تحقيق: محمد شكور محمود الحاج أمرير؛ المكتب الإسلامي، دار عمار، بيروت، ١-٢، ط ١، (١٤٠٥هـ/١٩٨٥م).

ـــــــ، **المعجم الأوسط**؛ تحقيق: طارق بن عوض الله بن محمد، عبد المحسن ابن إبراهيم الحسيني؛ دار الحرمين، القاهرة.

ـــــــ، **المعجم الكبير**؛ تحقيق: حمدي بن عبد المجيد السلفي؛ مكتبة ابن تيمية، القاهرة، ١-٢٥، ط ١، (١٤١٥هـ/١٩٩٤م).

الطبري، محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، أبو جعفر الطبري (ت: ٣١٠هـ)؛ **جامع البيان في تأويل القرآن**؛ تحقيق: أحمد محمد شاكر؛ مؤسسة الرسالة، ١-٢٤، ط ١، (١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م).

الكَشّي، أبو محمد عبد الحميد بن حميد بن نصر الكَسّي (ت: ٢٤٩هـ)؛ **المنتخب من مسند عبد بن حميد**؛ تحقيق: صبحي البدري السامرائي، محمود محمد خليل الصعيدي؛ مكتبة السنة - القاهرة، ط ١، (١٤٠٨هـ/١٩٨٨م).

مسلم، مسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري النيسابوري (ت: ٢٦١هـ)؛ **صحيح مسلم (موسوعة الحديث الشريف الكتب الستة-٢)**؛ دار السلام، الرياض.

النسائي، أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب بن علي الخراساني، النسائي (ت : ٣٠٣هـ)؛ **سنن النسائي**؛ دار المعرفة، بيروت، ١-٨، (١٩٩٢م).

———، **السنن الكبرى**؛ تحقيق: حسن عبد المنعم شلبي؛ مؤسسة الرسالة، بيروت ، ١-١٠، ط ١، (١٤٢١هـ/٢٠٠١م).

سعيد النُّورْسِي، بديع الزمان (ت: ١٩٦٠م)؛ **من كليات رسائل النور: الكلمات**؛ دار النيل للطباعة والنشر، إسطنبول، ط ٢، (١٤٣٢هـ/٢٠١١م).

———، **من كليات رسائل النور: المكتوبات**؛ دار النيل للطباعة والنشر، إسطنبول، ط ٢، (١٤٣٢هـ/٢٠١١م).

———، **من كليات رسائل النور: اللمعات**؛ دار النيل للطباعة والنشر، إسطنبول، ط ٢، (١٤٣٢هـ/٢٠١١م).

———، **من كليات رسائل النور: السيرة الذاتية**؛ دار النيل للطباعة والنشر، إسطنبول، ط ٢، (١٤٣٢هـ/٢٠١١م).

———، **من كليات رسائل النور: الملاحق**؛ دار النيل للطباعة والنشر، إسطنبول، ط ٢، (١٤٣٢هـ/٢٠١١م).

———، **من كليات رسائل النور: صيقل الإسلام**؛ دار النيل للطباعة والنشر، إسطنبول، ط ٢، (١٤٣٢هـ/٢٠١١م).

عبد الرازق، أبو بكر عبد الرزاق بن همام بن نافع الحميري اليماني الصنعاني (ت: ٢١١هـ)؛ **مصنف عبد الرازق**؛ تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي؛ المكتب الإسلامي، بيروت، ١-١١، ط ٢، (١٤٠٣هـ).

العجلوني، إسماعيل بن محمد بن عبد الهادي الجراحي العجلوني الدمشقي، أبو الفداء (ت: ١١٦٢هـ)؛ **كشف الخفاء ومزيل الإلباس**؛ تحقيق: عبد الحميد بن أحمد بن يوسف بن هنداوي؛ المكتبة العصرية، ١-٢، ط ١، (١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م).

القضاعي، أبو عبد الله محمد بن سلامة بن جعفر بن علي بن حكمون القضاعي المصري (ت: ٤٥٤هـ)؛ **مسند الشهاب**؛ تحقيق: حمدي بن عبد المجيد السلفي؛ مؤسسة الرسالة، بيروت، ١-٢، ط ١، (١٤٠٧هـ/١٩٨٦م).

الراغب الأصفهاني، أبو القاسم الحسين بن محمد (ت: ٥٠٢هـ)؛ **المفردات في غريب القرآن**؛ تحقيق: صفوان عدنان الداودي؛ دار القلم، الدار الشامية - دمشق بيروت، ط ١، (١٤١٢هـ/١٩٩٢م).

الترمذي، محمد بن عيسى أبو عيسى الترمذي السلمي (ت: ٢٧٩هـ)؛ **سنن الترمذي**؛ تحقيق: أحمد محمد شاكر؛ دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١-٥.